تاريخ العرب

(مُطوَّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور إدورد جرجي الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الأول

١٩٤٩

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

مقدّمة

لقد وضع كتاب تاريخ العرب في الأصل باللغة الانكليزية وطبع اول مرة في مطبعة مكملان «Macmillan» في لندن عام ١٩٣٧ . ثم توالت طبعاته منذ ذاك العهد حتى بلغت اربعاً آخرها سنة ١٩٤٩ . ونقل في خلال هذه السنوات الى اللغات الالمانية والافرنسية والاوردية والتركية والمخابرة جارية بشأن نقله الى غيرها من اللغات الاوربية والأسيوية .

اما هذه الترجمة التي نقدم الجزء الاول منها فقد قام بها اول الأمر تلميذي وزميلي الدكتور ادورد جرجي الاستاذ المشارك في كلية پرنستون للاهوت . ولقد عُرض القسم الاوفر من المخطوطة على انيس الخوري المقدسي استاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الأميركية فتلطف وراجعه وهذّب بعض عبارته فله شكرنا الجزيل . واخيراً عهد الى تلميذي الدكتور جبرائيل جبور الاستاذ المشارك في الجامعة نفسها ان يحرّر الكتاب ويساهم معنا في نشره فراجعه ونقحه بدوره ووقف على طبعه وتعهّده بعنايته الخاصة .

ولهذه الترجمة العربية ميزة خاصة وهي انه سيظهر فيها لاول مرة قسم جديد لم يظهر بعد في الطبعة الانكليزية او في اي من الطبعات الأخرى وهو القسم الذي يبحث تاريخ العرب منذ اول العهد العثماني حتى زمننا الحاضر .

ولعل القارىء يلذّ له ان يعرف ان للكتاب موجزاً ظهر عام ١٩٤٣ عن مطبعة جامعة پرنستون بعنوان « The Arabs : A Short History » . وقد أصدر المجلس الحربي الاميركي منه طبعة خاصة للجيش عدد نسخها خمسون الفاً. وفي عامنا هذا (١٩٤٩) أخرجت مطبعة پرنستون الطبعة الخامسة من الموجز. وكذلك اصدرت في العام الفائت مطبعة مكملان في لندن طبعة خاصة منه . ولقد نقل الموجز حتى الآن الى الاسبانية والبرتغالية والهولندية والعربية . وقد ظهرت الترجمة العربية عن دار العلم للملايين في بيروت عام ١٩٤٦ بعنوان « العرب : تاريخ موجز »

ويسرني الآن أن تكون دار الكشاف التي تولت طبع الموجز العربي لدار العلم للملايين هي نفسها التي تتولى اليوم نشر تاريخ العرب « المطول » وطبعه في مطابعها الحديثة .

جامعة پرنستون
في ٢٥ تشرين الاول سنة ١٩٤٩

فيليب حتي

فهرس المحتويات

القسم الاول ـ عصر ما قبل الاسلام

القسم الثاني ـ ظهور الاسلام ودولة الخلافة

القسم الأول

عصر ما قبل الإسلام

الفصل الاول

العرب ساميون
الجزيرة مهد الجنس السامي

جدارة الموضوع

ليس بين كل البلاد التي تضاهي جزيرة العرب حجماً او بين كل الشعوب التي تناهز العرب في الاهمية التاريخية والمكانة العالمية بلد او شعب ناله من اهمال الباحثين في العصور الحديثة ما نال الجزيرة العربية والشعب العربي .

فهنا بلاد تعادل ربع اوربا او ثلث الولايات المتحدة مساحة ولكنّ ما نعرفه عنها ضئيل جداً اذا قيس بما نجهله ، بل لقد ازداد اطلاعنا نسبياً على مجاهل المنطقة المتجمدة الشمالية والجنوبية بينما لا تزال معلوماتنا عن احوال القسم الاكبر من جزيرة العرب قليلة .

ولما كانت جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي على ما يرجح فانها قد انشأت الشعوب التي نزحت فيما بعد الى الهلال الخصيب هذه الشعوب التي أصبحت مع تعاقب الاجيال امم البابليين والاشوريين والفينيقيين والعبرانيين . وفي تربة هذه الجزيرة الرملية نشأت العناصر الأصلية للديانة اليهودية وبالتالي المسيحية وظهرت هذه السمات والسجايا التي اصبحت بحكم التطور فيما بعد من مميزات الخلق السامي . واما في العصور الوسطى فقد اخرجت جزيرة العرب هذا الشعب الذي سيطر على معظم العالم المتمدن اذ ذاك وكانت مهداً لدين هو الاسلام يدين به في يومنا هذا ما لا يقل

عن ٢٧٥ مليوناً من الناس يمثلون شتى الاجناس البشرية ويعيشون في مختلف البيئات . ان بين كل ستة أشخاص أو سبعة في عالمنا اليوم واحداً من اتباع محمد وان دعوة المؤذن الى الصلاة لتجلجل في معظم ساعات اليوم الاربع والعشرين مطوقة الشطر الاكبر من الكرة الارضية . وتتألق على هامة العرب تلك الهالة الوهاجة التي تقترن دائماً باسماء الفاتحين العالميين ، فلقد استطاعت هذه الامة في مدى قرن واحد أن تنشىء دولة عظيمة واسعة الارجاء بسطت سلطانها من شواطىء المحيط الاطلسي الى تخوم الصين وفاقت على امبراطورية رومة في اوجها . وفي اثناء هذه الحقبة من التوسع الذي لم يسبق له نظير استطاع العرب بواسطة الاختلاط مع الامم المغلوبة « ان يكسبوا الى دينهم ولغتهم وشكلهم عدداً من أبناء هذه الأمم ما استطاعت أمة قبلهم أو بعدهم أن تكسب مثله وتهتضمه ـ ولا نستثني من ذلك اليونان ولا الرومان ولا الانكلوسكسون ولا الروس » .(١)

ولم ينشىء العرب امبراطورية فحسب بل انشأوا ثقافة زاهرة أيضاً ، فقد ورثوا المدنية القديمة التي ازدهرت على ضفاف الرافدين وفي وادي النيل وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية ، وكذلك تشربوا واقتبسوا أهم معالم الثقافة اليونانية والرومانية وقاموا مقام الوسيط في أن نقلوا الى اوربا خلال العصور الوسطى كثيراً من هذه المؤثرات الفكرية التي أنتجت بالتالي يقظة أوربا الغربية ومهّدت لها سبيل نهضتها الحديثة . ولم تعرف أمة ساهمت في العصور الوسطى في التقدم البشري بقدر ما ساهم العرب والشعوب المتكلمة بالعربية .

وقد ظهرت ديانة العرب بعد اليهودية والمسيحية فاصبحت ثالثة الديانات التوحيدية وخاتمتها وهي من الناحية التاريخية تمتّ بأوثق الصلات الى هاتين الديانتين فكانت أقرب الديانات اليهما على الاطلاق وهكذا فان هذه الديانات الثلاث ليست الا نتاجاً لحياة روحية واحدة هي الحياة الساميّة . ومن هنا هان على المسلم المؤمن ـ اذا

(١) D.G. Hogarth, *The Penetration of Arabia* (New York, 1904) P. 7.


العالم الإسلامي
المحيط الأطلسي
المحيط الهندي

استثنينا بعض الاحوال - أن يسلّم بمعظم ما تنطوي عليه العقائد المسيحية . ولقد كان الاسلام ولا يزال عاملاً حياً يمتد أثره من مراكش الى الهند ، وديناً وحياة لملايين من الجنس البشري .

ثم ان اللغة العربية اليوم هي لغة التخاطب لما يقرب من خمسة وأربعين مليوناً من الناس وقد كانت طوال قرون عديدة في العصور الوسطى لغة العلم والثقافة والفكر الراقي في جميع أنحاء العالم المتمدن بحيث كان ما ألّف فيها فيما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر من التآليف الفلسفية والطبّية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية أكثر مما ألّف في أي لغة أخرى . وهذه لغات أوربا الغربية لا تزال الى الآن تحمل أثر الطابع العربي في طائفة كبيرة من الالفاظ المستعارة . وان حروف الهجاء العربية ، بعد اللاتينية ، هي أكثر الحروف انتشاراً في العالم . ويستعمل الحرف العربي في كتابة اللغتين الفارسية والافغانية ولغة الاوردو وطائفة من لغات الترك والبربر والملايو .

ان البابليين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين شعوب كانت ثم زالت اما العرب والمتكلمون بالعربية فانهم كانوا ولا يزالون . وهم يستقرون اليوم كما كانوا في الماضي في موقع جغرافي خطير على ملتقى أهم خطوط التجارة العالمية . ومنذ الحرب العظمى الاولى اثيرت بعض هذه الشعوب ولا تزال الحركات فيها الى اليوم . وقد استطاعت مصر ان تصبح دولة ملكية مستقلة ، واقام العراق ملكاً في عاصمته بغداد التي لم ترَ على عرشها ملكاً منذ زمن العباسيين ، وانشأ ابن السعود رجل الجزيرة العربية اليوم لنفسه مملكة عظيمة تضم الشطر الاكبر من وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي . اما سوريا ولبنان فقد أصبحا جمهوريتين مستقلتين وكان لبنان اول بلد جمهوري عربي ولا تزال فلسطين تسعى لانتزاع حريتها واستقلالها من ايدي الغاصبين . ان نجم العرب قد عاد الى الصعود .

رواد الجزيرة في العصر الحديث

كان لاوربا في عهد اليونان والرومان معرفة بشؤون الجنوب من جزيرة العرب فلقد ذكر هيرودتس وسواه ساحلها الغربي وكان اهم سبب لالتفات اليونان والرومان الى الجزيرة ان الجزء الجنوبي منها كان بلد اللبان والطيب والبهار وان سكانه كانوا همزة الوصل بينهم وبين اسواق الهند وبلاد الصومال ولكن اوربا في اواخر العصور الوسطى الحديثة جهلت بلاد العرب الى حد كبير وكان عليها ان تعيد اكتشافها في العصور الأخيرة من جديد. وكان اول من غامر باقتحامها فئة من الرواد والمرسلين المسيحيين والتجار وبعض الضباط الفرنسيين والبريطانيين الذين التحقوا بالحملات المصرية بين سنتي ١٨١١ و١٨٣٦ وغيرهم من المبعوثين السياسيين ورجال العلم.

وكان اول من وصف بلاد العرب من العلماء العصريين هو كارستن نيبوهر عضو البعثة العلمية التي انفذها ملك الدنمرك سنة ١٧٦١ ثم امّها احد الاسبان فزار مكة في سنة ١٨٠٧ واظهر الاسلام وعرفه القوم باسم علي بك العباسي وبالغوا في اكرامه حتى اتيح له شرف القيام بكنس البيت الحرام، اما العالم الالماني زيتزن الملقب بالحاج موسى فلقد اغتيل سنة ١٨١١ في اثناء ارتياده الجزيرة وليس لاخبار رحلته أثر. ومن الغريب ان اسكتلندياً التحق بالحملة المصرية التي جردت بقيادة طوسون باشا نجل محمد علي الكبير فما لبث ان استلم زمام الامور في المدينة المنورة سنة ١٨١٥. ولما قام ابراهيم باشا، وهو ايضاً من انجال والي مصر، باخضاع الوهابيين في نجد سنة ١٨١٩ كان في معيته ضابط من الجيش البريطاني يدعى سادلير، بصفة مستشار خاص له.

وكانت اليمن – التي عرفها اليونان والرومان من قبل اكثر من سواها – أول اقطار الجزيرة التي تصدّى المحدثون لكشفها ولم يلتفتوا كثيراً الى شؤون المناطق الشمالية في الجزيرة على قربها اليهم بالنسبة الى اليمن بحيث ان

الاوربيين الذين رادوا هذه المناطق وخلفوا أثراً لأخبار رحلاتهم لم يزد عددهم حتى يومنا هذا على اثني عشر.

وفي سنة ١٨١٢ كشف يوهان لودفيغ بركهاردت السويسري مدينة البتراء لعالم البحث ثم زار مكة وجدّة متنكراً وقد انتحل لنفسه اسم ابراهيم ابن عبدالله وأجاد في وصف ما شاهده من الاماكن بحيث لم يقم بعد من استطاع أن يزيد في ذلك. ويقع ضريح بركهاردت اليوم في القرافة الكبرى بسفح جبل المقطم في القاهرة ولسنا نعرف اوربياً غير بركهاردت ادرك ما ادركه هذا الرحّالة من العلم بشؤون مكة المكرمة قبل سنة ١٩٢٥ سوى الاستاذ سنوك هروغرونيه الذي زارها بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٨٦ وهو من علماء ليدن بهولاندة. وفي سنة ١٨٤٥ زار نجداً بحاثة فنلندي سويدي يدعى جورج اوغسطس فالين للقيام ببعض الدراسات اللغوية وقد قيل ان محمد علي الكبير اوفده اليها ـ بعد ان اخفق في مساعيه للاستيلاء على الشام ـ للقيام بمهام سياسية في مناطق جبل شمّر وهو على الأرجح غير صحيح. وحدث ان انصرف نابوليون الثالث بعد جلاء قواته عن لبنان في سنة ١٨٦٠ الى انشاء منطقة نفوذ له في اواسط الجزيرة فبعث اليها بعد انقضاء عامين رجلاً انكليزياً يدعى وليم غيفرد پالغريف كان يهودي المولد ثم تنصّر وانخرط في سلك الرهبنة اليسوعية واقام في مدينة زحلة بلبنان. وقد ادعى پالغريف انه ارتاد في قلب الجزيرة من الارض اكثر مما فعل حقاً. ولقد رافق پالغريف في هذه الرحلة فتى لبناني اسمه بركات وهو الذي سيم فيما بعد بطريركا على الروم الكاثوليك وعُرف ببطرس الجريجيري. وفي سنة ١٨٥٣ كان بين الحجاج الى الحرمين الشريفين رجل عُرف بالحاج عبدالله وهو في الواقع السير رتشرد برتن الذي اشتهر بنقله كتاب «الف ليلة وليلة» الى اللغة الانكليزية. ومن روّاد شمالي الجزيرة سيدتان اوربيتان احداهما اللادي آن بلنت وقد يممت نجداً سنة ١٨٧٩ تحدوها الى ذلك رغائب متنوعة منها الشغف الشديد بالخيول العراب. كذلك جاب شمالي الجزيرة سنة ١٨٧٥ بريطاني

كان يعرف فيها بالنصراني والانكليزي اسمه تشارلز دوتي وقد دوّن اخبار رحلته في سفر جليل اسمه « أسفار في الجزيرة الصحراوية » يعدّه الانكليز احد المؤلفات الكلاسيكية في آداب لغتهم . اما كتاب لورنس المسمى « أعمدة الحكمة السبعة » فقد نال مكانة كبرى بين مؤلفات الادب الحديث التي عرفت بعد الحرب العالمية الاولى . وجدير بنا ان نذكر بين الروّاد المتأخرين العالم التشوكوسلوفاكي ألويز موزيل الذي عني بدراسة المناطق الشمالية ، والكاتب السوري الاميركي امين الريحاني الذي قابل كل ملوك العرب ، والدن رتر الذي زار مكة والمدينة بين سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦ . ولا بد من اشارة خاصة الى مغامرة برترام توماس الشاب الانكليزي الجريء الذي استطاع في شهر شباط من سنة ١٩٣١ ان يخترق الربع الخالي فكان اول من كشف عن اسرار منطقة تعد من المناطق الكبرى المجهولة وقد ضارعه في مغامرته هذه سنت جون فلبي المعروف بالحاج عبدالله حين بارح الهفوف بجوار خليج العجم في ٧ كانون الثاني من سنة ١٩٣٢ فقطع الربع الخالي من الشرق الى الغرب في تسعين يوماً .

اما النقوش الحميرية التي مهّدت لنا اول سبيل للاطلاع على ما أراد عرب الجنوب ان يذكروه عن انفسهم فقد اكتشف اكثرها يهودي فرنسي اسمه جوزيف هاليفي بين سنتي ١٨٦٩ و١٨٧٠ وأثري نمساوي يدعى ادورد غلازر بين سنتي ١٨٨٢ و١٨٩٤ .

وبعد اخبار العلماء العصريين من ارباب الاكتشاف والارتياد فان أهم ما يعتمد عليه من المصادر لدراسة تاريخ الجزيرة القديم هو التآليف العربية التي وضعت بعد الاسلام واكثرها على غزارة مادتها متأخرة لا يوثق بها تمام الثقة ، ثم الاخبار المبثوثة في الادب الاغريقي واللاتيني والاشارات اليسيرة التى وردت في سياق المحفوظ من مدونات الفراعنة وملوك اشور وبابل في الرموز الهيروغليفية والخطوط الاسفينية وكذلك الخطوط الحميرية التي حلت رموزها منذ عهد قريب .

علاقات العرب الاتنولوجية – الساميون

ان العرب من بين الشعبين الباقيين اللذين يمثلان الجنس السامي قد احتفظوا اكثر من اليهود بالمميزات الطبيعية والخاصيات العقلية لهذا الجنس . واما لغتهم فعلى الرغم من انها احدث اللغات السامية آداباً فانها قد احتفظت بخصائص اللسان السامي الأصلي ـ بما في ذلك التصريف ـ اكثر مما احتفظت العبرية واخواتها من اللغات السامية الأخرى . ومن هنا كانت اللغة العربية احسن مدخل لدراسة اللغات السامية . وكذلك بلغت الديانة السامية في الاسلام كمالها الطبيعي . ولقد اصبحت لفظة سامي في اوربا واميركا ذات مدلول يهودي قبل كل شيء ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود في هاتين القارتين ، اما الملامح الخاصة التي سماها الافرنج ساميّة ومنها بروز الأنف فليست سامية بل هي من مميزات اليهود اذا قورنوا بفروع العرق السامي الاخرى ولعلهم قد اكتسبوها قديماً من الحثيين والحوريين حين اختلطوا بهم (١) .

والسبب في ان عرب الجزيرة والبدو منهم بنوع خاص هم خير من يمثل السلالة السامية من النواحي البيولوجية والنفسية والاجتماعية واللغوية راجع الى انعزالهم الجغرافي واتساق الحياة المطرد في الصحراء. فكأن النقاوة السلالية هي المكافئة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكران كتلك التي في اواسط جزيرة العرب . ولقد اصاب العرب في تسمية بلادهم جزيرة العرب فهي جزيرة حقاً تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث والرمال من جهتها الرابعة وتعتبر هذه الجزيرة مثلاً للعلاقات التي لا تنقطع بين السكان والتربة . واذا كانت قد حصلت هجرات سابقة الى هذه الجزيرة نتيجة لموجات المستعمرين المتعاقبة التي يدفع بعضها الآخر او يغمره كما حدث في الهند واليونان وايطاليا والولايات المتحدة فان التاريخ لم يخلّف لنا أثراً عن هذا

(١) J. H. Breasted, *Ancient Times* (New York, 1916) PP. 218 — 19. وقربان ، ترجمة الكتاب المذكور (بيروت، ١٩٣٠) ص١٧٥ و١٧٨ و: Ephraim A. Speiser, *Mesopotamian Origins*: *The Basic Population of the Near East* (Philadelphia, 1930), pp. 134, 147, 153-5.

في بلاد العرب . كما اننا لسنا نعرف فاتحاً او غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية لهذه الجزيرة وفي تثبيت قدميه في تلك البلاد . أجل لقد ظل سكان الجزيرة كما هم طيلة أزمان التاريخ (١) .

ان لفظة « سامي » مأخوذة من سام الوارد ذكره في التوراة (تك ١٠ : ١) ولقد دخلت الى اللغات الاوربية عن طريق الترجمة اللاتينيـة المتداولة للتوراة . ان التفسير التقليدي المـألوف الذي يذهب الى ان الساميين قد تحـدّروا من كبير ابناء نوح لا تؤيده الابحاث العلمية الحديثة ، فمن هم الساميون اذن ؟

اذا رجعنا الى خريطة لغوية لآسية الغربية وجدنا ان الشام وفلسطين والجزيرة والعراق مأهولة الآن بشعوب تتكلم العربية ، ثم اذا استعرضنا بعد ذلك تاريخنا القديم وجدنا انه ابتداء من منتصف الالف الرابع قبل الميلاد اخذ البابليون (الذين عرفوا اولا بالاكديين نسبة الى اكّدو عاصمتهم او اكاد) وبعدهم الاشوريون والكلدانيون في احتلال وادي الرافدين ثم بعد سنة ٢٥٠٠ ق . م سكن الأموريون والكنعانيون (ومنهم الفينيقيون) بلاد الشام وحوالي سنة ١٥٠٠ ق . م استقر الاراميون في الشام والعبرانيون في فلسطين ولقد ظـلّ الناس في العصور الوسطى والعصر الحديث الى القرن التاسع عشر لا يدركون ان هذه الشعوب تربطها اواصر قربى شديدة حتى اذا حلت رموز الخط الاسفيني في منتصف القرن التاسع عشر ودرست اللغات الاشورية البابلية والعبرانية والارامية والعربية والحبشية دراسة مقارنة تبين ان بين هذه اللغات اوجه شبه ظاهرة وان الصلة بينها جوهرية حقيقية . ونجـد الآن ان جذر الافعـال في كل من هذه اللغات ثلاثي وان للزمن صيغتين صيغة الماضي وصيغة المضارع وان تصاريف الافعال متشابهة ونجد ايضاً ان اصول المفردات

(١) قابل Bertram Thomas in *The Near East and India* (London, Nov. 1, 1928) pp. 516 — 19; C. Rathjens in *Journal Asiatique*, ccxv. No. 1 (1929) , pp. 141 — 55. فتوماس يذكر ثلاث قبائل قد تكون من اصل حام، في قلب الجزيرة الجنوبية وراتجانس يرتأي ان نواحي الجزيرة الجنوبية ربما كان يسكنها في الالف الثالث والثاني ق. م شعب حامي ثم قدم الساميون في الالف الاول ق . م فسيطروا عليه وأسسوا الدولة المعينية وما جاء بعدها .

ومنها الضمائر والاسماء الدالة على القرابة الدموية والاعداد وبعض الاسماء لاعضاء الجسم تتشابه تشابهاً يكاد أن يكون تاماً . واذا نظرنا الى الانظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الشعوب التي تتكلم هذه اللغات وقارنا بين خصائصهم الجسدية بان لنا ايضاً ان اوجه الشبه بينهم رائعة جلية فليست القرابة اللغوية اذاً سوى مظهر من مظاهر الوحدة الجنسية الراهنة التي تتجلى بتمكن الغريزة الدينية واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة . ولا يسعنا والحالة هذه الا ان نستنتج أن اسلاف هذه الشعوب المختلفة من بابليين واشوريين وكلدانيين واموريين وارامیين وفينيقيين وعبرانيين وعرب واحباش كانوا في زمن ما قبل تباينهم يعيشون شعباً واحداً في مكان واحد .

الجزيرة مهد الجنس السامي

اين كان الموطن الاصلي لهذ الشعب ؟ لقد اختلف العلماء في الجواب عن هذا السؤال وتباينت نظرياتهم فمنهم من ظن موطن الساميين في افريقية الشرقية بالنظر للعلاقات الاثنولوجية بين الساميين ولكن التسليم بهذه النظرية يخلق مشاكل يصعب حلها . وآخرون تأثروا برواية العهد القديم فزعموا ان العراق هو الموطن الاصلي وهو زعم فاسد لأنه يفترض انتقال شعب من طور الحياة الزراعية على ضفاف نهر الى حياة البداوة وذلك عكس ما تقضي به النظم الاجتماعية . ولهذا فمعظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي ويدعمونها بالحجج التالية :

ان معظم سطح الجزيرة صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الارض التي تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها فاذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الارض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدى حيوي يعيشون فيه ولم يكن باستطاعتهم التوسع في وسط البلاد وهو صحراء ولا اجتياز البحر حين لم يكن في تلك الازمان من وسائل لذلك فلم يبق الا ان يسلكوا طريق الساحل الغربي

من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء الى وادي النيل الخصيب. وقد سلك هذا الطريق او طريق افريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين واختلطوا بهم فكان من نتيجة هذا الاختلاط ان ظهر المصريون القدماء الذين وضعوا كثيراً من العناصر الاساسية في مدنيتنا فكانوا اول من شادوا الابنية الحجرية وانشأوا التقويم الشمسي. وفي تلك الغضون اي في اواسط الالف الرابع قبل الميلاد اندفعت الى الشمال موجة اخرى من المهاجرين سلكت طريقاً شرقياً موازياً للآخر واستقرت في وادي الرافدين الذي كان يسكنه في ذلك الزمن شعب عريق المدنية هم السومريون. (١) وقد حل الساميون هذا الوادي وهم في حالة البداوة والجهل فما عتموا أن تعلموا من السومريين مؤسسي حضارة الفراتين فنّ بناء المنازل والسكنى بها ووسائل الري وفوق ذلك فقد تعلموا منهم كيف يكتبون. ولم يكن السومريون من الشعوب السامية ولكن اختلاطهم بهؤلاء العرب الذين نزلوا عليهم في وادي الرافدين انتج الشعب البابلي الذي شاطر المصريين الفخر في وضع الأسس لميراثنا الثقافي. ومن جملة ما استحدثه لنا البابليون هندسة القناطر والاقبية (والارجح انها سومرية الاصل) والعربة ذات العجلات ونظام للمقاييس والموازين.

وحوالي منتصف الالف الثالث ق.م حدثت هجرة سامية اخرى حملت الاموريين الى الهلال الخصيب وكان بين العناصر التي تألفت منها هذه الموجة الجديدة الكنعانيون وقد حلوا غربي الشام وفلسطين بعد ٢٥٠٠ ق.م والساحليون الذين سماهم الاغارقة الفينيقيين.

---

(١) قابل ما جاء في التوراة من ذكر ارض شنعار (تك ١٠ : ١٠ ، ١١ : ٢ ؛ اش ١١ : ١١ الخ) وهي بابل الشمالية لا الجنوبية. واذا صح ان شنعار كانت في بابل فلا يجوز القول انها سومر. وقد ذهب وولي الى ان الساميين سبقوا السومريين في النزول بسواد العراق – انظر : C. Leonard Woolley, *The Sumerians* (Oxford, 1929) PP. 5–6

وكان هؤلاء الفينيقيون اول من نشر في العالم نظاماً خاصاً للكتابة بالحروف الهجائية المجرّدة وعددها اثنان وعشرون وكانت هذه الحروف اساساً لكل الحروف الهجائية التي يكتب بها اليوم ابناء اوربا او آسية او اميركا او افريقية بحيث صح قول القائل ان هذا اعظم اختراع اخترعه البشر على الاطلاق (١) .

وبين سنتي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق . م تسرب العبرانيون الى جنوب الشام اي فلسطين وتسرب الاراميون (السريان) الى الشمال الى سهل البقاع (جوف سوريا) الواقع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي . وكان العبرانيون قبل اي شعب آخر اول من كشف للعالم فكرة جليّة عن الله الأحد وقد صار التوحيد الذي دعوا اليه اصلاً للتوحيد في العقيدتين المسيحية والاسلامية .

وحوالي سنة ٥٠٠ ق. م نزل الانباط الارض الواقعة الى الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء ونستطيع ان ندرك مدى الرقي الذي بلغته حضارتهم فيما بعد وذلك بتأثير الرومان ، بما يبدو في آثار البتراء عاصمتهم المنحوتة في الصخر من عظمة ومجد .

وجاء القرن السابع للميلاد فاذا نحن امام موجة جديدة هي آخر الهجرات وقد جرت تحت راية الاسلام وهنا تخطمت السدود امامها فلم يقتصر فيضانها على ارض الهلال الخصيب هذا القوس الممتد من رأس الخليج الفارسي الى زاوية البحر المتوسط الشرقية الجنوبية بل تعدّاه وغمر مصر وافريقية الشمالية واسبانية وفارس وبعض انحاء من آسية الوسطى . (٢)

وقد اتخذت هذه الهجرة التي تمت في وضح التاريخ حجة يعتمد عليها القائلون بان جزيرة العرب هي موطن الساميين الاصلي وهم يعززون قضيتهم في ملاحظتهم ان العرب قد احتفظوا بمميزاتهم السامية خالصة واظهروها بوضوح اكثر من بقية

---

(١) راجع ما سنورده في الفصل السادس عن الأصل السيناني للحروف الهجائية .

(٢) من اوائل العلماء الذين شرحوا نظرية التنقلات السامية التي تعاقب خروجها من الجزيرة هوغو فنكلر . انظر : Hugo Winckler, *The History of Babylonia and Assyria*, tr. James A. Craig (New York, 1907) PP. 18-22.

اعضاء تلك المجموعة الجنسية وان اللغة العربية هي اقرب ما يكون الى ما يرتأيه علماء اللغات بشأن مزايا اللغة السامية الام وشكلها البدائي .

وبمقارنة تاريخ الهجرات المذكورة آنفاً ودرسها بدت لبعض علماء السامية الفكرة في ان الجزيرة العربية كانت في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها الف سنة تقريباً تزدحم بالسكان كخزان هائل ضاق فلم يجد محيصاً عن افاضة ما يزيد عن سعته . وقد ألف هؤلاء العلماء ان يسموا هذه الهجرات المتعاقبة حين يتحدثون عنها « موجات » والاولى ان يقال ان هذه التنقلات كانت في ادوارها الاولى ما يشبه في طبيعته الهجرات الاوربية الى العالم الجديد اذ يأخذ بعض الافراد في الارتحال ثم يلحق بهم آخرون ثم يزداد عدد الذاهبين حتى يتكون شعور عام بفكرة الارتحال ويزداد الاقبال على الهجرة .

وان انتقال الجماعات البشرية جملة او زرافات من الصحراء وحياة المراعي فيها الى الاراضي الزراعية لهو ظاهرة عامة في الشرق الادنى نستطيع بواسطتها ان نفهم تاريخه الطويل المليء بغرائب الاحداث . وان الطريقة التي يحاول بها شعب يميل الى الهجرة ان يفرض نفسه على شعب تأصلت جذوره في ارض لتسفر في الغالب عن ان الغزاة يقتبسون الى حد ما من الامة المغلوبة اهم مميزات الحضارة فيها ويكسبون هذه الامة شيئاً من الدم الجديد فيها ولكنهم قلما يستطيعون ان يقضوا عليها او يستأصلوا جذورها . وهذا بعينه ما جرى في الشرق الادنى القديم الذي يعتبر تاريخه الى حد ما نزاعاً متواصلاً بين الحضر من سكان الهلال الخصيب وبين البداة الغزاة الذين كانوا يحاولون ان يغتصبوا الارض منهم ولقد أصاب من قال ليست الهجرة والاستعمار الا نوعاً مخففاً من الغزو والفتح .

ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات انه في كل حالة تقريباً كانت اللغة السامية اقوى على البقاء وقد كان هذا عاملاً بعيد الأثر . فلو قيض مثلاً للغة السومرية ذات المفردات المتلاصقة ان تقوى على البقاء في العراق لأصبح من العسير

علينا اعتبار سكان وادي الرافدين من الساميين ، اما المصريون القدماء فقد نشأت عندهم لغة ساميّة حاميّة ومن هنا لا نستطيع اعتبارهم ساميّين . وعليه فللفظة « ساميّ » دلالة لغوية اكثر منها اثنولوجية ويجب ان ينظر الى اللغات الاشورية البابلية والارامية والعبرانية والفينيقية والعربية الجنوبية والحبشية والعربية على انها لهجات تفرعت من لغة واحدة هي اللغة الأم . وقد نرى نظيراً لذلك في اللغات الرومانية وعلاقاتها باللاتينية الا ان شيئاً من اللغة اللاتينية قد بقي الى اليوم على الاقل فيما تخلف من ادبها في حين ان اللغة السامية الأم لم تكن الا لغة محكية وقد زالت من الوجود اليوم مع ان صفتها العامة قد يستدل عليها من الامور المشتركة في اللغات الباقية المتفرعة عنها .

واذا سلمنا ان نجد الجزيرة او يمنها هي الوطن الاصلي للشعوب السامية والمركز الذي توزعت منه فان هذا لا يحول دون امكان أنهم كانوا مرة في العصور السابقة ، مع فرع آخر من الجنس الابيض هو الفرع الحامي (١) ، شعباً واحداً في ناحية من نواحي افريقية الشرقية وانه من هذا الشعب تفرع ما دعوناهم بعدئذ بالساميين وعبروا الى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب فيما يظن (٢) وهذا يجعل افريقية الوطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه ، اما الهلال الخصيب فهو مربع الحضارة السامية .

(١) اما الشائع عند البعض في ان بني حام هم من الزنوج فليس صواباً .

(٢) George A. Barton, *Semitic and Hamitic Origins* (Philadelphia, 1934) p. 27.

الفصل الثاني

جزيرة العرب

صفة الجزيرة

بلاد العرب شبه جزيرة في الجنوب الغربي من آسية وليس في خريطة الارض شبه جزيرة تضاهيها حجماً فهي اكبر من شبه جزيرة الهند ومساحتها ثمانية اضعاف الجزر البريطانية واربعة أضعاف فرنسا . وعلى الرغم من ذلك الاتساع العظيم فان عدد سكانها لايتجاوز سبعة ملايين (اي ما يعادل عدد سكان مدينة نيويرك) منهم نحو مليون في الحجاز ونحو مليونين ونصف في اليمن ومليونين في نجد وملحقاتها اي الحسا (البحرين قديماً) والجوف وشمالي عسير (١) ومليون في عسير . ويرى علماء الجيولوجيا ان الجزيرة عبارة عن تكملة طبيعية لصحارى افريقية (التي يفصلها عنها الآن منبطح وادي النيل ومنخفض البحر الاحمر العميق) والمنطقة الرملية التي تطوق آسية قاطعة اواسط ايران وصحراء غوبي . وكانت الرياح الغربية التي تروى غيومها الآن مرتفعات سورية وفلسطين تصل في الازمنة الغابرة الى الجزيرة قبل ان تفقد هذه الغيوم رطوبتها . وفي اثناء شطر من العصر الجليدي كانت هذه الصحارى مروجاً خضراء آهلة بالسكان . ولما كانت الطبقة الجليدية التي غطت المعمورة انئذ لم تتعد جبال آسية الصغرى الشاهقة جنوباً فان الجزيرة لم تتضرر ولم تصبح يوماً غير مأهولة . ولا تزال قيعان اوديتها الجافة العميقة اليوم شاهدة على فعل مياه الامطار فيها حين كانت تسيل فيها السيول الزاخرة . اما حدود الجزيرة الشمالية فغير واضحة المعالم ويمكن

(١) اما اليمامة التي ذكرها جغرافيو العرب الاولون فهي جزء من ارض نجد الجنوبية ولا تزال فيها مساكن بني تميم وفي نجد الشمالية أرض شمر موطن بني طي .

اعتبارها خطاً وهمياً يتجه شرقاً من رأس خليج العقبة حتى الفرات . اما من الناحية الجيولوجية فان صحارى الشام والعراق بكاملها تعد جزءاً من الجزيرة العربية .

وينحدر سطح الجزيرة من الغرب الى خليج العجم ومنخفضات ارض الرافدين . وعلى هذه المهامه والبطاح تطل سلسلة جبال محاذية للساحل الغربي هي بمثابة العمود الفقري للجزيرة جمعاء ، ويبلغ ارتفاع اعاليها اكثر من تسعة الاف قدم في مدين شمالاً واكثر من اثني عشر الف قدم (١) في اليمن جنوباً ويبلغ جبل السراة (٢) في الحجاز نحو عشرة الاف . وانحدار الارض من هذه القمم الشامخة الى الشرق تدريجي يمتد الى مدى بعيد . أما الانحدار الغربي نحو البحر الأحمر ففجائي قصير المدى . وحيث ان اقصى معدل ارتفاع الارض فيها هو في الجزء الجنوبي الغربي منها اصبح الانحدار بطبيعته يتجه من الغرب الجنوبي الى الشرق الشمالي ويجاريه اتجاه مسيل المياه . ولقد احاط باطراف الجزيرة الجنوبية حيث يتراجع البحر عند الساحل بمعدل اثنين وسبعين قدماً في العام اغوار واسعة تعرف بتهامة . ويبلغ متوسط ارتفاع نجد وهي الهضبة الوسطى الشمالية نحو ٢٥٠٠ قدم وفي سلسلة جبالها المعروفة بشمّر قمة من حجر الغرانيت الاحمر اسمها أجا يبلغ علوها ٥٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر . وتمتد وراء السهول الساحلية من جهاتها الثلاث سلاسل جبال متفاوتة الارتفاع ففي عمان على الساحل الشرقي ترتفع قمم الجبل الاخضر الى علو ٩٩٠٠ قدم وهو الموضع الوحيد الذي يشذ عن القاعدة التي الفناها من حيث اتجاه الانحدار نحو الشرق .

واذا استثنينا الجبال والهضاب التي مر ذكرها فان البلاد في الغالب صحارى ودارات والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ومنها

---

١) قابل Carl Rathjens and Herman v. Wissman, *Südarabiens-Reise*, vol. iii, *Landeskundliche Ergebnisse* (Hamburg, 1934) P. 2. حيث جاء بان جبل حضور النبي شعيب الى الغرب من صنعاء بلغ علوه بالمقياس ٣٧٦٠ متراً (١٢٣٣٦ قدماً) . ولا نعلم قمة اعلى من هذه قيست بالفعل في جزيرة العرب ، الا انه لا يبعد ان يكون في عسير الى الشمال ما هو اعلى منها .

٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب (برل ، ١٨٨٤-٩١) ص ٦٧

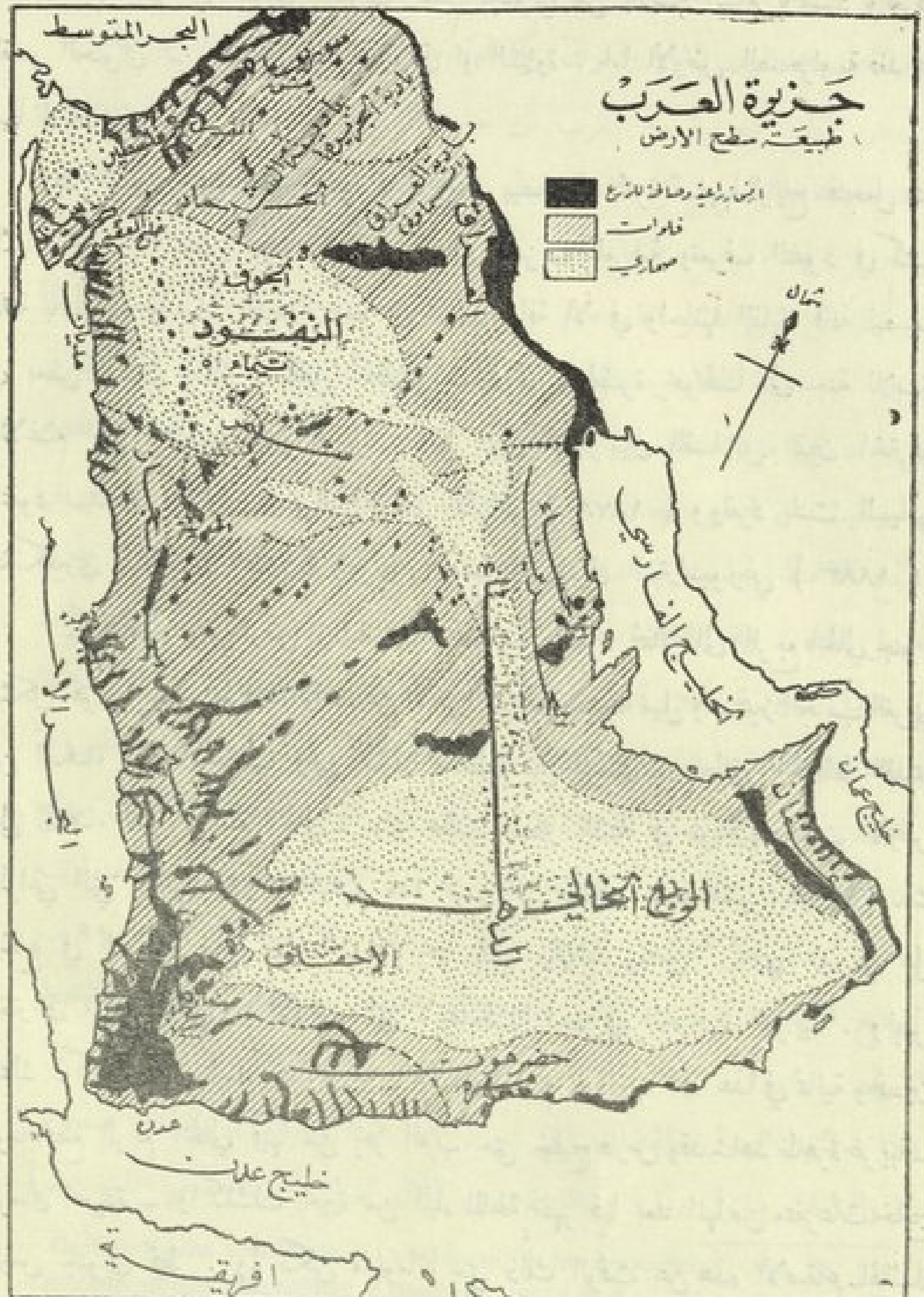
بادية الشام وبراري العراق ويعرف القسم الجنوبي من باديـة الشام بالحمـاد ويعرف القسم الجنوبي من العراق ببادية العراق او السماوة . اما الارض الصحراوية فقد تميز فيها ثلاثة انواع :

اولا النفود وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء او محمرة تسفيها الرياح فتجعل منها كثباناً او تلالا تغطي جزءاً كبيراً من شمالي الجزيرة العربية وتعرف النفود في كتب اللغة بالباديـة واحياناً بالدهناء ومع ان النفود جافة الا في واحاتها القليلة فانه ليصيبها في بعض السنين امطار تكفي لتغطيتها ببساط من الخضرة يحوّلهـا الى جنة للابـل والاغنام التي يرعاهـا البدو الرحل . ومن بـين الاوربيين القـلائل الذين اخترقوا النفود نـذكر شارل هـوبر الفرنسي الالزاسي (١٨٧٨) وولفرد بلنت السياسي الانكليزي الشاعر (١٨٧٩) ويوليوس يوتنغ المستشرق الستراسبورغي (١٨٨٣) .

ثانياً الدهناء وهي ارض رملية حمراء تمتد من النفود شمالا الى الربع الخالي جنوباً بشكل قوس يبتعد طرفاها الواحد عن الآخر اكثر من ستمئة ميل وقد تميز الجانب الغربي من الدهناء باسم الاحقاف وهي كثبان مستطيلة من الرمال . وتطلق الخرائط القديمة على الدهناء اسم الربـع الخالي . واذا هطلت امطار الشتاء في نواحيها غنيت الارض بالمراعي التي ينتابها البدو وماشيتهم مدة الموسم التي تطول بضعة اشهر غير ان تلك البقاع في الصيف خالية خاوية . ولم يجرأ قبل برترام توماس [١] اي اوربي على اختراق الربع الخالي ـ الارض التي لا يملكهـا احد في الجزيرة العربية . وليس هناك ذكر الى ان احداً قد عبرها بالطائرة وقد اتم توماس عمله هذا في ثمانية وخمسين يوماً قطع الربع الخالي فيها من بحر العرب حتى خليج فارس وقد شاهد ظاهرة غريبة ـ الرمال المغردة ـ واكتشف بحيرة من المياه المالحة ظهر فيما بعد انها من متفرعات خليج فارس جنوبي قطر . ولم تكن معلوماتنا حتى ذلك الوقت عن هذه الاصقاع الهائـلة

١) راجع Bertram Thomas, *Arabia Felix: Across the Empty Quarter of Arabia* (New York , 1932) .

« ٢ »


جزيرة العرب
طبيعة سطح الارض
الاراضي الزراعية وصالحة للزرع
فلوات
صحاري
شمال
البحر المتوسط
الجوف
النفود
تيماء
الربع الخالي
الاحقاف
حضرموت
خليج عدن
خليج عمان
افريقية
عدن

المخيفة في جنوبي الجزيرة تزيد عما عرفه جغرافيو القرن العاشر للميلاد .

ثالثاً الحرة وهي ارض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم البراكين القديمة الخفانية النخرة . وتكثر في بقاع الجزيرة الغربية والوسطى امثال هذه المناطق البركانية وتمتد شمالا حتى حوران الشرقية وقد ذكر ياقوت [١] ما لا يقل عن ثلاثين حرة اشهرها حرة المدينة حيث انتصر الامويون في سنة ٦٣ ﻫ (٦٨٣ م) على الثائرين من اهل المدينة المنورة . وآخر انفجار بركاني اشار اليه مؤرخو العرب وقع سنة ٦٥٤ ﻫ (١٢٥٦ م) .

وتقع ضمن هذه الحلقة من الصحارى والدارات هضبة نجد ارض الوهابيين وقد انكشفت في سطحها منذ زمن قديم طبقة الحجارة الكلسية تتخللها بعض البقع الرملية . ويتكون جبل شمر من حجر الغرانيت والرخام الاسود .

الاقليم

الجزيرة العربية من اشد البلاد جفافاً وحراً ، وعلى الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب فان مساحة هذين البحرين أضيق من أن تكفي لكسر حدة الجفاف المستمر المعروف في هذه الاقاليم الافريقية الاسيوية العديمة المطر . ولئن كان المحيط الهندي في الجنوب يساعد على وقوع بعض المطر في اطراف الجزيرة فان الرياح الموسمية المعروفة بالسموم التي تنتاب الجزيرة في مواسم معروفة تسلب الرطوبة من الهواء قبل ان يبلغ داخلية البلاد . أما الريح الشرقية المنعشة المعروفة بريح الصبا فقد كانت موضوعاً محبباً يتغنى به شعراء العرب . ويرى العربي في المطر رحمة من الله ومن مرادفات اسمه الغيث وفيها ما فيها من معاني العون والنصرة .

وفي الحجاز مهد الاسلام تنتاب البلاد مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر ومع ذلك فمعدل سقوط المطر فيها يزيد عنه في مصر الوسطى . وقد يقع وابل عنيف من المطر على المدينة او على مكة فيكاد يهدد احياناً كعبتها بالهدم وقد

---

١) راجع فهرس معجم البلدان طبعة وستنفلد (ليبزغ ، ١٨٦٦ — ٧٣)

خصص البلاذري [1] فصلاً كاملاً لاخبار سيول مكة . وحدث سنة ١٩١٠ ان اعترضت خديوي مصر وهو يقوم بفريضة الحج سيول بين البحر والمدينة اضطرته ان يرجىء سفره ثلاثة ايام . ويعقب نزول هـذه الامطار ظهور المراعي المألوفة في الصحراء . وليس في شمالي الحجاز ارض تسكن سوى الواحـات المنعزلة ولا تزيد مساحة اكبرها عن عشرة اميال مربعة وقـد اختفت معالم بعض الواحات القديمة كواحة فدك التي كانت معروفة في صدر الاسلام وكان اليهود في ايام الرسول يزرعون معظم هذه المناطق المخصبة . وخمسة اسداس السكان في الحجاز اليوم هم من البدو ومعدل درجة الحرارة السنوي فيها يقارب التسعين (فارنهيت) اي ما يعادل الثلاثين بمقياس سنتيغراد ، اما متوسط درجة الحرارة في المدينة فلا يزيد كثيراً عن السبعين ومن هنا كانت المدينة اطيب مناخاً من اختها الجنوبية مكة .

وقد يقع بعض المطر في اقاليم الجزيرة الوسطى من الغيوم المتبخرة عن سطح خليج فارس . واما الهواء الرطب المنبعث من البحر الاحمر فان معظمه يجف قبل بلوغه منحدرات الجزيرة الشرقية الواسعة . ويعود الفضل في خصب التربـة بنجد ذات الواحـات الكثيرة المتصلة الى مياه وادي الرمـة في جوف الارض وعلى سطحها والى نزوح الماء من اعالي جبـل شمر حيث يزيد سقوط المطر عما هو في ارض الدلتا بمصر . وتقع الرياض عاصمة نجد الحالية في بقعة طيبة المنـاخ . ولا تسقط الامطار الموسمية الا في اليمن وعسير وهي هنـاك تـكفي لتأمين زراعـة الارض زراعة منتظمة ففيها تجد خضرة دائمة تنبت في اودية خصبة تمتد الى نحو مئتي ميل من الساحل . ويزيد ارتفاع صنعاء عاصمة اليمن اليوم على سبعة آلاف قـدم عن سطح البحر . وهي لذلك من اصح المدن وأجملها في الجزيرة . وهناك على الشاطىء بقاع اخرى خصبة ولـكنها ليست متصلة . وتتميز بحضرموت الاودية العميقة التي قيل عنها انه « يسبح قعرها في الماء » . ويصل الى عُمان ، وهي ابعد اقاليم الجزيرة

١) البلاذري فتوح البلدان طبعة دي غويه (ليدن ، ١٨٦٦) ص ٥٣ ــ ٥٥ وترجمته للانكليزية :
Philip K. Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York, 1916), pp. 82 - 4.

شرقاً قدر لا بأس به من المطر . اما جدة فهي من اشد المدن حرارة ورطوبة ومثلها الحديدة ومسقط .

ولا تستطيع الجزيرة ان تفخر بوجود نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر . وليس في انهارها الصغيرة ما يصلح الملاحة . وقد عوّضت عن الانهار بشبكة من الاودية تجري فيها السيول حين تفيض مياه الامطار . وتقوم هذه الاودية بغرض آخر ذلك انها تحدد طرق القوافل والحج . وقد اصبح الحج منذ ظهور الاسلام حلقة الاتصال الرئيسية بين بلاد العرب والعالم الخارجي . واهم الطرق البرية اثنان احدهما يسير من العراق ماراً ببريدة في نجد متتبعاً وادي الرمة والآخر من الشام ماراً بوادي سرحان متاخماً لساحل البحر الاحمر . اما الخطوط التي تصل ما بين انحاء الجزيرة المترامية فهي اما ساحلية تحف بكل اطراف شبه الجزيرة تقريباً او داخلية مخترقة الجزيرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي معرجة على الواحات الوسطى متجنبة المنطقة المتوسطة المعروفة بالربع الخالي .

ولقد روى الاصطخري [١] احد جغرافيي القرن العاشر الميلادي أن ليس في الحجاز مكان ابرد من جبل غزوان بجوار الطائف وانه ربما جمد الماء في ذروته . وليس في الحجاز مكان يجمد فيه الماء سوى هذا الموضع . وأشار الهمداني [٢] الى جمود الماء في صنعاء . ويضيف غلازر [٣] الى هذين الموضعين جبل حضور الشيخ في اليمن الذي تسقط عليه الثلوج في شتاء كل عام تقريباً . واما الصقيع فهو اكثر من ذلك شيوعاً .

نبات الجزيرة

ان جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وازدهارها . ويكثر

---

١) مسالك الممالك ، طبعة دي غويه (ليدن ، ١٨٧٠) ص ١٩

٢) الاكليل ، الكتاب الثامن نشر نبيه امين فارس (برنستون ، ١٩٤٠) ص ٧
وراجع ايضاً ، نزيه العظم — رحلة في بلاد العرب السعيدة . (القاهرة ، ١٩٣٧) ص ١١٨

٣) راجع A . Petermann , *Mitteilungen aus justus Perthes geographischer Anstalt* , vol . 32 (Gotha,1886) , p. 43.

النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن وبعض الواحات ويزرع الشعير لتأكله الخيول وتنمو الذرة في مناطق خاصة كما ينمو الارز في عمان والحسا . ولا يزال شجر اللبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي لا سيما في مهرة وقد كان لشجر اللبان هذا اهمية ممتازة في الحياة التجارية الاولى في البلاد العربية الجنوبية . ومن اخص حاصلات عسير الصمغ العربي . واما شجرة البن التي تشتهر بها اليمن اليوم فقد ادخلت الى بلاد العرب الجنوبية من الحبشة في القرن الرابع عشر . ولعل اقدم اشارة الى القهوة ـ خمر الاسلام ـ قد وردت في مؤلفات القرن السادس عشر [١] ولم يذكرها كاتب اوربي قبل سنة ١٥٩٢ .

وتوجد في البادية عدة انواع من شجر السنط (الاكاسيا وتسميها العامة فتنة) منها الاثل (tamarisk) والغضا الذي ينتج الفحم الممتاز والطلح الذي يستخرج منه الصمغ العربي . وتنتج البادية ايضاً السمح وتطحن حبوبه دقيقاً يستعمل في صنع العصيدة كما توجد الكمأة والسنا وللعربي رغبة خاصة في الحصول عليهما .

ومن أشجار البلاد الكرمة التي ادخلت زراعتها من الشام بعد القرن الرابع للميلاد وهي كثيرة في الطائف ويستخرج منها الشراب المعروف بنبيذ الزبيب . واما الخمرة التي تغنى بذكرها شعراء العرب فهي نوع كان يستورد من حوران ولبنان ولم يكن شجر الزيتون ـ وموطنه الشام ـ معروفاً في الحجاز . ومن حاصلات الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش واللوز والبرتقال والليمون الحامض وقصب السكر والبطيخ والموز . ويرجح ان الانباط واليهود هم الذين ادخلوا هذه الفواكه الى الجزيرة من الشمال . ويقال ان البطيخ كان من احب الفاكهة الى الرسول ويروى حديث نبوي مفاده ان البطيخ منقول من الجنة . واخرج الخطيب فيما

---

١) راجع الجزيري « عمدة الصفوة في حل القهوة » في كتاب de Sacy, *Chrestomathie arabe*, 2 nd. ed. (Paris, 1826) vol. i , pp. 138 *seq* . وما يليها . والترجمة ص ٤١٢ وما يليها وانظر ايضاً كتاب الكواكب السائرة للشيخ نجم الدين الغزي نشر الاستاذ جبرائيل جبور ، (بيروت ، ١٩٤٥) الجزء الاول ص ١١٤ .

رواه مالك ابن انس قال : « ليس في الدنيا شيء يشبه ما في الجنة الا الموز » ثم قال وانت ترى الموز في الصيف والشتاء .[١]

النخل

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات في الجزيرة العربية فهي تنتج اطيب ثمر واعمه ، التمر الذي لا نظير له . وقوام الطعام عند البدوي لونان التمر والحليب . واذا استثنينا لحم الابل فالتمر هو الطعام الصلب الوحيد الذي يتناوله البدوي .[٢] وشراب التمر اذا خمر اصبح النبيذ المرغوب فيه ونواه المسحوقة تصنع اقراصاً لعلف الجمال . ومنية البدوي ان يحصل على الاسودين ـ الماء والتمر ـ وقد اخرج في الحديث ان الرسول قال : « اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم . »[٣] وقد ذكر مؤرخو العرب ان في المدينة وما حولها نحو مئة صنف من البلح .

وملكة الاشجار العربية هي ايضاً غير عربية الأصل فقد نقلت الى الجزيرة من الشمال من ارض بابل حيث كانت شجرة النخل اعظم العوامل التي اجتذبت الانسان القديم للتوطن هناك . ولا تزال في اصطلاحات العربية الدارجة في نجد والحجاز الفاظ زراعية مثل بعل (اي ما يروى بماء المطر فقط)[٤] واكار (حارث) تدل على انها مستعارة من شعوب الشمال الساميين وخصوصاً الاراميين .[٥]

حيواناتها

ويمثل مملكة الحيوان في الجزيرة النمر والفهد والضبع والذئب والثعلب والضب . اما الأسد الذي تكثر الاشارة اليه في الشعر القديم فيبدو انه انقرض الآن . ولا

١) السيوطي ، حسن المحاضرة (القاهرة ، ١٣٢١) ج ٢ ص ٢٥٤ .
٢) راجع ابن قتيبة ، عيون الاخبار (القاهرة، ١٩٣٠) ج ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١٣ .
٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٥ .
٤) راجع ما سيرد فيما بعد في فصل الحجاز في فجر الاسلام تحت عنوان « وثنية البدو »
٥) راجع ما سيرد فيما بعد في فصل الحجاز في فجر الاسلام تحت عنوان « اليهود »

تزال القردة موجودة في اليمن . ومن طيورها الكواسر العقاب والبازي والصقر والبوم . وتكثر الغربان فيها ولكن اكثر الطيور وجوداً الهدهد والقبّرة والعنادليب [١] والحمام ونوع من الحجل اشتهر في الأدب العربي باسم القطا .

ومن الحيوانات الداجنة الجمل والحمار وكلب الحراسة والكلب السلوقي والقطة والغنم والماعز . اما البغل فيقال انه ادخل الى الجزيرة من مصر بعد الهجرة وكان النبي يؤثر ركوبه على ركوب الخيل .

ويكثر الجراد في الصحراء ويعتبره البدوي طعاماً شهياً لا سيما اذا شُوي وملح ، وقد يحدث البلاء من انتشاره ، ويقال ان آفة الجراد تظهر مرة كل سبع سنوات . اما الزواحف فتتميز النفود بنوع منها هو الحيّة العنقاء ذات القرنين . وقد تحدث لورنس [٢] بشكل مفزع عما قاساه من الخوف من الافاعي في وادي سرحان .

الخيول العربية

وبرغم اشتهار الخيل في الأدب الاسلامي فان تاريخ دخولها الى الجزيرة العربية كان متأخراً ، فلئن عرفت نجد بجيادها الكريمة فان الشعوب السامية الأولى لم تعرف الخيل ويرجع الفضل في تدجينها الى الشعوب الآرية فقد كان منهم في الأزمان القديمة رعاة من القبائل الهندية ـ الاوربية يتنقلون في الاراضي الواقعة الى الشرق من بحر قزوين وكانوا اول من دجن الخيل ثم استوردها بعد ذلك الكاشيون والحثيون على نطاق واسع وانتقل هذا الحيوان بواسطتهم الى آسية الغربية قبل الميلاد بنحو الفي عام ثم ادخل قبل العصر المسيحي من سورية الى الجزيرة العربية حيث تهيأت له السبل للاحتفاظ بنقاوة دمه وخلوصه من الهجنة والاختلاط . ونقل الهكسوس (الرعاة) الحصان من سورية الى مصر ونقله الليديون من آسية الصغرى الى اليونان حيث خلد ذكره النحات فيدياس في البارثنون . ويبدو العربي في الآثار المصرية والاشورية ـ البابلية والفارسية القديمة جمّالاً لا خيالاً وكان الجمل

١) راجع المعلوف ـ معجم الحيوان (مصر ، ١٩٣٢) ص ١٧٠ و ١٧١

٢) T. E Lawrence , *Seven pillars of Wisdom* (New York ; 1936) pp. 269-70

لا الحصان هو الذي يذكر عند جمع الجزية التي كان يفرضها الفاتحون الاشوريون على الاربي او العُرْبي [١] (يعني العربي) . وفي جيش احشويروش الذي كان مصمماً على فتح اليونان ظهر العرب يركبون جمالا [٢] وقد انكر المؤرخ سترابو [٣] وجود الحصان في الجزيرة العربية ولعله اعتمد في هذا على ما رواه صديقه ايليوس غالوس القائد الروماني الذي غزا الجزيرة عام ٢٤ ق. م.

ومن الخيول العربية الاصيلة الكحيلان ويتميز بجمال جسمه وقوة احتماله ونباهته واخلاصه لسيده وتعلقه به وهو المثل الذي استمدت منه الآراء الغربية فيما يتعلق بتربية الخيول الممتازة . وفي القرن الثامن ادخل العرب الخيل الى اوروبا عن طريق اسبانية حيث خلفت أثرها الدائم في أنسالها من الخيول المغربية والاندلسية . [٤] وفي اثناء الحرب الصليبية اكتسبت الخيول الانكليزية دماً جديداً لاختلاطها بالخيول العربية .

ويعتبر امر اقتناء الخيل في بلاد العرب من الامور الكمالية فاطعامها والعناية بها مشكلة من مشاكل ابن الصحراء، ولا يستطيع حيازتها الا من كان على سعة من العيش . واهم مزية للخيل عند البدوي هي سرعتها التي تحقق له النجاح في الغزو وتستعمل ايضاً في اللهو والالعاب الرياضية كرمي الجريد والسباق والصيد . وكم من بدوي في مخيمه اليوم اذا قل الماء لديه وتلهف صغاره لجرعة منه تراه لا يصغي الى صراخهم بل يقدم آخر نقطة عنده من الماء لحصانه . ومما لاحظه موزل ان البدوي وذويه قد يبيتون على الطوى في سبيل توفير شيء من الحليب او الحبوب لفرس عندهم ذات فلو . [٥]

---

١) راجع ما سيرد في الفصل الرابع تحت عنوان توغل الاشوريين .

٢) Herodotus, *History*, Bk. VII, ch. 86, § 8 .

٣) *Geography* , Bk . X VI, ch . 4, § § 2 & 26

٤) William E. Brown, *The Horse of the Desert* (New York, 1929), pp 123 *seq.*

٥) Alois Musil , *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York 1928), p. 374 - 5

الجمل

واذا كان الفرس انبل حيوان استطاع الانسان ان يدجنه فان الجمل دون ريب هو بالنسبة للبدوي اعظم الحيوانات نفعاً ، ولولاه لما كانت البادية صالحة للسكنى ، فالجمل هو الذي يغذي البدوي وهو اداة انتقاله وهو نقده الذي يتبادل السلع بواسطته وهو فوق ذلك وحدة القياس لمهر العروس ، ودية القتيل ، وارباح الميسر ، وغنى الشيخ ، فكل ذلك يقدّر بعدد معين من الجمال . والجمل رفيق البدوي وصنو نفسه وحاضنته التي ترضعه فيشرب لبنه بدل الماء (الذي يوفره للماشية) ويجعل طعامه من لحمه وكساه من جلده ويحوك خيمته من وبره ويتخذ روثه وقوداً وبوله علاجاً لتقوية الشعر ودواء يستشفي به . وليس الجمل في نظره « سفينة الصحراء » فحسب بل هو هبة الله « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون »[١] ولشبرنغر كلمة طريفة في هذا الصدد وهي ان البدوي يعيش طفيلياً على الجمل[٢] وكثيراً ما يتباهى البدو في ايامنا هذه بانهم « اهل البعير » وقد ذكر موزل انك تكاد لا تجد احداً في قبيلة الرولة لم يشرب في مناسبة ما الماء من جوف الجمل[٣] واذا دعت الحاجة فأنهم يذبحون جملا مسناً او يدفعون عصاً في حلقه ليتقيأ ما في جوفه من الماء فاذا كان الجمل قد شرب قبل يومين فالماء الذي يستخرج من جوفه يشربه البدوي . ويختلف الجمل العربي عن الدهامج او الجمل البقطرياني بانه ذو سنام واحد في ظهره وان وبره انعم وادق ، والبدو يميزون بين البعير (جمعها اباعر وبعران)

١) سورة النحل ٥ - ٨ .

٢) انظر *Zeitschrift der deutschen Morgenlandischen Gesellschaft*, XIV (1891) p. 361 . l 13

٣) *The Manners etc* p. 368 *Cf.* Bertram Thomas in *The Near East and India*, Nov. 1, 1928 p. 518

وهو يستخدم لحمل الاثقال و بين الذلول او الهجين وهو ضرب كريم من الابل يستخدم للركوب . وقد لعب الجمل دوراً كبيراً في حياة العرب الاقتصادية يدلك على ذلك ما يقال من ان اللغة العربية تضم نحو الف اسم للجمل في مختلف انواعه واشكاله ومراحل نموه وهو عدد لا ينافسه الا عدد المترادفات لكلمة السيف . ويستطيع الجمل العربي ان يصبر عن الماء نحو خمسة وعشرين يوماً في الشتاء وخمسة ايام في الصيف . ولقد كان الجمل من العوامل التي سهلت الفتوح الاسلامية الاولى ، ذلك انه اتاح لأصحابه سرعة في الحركة جعلتهم يتفوقون على اهل الحضر . وينسب الى الخليفة عمر أنه قال : لا يُفلح العربي الاّ حيث يُفلح الجمل . ولا تزال الجزيرة العربية اهم موطن في العالم لتربية الجمال . وقد اصبح لخيول نجد وحمير الحسا وهجن عمان شهرة عالمية.

وقد كانت في السابق مواسم الحج في الحجاز ومغاصات اللؤلؤ في عمان ومنطقة خليج العجم لا سيما البحرين ، ومعادن الملح في بعض البقاع ، وتربية الجمال ، موارد الدخل الرئيسية في البلاد . ولكن منذ ظهرت منابع البترول وشرع في استثمارها سنة ١٩٣٣ اصبح الدخل من الاعمال في شركات الزيت وصناعته اعظم مورد في البلاد فآبار البترول في الحسا تعدّ من اغنى الآبار في العالم.

وقد ادخل الجمل (وهو كالحصان حيوان اميركي الأصل) من شمالي الجزيرة العربية الغربي الى فلسطين وسورية بمناسبة غزو المديانيين لها في القرن الحادي عشر ق.م حسبما ورد في سفر القضاة ٦ : ٥ [١] ولعل هذه اول اشارة الى هذا الحيوان في الآثار المكتوبة . وقد ادخل الجمل الى مصر زمن الفتح الاشوري في القرن السابع قبل الميلاد وادخل الى شمال افريقية زمن الفتح الاسلامي في القرن السابع للميلاد .

---

١) لانهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد .

الفصل الثالث

حياة البدو

القبائل الرحل

ينقسم سكان الجزيرة تبعاً لطبيعتها المزدوجة الى قسمين رئيسيين بدو رحل وحضر مقيمين . وليس الحد الذي يفصل بين فئات العرب الرحل وبين فئاتها الأخرى التي استقر بها المكان واستوطنت المزارع والمدن واضحاً دائماً بل يكاد ان يكون في بعض الاحوال غامضاً مبهماً لان مراتب التطور تدريجية تبدو فيها الجماعات تارة نصف بدوية وأخرى نصف حضرية . فمن سكان المدن من كان في سالف عهده بدوياً ولم يخلع كل مظاهر البداوة ومن البدو من لم يزل في دور الانتقال من البداوة الى الحضارة . بهذه العملية يتجدد دم الحضر اذ يدخل في حظيرتهم ابناء البادية وعلى هذا النمط يتم الامتزاج بين دم البدوي ودم الحضري . وفي اطراف بادية الشام يشاهد الناظر اليوم منازل هي درجة وسطى بين البيوت والخيام .

وليس البدوي غجرياً دأبه الطواف والتجوال على غير هدى بل انه يمثل افضل ما استطاعه الانسان من التكيف بموجب مقتضيات حياة البادية . لذلك فهو ابداً ساع الى المرابع الخضراء انتجاعاً لما فيها من ماء وكلأ . فالبداوة اذن شكل منسق من اشكال الحياة يلائم مقتضيات البيئة في النفوذ مثلاً كما تلائم الحياة الصناعية مقتضيات البيئة في ديترويت او منشستر .

ويبعث على انشاء العلاقات بين اهل المدن واهل البادية عوامل من الحاجات الملحة التي تمليها المصالح الذاتية والرغبة في المحافظة على النفس . فالبدوي يصر على ان من حقه ان يسلب ما يحتاجه من موارد العيش التي يغنى وينعم بها جاره

الحضري المحظوظ . ولقد يستفحل كيد البدوي للحضري فيعمد الى العنف ـ الغارات ـ ولكنه في الغالب يتخذ اساليب سلمية ـ كالمقايضة . فالبدوي تارة فرد من « قرصان » البر واخرى سمسار من سماسرة التجارة ولربما اجتمعت فيه المزيتان . والبادية التي يمثل فيها البدو دور قرصان البر تشاكل البحر في بعض الخصائص الظاهرة . والبدو على هذا عامل من عوامل الخير للحضر حين يختلطون بهم بالزواج فينشأ عن هذا التهجين جيل جديد فيه حيوية جديدة ونشاط .

والبدوي [1] باعتباره جنساً من اجناس البشر لا يزال على حالته الى اليوم كما كان بالامس وكما سيكون في الغد بحيث ان نمط ثقافته لا يتغير ابداً . وليس التطور والتقدم والنشوء من الشرائع التي يدين بها من تلقاء نفسه . فهو يعيش ابداً كما عاش اجداده تحصنه مناعة شديدة ضد غارات الاراء الخارجية والعادات الغريبة . ومساكنه خيام من شعر الماعز ووبر الابل « بيوت الشعر » . وهو يرعى غنمه وابله على الطريقة القديمة نفسها وفي المراعي القديمة نفسها . وعنده ان تربية الاغنام والابل اولا ، وتربية الخيل وتوليدها والصيد وشن الغارات ثانياً ، هي اهم ما يشغله ، وهي العمل الوحيد الذي يجدر بالانسان ان يقوم به . وتراه يزدري الزراعة والصناعة وغيرهما من وجوه الحرف والاتجار ويحسبها مما يحط من قدره . ولكن سرعان ما تزول عنه صفة البداوة هذه اذا ما بارح بيئة الصحراء . ولقد قامت في الهلال الخصيب دول كبرى ثم دالت وذهبت اما في فيافي الصحراء القاحلة فالبدو كانوا ولا يزالون فيها كما هم الى ما شاء الله . [2]

ولقد احتكر السلطة في البادية ثالوث استوت له السيطرة على كل ذي حياة في الصحراء وهذا الثالوث هو البدوي والجمل والنخلة . واذا اضفت اليها شيئاً رابعاً هو الرمال عرفت الممثلين الاربعة العظام الذين يمثلون رواية الحياة في الصحراء

---

١) انظر حافظ وهبه ، جزيرة العرب (مصر ، ١٩٣٥) .

٢) ان امر تحضير البدو واحلالهم الاراضي ليستقروا بها يعتبر من الظواهر الاساسية في الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم بها ابن سعود .

في كيانها الأساسي .

وما البادية في نظر بنيها موطناً فحسب بل هي بمثابة الحارس الامامي الامين على تقاليدهم وشعائرهم المقدسة . فهي تحمي نقاوة لغتهم ودمهم بل هي خطدفاعهم الاول ضد كل عدو مفاجىء . ولئن كانت قلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر وآفة القحط كلها اعداء تآزرت على البدوي في احواله العادية فانها في الوقت نفسه اذا ما انتابه العدو احلاف تقوم بمناصرته ونجدته . فلا عجب اذن اذا رأينا البدوي يندر ان يطاطىء رأسه تحت نير أجنبي .

وفي البدو أثر واضح من حياة الصحراء وطنه المتسقة المطردة . ويتجلى هذا الأثر في بنيته الجسدية وتكوينه العقلي . وليس جسم البدوي لدى التشريح سوى حزمة من الاعصاب الحساسة والعظام والعضلات . فكأنه مثال لجدب الارض وقحطها . ويتألف طعامه اليومي من التمر وشيء من الدقيق او الذرة المحمصة ممزوج ببعض الماء او الحليب . ولباسه بسيط كمأكله ـ ثوب طويل تجمعه الى وسطه منطقة تحت عباءة . ولباس رأسه كوفية يعلوها عقال . وهو لم يألف ارتداء السراويل وقلما عرفت رجلاه الحذاء . واظهر فضائله التجلد والصبر اللذان يمكنانه من الحياة حيث يكاد يهلك كل شيء غيره . الا انه يتصف بما يقابل ذلك من القناعة وعنده ان الاستسلام او الخضوع في اكثر الأحايين يفضلان على المحاولة والسعي لتحوير بيئته مهما تعاظمت اسواء تلك البيئة . على ان الروح الفردية ، وهي خصلة اخرى فيه ، تمكنت منه الى حد تعذر معه عليه ان يرفع مستواه إلى مصاف الانسان الاجتماعي المعروف بنزعته الامية . كذلك لم يتسن له ان يتخيل مثلاً عليا توحي اليه الشعور بالاخلاص لما فيه خير المجموع ، اللهم الا ما كان فيه مصلحة القبيلة التي ينتمي اليها . وليس النظام والخضوع للامر واحترام القانون من الآلهة التي تفرض البادية عبادتها . ولقد روى ابو هريرة عن اعرابي جاء يزور النبي قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة وقمنا معه فقال اعرابي في الصلاة :

اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا احداً » (١) هذا هو البدوي منذ عهد اسماعيل: « يده على الكل ويد الكل عليه » (٢) .

الغزو

لقد قضت احوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو ، وهو في الواقع نوع من اللصوصية ، الى مرتبة يقرها النظام القومي . فأصبح الغزو من اركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية . واستولى حب القتال على نفوس اهل البوادي حتى اصبح حالة عقلية مزمنة ، واصبح شن الغارات نموذجاً للاعمال التي يليق بذوي الرجولة الحقة ان ينصرفوا اليها . حتى ان القبائل النصرانية كبني تغلب مارست الغزو ولم تتقيد بوازع عقلي او ديني . ولقد عبر الشاعر القطامي (المتوفى عام ١١٠ هـ/٧٢٨ م) وهو من شعراء العصر الاموي الاول وكان نصرانياً ثم دخل الاسلام ، عن المبدأ الذي انطوت عليه هذه الروح ببيتين من الشعر قال :

« اغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حان حانا
واحياناً على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا اخانا » (٣)

ويجوز اعتبار الغزو ضرباً من الرياضة القومية . ووفقاً لقواعد هذه الرياضة كان لا يجوز ان تراق الدماء عند الغزو الا في حالة الضرورة القصوى . ولقد كان الغزو يساعد الى حد ما على انقاص عدد السكان الذين تعيلهم الجزيرة ، غير ان تقليل السكان لا يؤدي الى تكثير موارد العيش . وكان يمكن للقبيلة الضعيفة او للحضر المقيمين على حافة الصحراء ان يأمنوا تعديات القبائل القوية بتأدية ما يسمونه اليوم « الخوّة » تتقاضاها القبيلة ذات الحول . والخوة كناية عن ثمن يدفع لقاء التمتع بحقوق الاخوة التي تقضي بالامان والسلم . وجدير بالذكر ان العرب احتفظوا بمبادىء الغزو وبالاصطلاحات التي تستعمل للتعبير عنه حتى في مطلع الاسلام وعهد الفتوحات

---

١) ابو داود ، السنن (القاهره ، ١٢٨٠) الجزء الاول ، ص ٨٩ ٢) تك ١٦ : ١٢
٣) ابو تمام ، الحماسة نشر فريتاغ (بون ، ١٨٢٨) ص ١٧١

في آسية الغربية في اثناء القرن السابع للميلاد فانهم دعوا الفتوح مغازي واسرفوا في القول ان الحرب خدعة .

ومع ذلك فان مبدأ الضيافة عند العرب كان يخفف الى حد ما من شر الغزو. ولقد لطف حب الكرم والضيافة ما قام في نفس البدوي بالفطرة من حسبان البادية مجالا للفوضى والعبث بحيث اصطدمت الفكرة الاباحية بفكرة صيانة الضيف. ومهما يكن في البدوي من صفات البغض والاستنكار لعدوه فانه ايضاً ضمن نطاق الصداقة خل مخلص لصديقه. ولقد تغنى شعراء الجاهلية وهم صحافيو يومهم بفضل الضيافة التي تعتبر هي والحماسة والمروءة [1] من اسمى الشمائل التي تميز بها الشعب العربي. ولئن كان التزاحم على الماء والمرعى الذي نشأت عنه معظم اسباب القتال قد قضى أن ينشق سكان البادية قبائل يناوىء بعضها بعضاً فان الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة انشأ فيهم الاحساس بحاجة ماسة مقدسة الى الضيافة . وكيف يبخل المرء على الضيف بهذا الحق في بلاد لا تعرف فيها الفنادق ولا النزل . ومتى كان الرجل ضيفاً فليس الى ايذائه من سبيل ، بل قد تعد الاساءة اليه جرماً ينافي العرف والشرف وينقض اوامر الله عز وجل وهو المجير الحفيظ .

التدين

ولم تنشأ اصول الديانة السامية في البوادي الرملية بل في الواحات وكانت لاول عهدها ترتكز على تقديس الحجارة والغدران حتى في العصور التي سبقت عصر الحجر الاسود وبئر زمزم في الجزيرة وعصر بيت ايل في فلسطين . ولم يكن البدوي يقيم كثير وزن للدين . وقد ورد في القرآن « الاعراب اشد كفراً ونفاقاً » (التوبة ٩٨) . ويقال انهم الى يومنا هذا لا يطيعون الرسول الا بالقول. [2]

---

١) Ignaz Goldziher, *Muhammedanische Studien*, Pt. 1 (Halle, 1889) p. 13.

٢) امين الريحاني ، تاريخ نجد (بيروت ، ١٩٢٨) ص ٢٣٣ .

العشائر

تقوم الهيئة الاجتماعية عند البدو على نظام العشيرة [١] ووحدتها الاسرة التي تمثل الواحدة منها الخيمة او البيت . والحي عبارة عن مضرب من مضارب الخيام واعضاء الحي يطلق عليهم لفظ قوم . وتتألف القبيلة من اقوام او عشائر تربطها اواصر النسب . وينظر ابناء العشيرة الواحدة بعضهم الى بعض كابناء دم واحد . وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد ـ هو كبير اعضاء العشيرة سناً . ويتداعون الى الحرب بصيحة حربية واحدة . ويرجع اسم العشيرة في الغالب الى الجد الاول الذي تنتسب اليه فيقال مثلاً بنو تميم او بنو شيبان وهلم جرا . وتظهر من اسماء العشائر المؤنثة آثار العصر الذي كانت السيادة النسائية فيه اصل المجتمع البدوي . وترجع الرابطة في كيان القبيلة الى العلاقة الدموية سواء أكانت حقيقية ام وهمية . هكذا كان النظام الاجتماعي عند العبرانيين في العهد القديم الذي حفظت اخباره التوراة وهو نظام عشائري قائم على زعامة الآباء ومطابق لنظام العشائر العربية . ومثل ذلك يقال في سوى العرب من الجماعات السامية في بابل وأشور .

وتعتبر الخيمة وما فيها من اثاث حقير ملكاً للفرد اما الماء والمرعى والارض الصالحة للزرع فهي ملك مشاع للقبيلة كلها .

واذا اقترف احد جريمة القتل ضمن نطاق عشيرته فليس ثمة من يدافع عنه ، فاذا فر اعتبر طريداً . ولكن اذا ارتكب جريمة في عشيرة اخرى اقيمت حدود الثأر واصبح كل فرد من افراد عشيرته عرضة لثأر العدو .

ولقد قضت شريعة البادية القديمة ان الدم لا يغسله الا الدم . فكان لا يقبل جزاء آخر غير اخذ الثأر الا في بعض الحالات حين يقبل اهل القتيل دية ، وتلقى المسؤولية عموماً على اكتاف ذوي القربى من الانسباء . ولقد تستغرق عداوة

١) فؤاد حمزه ، قلب جزيرة العرب (مصر ، ١٩٣٣) ص ١٢٣ ـ ٢٢٧ .

الدم اربعين حولا كما جرى في حرب البسوس التي دارت رحاها بين بني بكر وبني تغلب . وكان اولئك الذين دونوا اخبار ايام العرب يسعون الى ابراز الدوافع التي أدت اليها ويعززون امر العداوة الدموية الا ان كثيراً من هذه الحوادث بلا ريب بعثتها عوامل اقتصادية بحتة .

وليس من كارثة على البدوي أشر من خسرانه نسبه القبلي . وماذا يفعل من لا قبيلة له في بلاد يحسب بها الغريب عدواً ؟ انه واقع في شر مستطير . ولئن كان اساس الانتساب الى عشيرة من العشائر قائماً على صلة الدم فان لحيازتها ايضاً طرقاً اخرى كأن يشترك الفرد مع ابناء العشيرة التي يريد الانتساب اليها بمأكل او مشرب او امتصاص قطرات من دم احد افرادها رمزاً الى اكتسابه صلة الدم بهم . ولقد ورد في تاريخ هيرودتس ذكر هذه العادة القديمة (١) .

واذا اعتق عبد فان مصلحته تقضي غالباً بان يبقي علاقته بالاسرة التي ينتسب اليها سيده فيصبح من الموالي . وقد يدخل غريب على قبيلة طالباً الولاء فيها فيسمى (دخيلاً) . وكثيراً ما تحتال العشائر الضعيفة على الدخول في ذمار أخرى ضماناً لمصالحها فتندمج فيها على تعاقب الأيام . واذا تكاثرت القبيلة وتعذر التأليف بين جموعها انقسمت الى قبائل صغيرة تحتفظ جميعها بذكريات النسب القديم . وبالعكس فلقد تتحد القبائل المختلفة بقصد التضامن والمؤازرة في الدفاع عن النفس فتندمج الصغيرة في الكبرى . وهكذا نشأت طي وغطفان وتغلب وسواها وهي في الاصل احلاف من قبائل شمالية . وقد لعبت دوراً مهماً في تاريخ العرب ولا يزال لها سلالة الى الآن في البلدان العربية .

وهناك عادة في الحياة الدينية تشبه هذا ، وهي تتيح للغريب الدخول في خدمة حرم او موضع مقدس (٢) فيصبح عندها مولى لرب ذلك المكان . ولا يزال حجاج مكة المكرمة الى يومنا هذا يعرفون بـ « ضيوف الله » . واما الطلاب

١) *History*, Bk. III, ch. 8.
٢) قابل حزقيال ٤٤ : ٧

الذين ينتسبون الى مسجد مكة او غيره من المساجد العظيمة فيسمون المجاورين « اي مجاوري الله » .

العصبية

العصبية روح العشيرة . ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لا حد له لاخوانه من ابناء العشيرة بشكل يتفق مع ما نعهده من النزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث . وقد قال الشاعر العربي :

« فاحفظ عشيرتك الأدنين ان لهم حقاً يفرق بين الزوج والمرت » [(١)]

وما هذه الصفة الفردية اللاصقة التي اختصت بها العشيرة الا صورة مكبرة للاستقلال الفردي الذي يشعر به ابن العشيرة ، وهي تحدو به الى الظن بان العشيرة او القبيلة ، حسبما كان الحال ، هي وحدة اجتماعية قائمة بذاتها تذود عن حوضها مطلقة الحرية ، ولها ان تحسب كل عشيرة او قبيلة اخرى لقمة سائغة وغنيمة باردة يحل لها فيها النهب والسلب والقتل . ثم جاء الاسلام فاستفاد من النظام القبلي في اغراضه الحربية ، فقسم الجيش الى وحدات على اساس القبائل ، واسكن المستعمرين في الاراضي المفتوحة على اساس القبائل ايضاً . وكذلك اصبح الداخلون في الاسلام من الشعوب المغلوبة موالي لابناء هذه القبيلة او تلك . ولم تقض الايام على هذه الصفات التي ظهرت فيها الروح الفردية والعصبية في ابن القبيلة بل ان انعدام الشعور الاجتماعي ظل متأصلاً في الخلق العربي طيلة القرون التي تقدم العربي وارتقى فيها بعد بزوغ الاسلام وكان ذلك من العوامل الهدامة التي آلت الى انحلال الدول الاسلامية المختلفة وسقوطها .

الشيخ

يمثل العشيرة رئيس رسمي هو الشيخ . وليس الشيخ زير نساء كما صورته

١) المبرد ، الكامل نشر و. ريت (لبزغ ، ١٨٦٤) ص ٢٢٩ .

هوليود في أشرطتها الناطقـة والصامتة بل هو المسن المقـدم على افراد القبيلة الذي تظهر زعامته بما يبديه من أصالة الرأي والسخاء والشجاعة . فتقدمه على اهل القبيلة مبني على كبر سنه واخلاقه الشخصية . وليس الشيخ صاحب الامر المطلق في الشؤون الشرعية والحربية وسواها ، بل يفرض عليه مشاورة مجلس القبيلة الذي يتألف من زعماء البطون والافخاذ . ويدوم تمتعه بهذا المركز السامي ما دام ولاء القبيلة حليفه . والشيخ في العصور العربية الاولى كان يسمى سيداً اما اليوم فقد خص هذا اللقب بذرية الحسين سبط الرسول - ابن علي وفاطمة .

والعربي عموماً والبدوي على التخصيص ديمقراطي النزعة . وهو يعامل زعيمه الشيخ المتبوع معاملة الاكفاء والقرناء فكأن الهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها قـد ساوت بين الناس على الاطلاق . ولقد كان يجيء البدوي في ايامنا الى حضرة الملك حسين بالحجاز فيقف تحت نافـذة القصر وينادي : « يا بو علي » [1] ولا غرو فان لقب ملك لم يكن يستعمله العرب الا اذا شاؤا الاشارة الى الملوك الاجـانب أو ملوك غسان ولخم المتـأثرين بالنفوذ الاجنبي . ولا يستثنى من هـذا القول الا ملوك بني كندة . وينسب الى الخليفة عمر كلام مرماه ان الشعراء والخطباء هم ملوك العرب . على أن للعربي أرستقراطيـة لا تقـل عن ديمقراطيته ، فهو يؤمن ان فيه اجتمعت مقومات الكمال الانساني ، وأن العرب أفضل الامم وأفخرها . وما الرجل المتمدن في نظر البدوي المعجب بنفسه الا رجـل أقل منه سعادة وأحط مكانـة . ويفاخر العربي الى ذلك بنقاوة دمه وفصاحة لسانه وقوة شاعريته وبسيفه وبجواده وأعظم من ذلك كلـه فخره بنسبه المجيد . وهو كثير الولع بارجـاع نسبه الى الاجـداد العريقين ولقد يربط نسبه بآدم . ولقـد فاخر الحجاج ابن يوسف عامـل الامويين الشديد على العراق يوماً فقال : « لم تلدني امة بيني وبين آدم ما خلا هاجر » [2] . وليس بين الشعوب غير العرب من رفع امر معرفة الانساب الى مرتبة العلوم العالية .

١) امين الريحاني ، ملوك العرب ، (بيروت ، ١٩٢٤) ج ١ ص ٢٦ .
٢) الجاحظ ، البيان والتبيين (مصر ١٣١١ -١٣) ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ .

وقد كانت المرأة البدوية في الجاهلية تتمتع بحظ وافر من الحرية لم تعرفه اختها الحضرية وظلت كذلك في الاسلام . ومع انها تعيش في بيئة تقر تعدد الزوجات وتخضع لنظام يجعل الرجل بعلاً اي سيداً لها فانها كانت ولا تزال حرة مستقلة لها حق انتقاء زوجها او هجره اذا لم يحسن معاملتها .

ويمتاز بنو البادية بالمقدرة الفائقة على هضم الثقافات الأخرى حين تحين لهم الفرص فترى القوى الكامنة التي كانت مستكنة أجيالا طويلة قد تنبهت فجأة بفضل البواعث الملائمة وبرزت تعمل بحيوية ونشاط . وانما تسنح هذه الفرص في الهلال الخصيب . فهذا حمورابي يظهر في بابل وموسى يظهر في سيناء وزنوبيا في تدمر ، أو هارون الرشيد على سرير الخلافة في بغداد . وهذه آثار أبنية قد خلفوها مثل البتراء لا تزال الى يومنا الحاضر تثير أعجاب العالم . وأن هذا الازدهار العجيب الذي نراه في فجر الاسلام لراجع في الغالب الى تلك القوى الكامنة التي امتاز بها البدو الذين قال فيهم الخليفة عمر « انهم أصل العرب ومادة الاسلام» [1] .

---

١) ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير نشر ادوار ساخو ، (ليدن ١٩٠٤ ـ ١٩٢١) المجلد الثالث ، الجزء الاول ص ٢٤٦ .

الفصل الرابع

العلاقات الدولية الأولى

عرب الجنوب

لقد أطلقنا في الفصول السابقة لفظة عرب على جميع سكان الجزيرة بصرف النظر عن مناطقهم الجغرافية ويجب علينا الآن ان نفرق بين عرب الجنوب وعرب الشمال الذين يشملون اهل نجد في أواسط الجزيرة . وكما أن سطح الجزيرة ينقسم الى منطقتين شمالية وجنوبية تفصل بينهما صحراوات غير مطروقة ، كذلك ينقسم سكانها الى جماعتين تتمايز الواحدة منهما عن الأخرى .

وعرب الشمال في الغالب من البدو يعيشون في بيوت من الشعر في نجد والحجاز أما عرب الجنوب فأكثرهم من الحضر يقطنون اليمن وحضرموت وما جاورهما من السواحل . ولغة الشمال هي لغة القرآن اي اللغة العربية المعروفة ، اما اهل الجنوب فلقد كانت لهم لغة سامية قديمة ـ لغة سبأ وحمير ـ وهي تمتّ الى اللغة الحبشية بصلة . وعرب الشمال على الغالب مستطيلو الاقحاف اما بنو الجنوب فمستديروها عموماً . لذلك فالأواصر الجنسية تربط الشمال باقوام البحر المتوسط بينما يرتبط الجنوب بالنوع الالبي المعروف في آسية بالأرمناوي او الحثي او العبراني . وهو يمتاز بسعة الفك وقنو الانف وانبساط الخدين وغزارة الشعر . وقد سبق عرب الجنوب اخوانهم من اهل الشمال في بلوغ ذروة المدنية فانشأوا حضارة وطنية راقية واما عرب الشمال فلم يصلوا الى مسرح الشؤون الدولية حتى ظهور الاسلام .

ولقد ظهرت آثار هذه المميزات القومية بين العرب والشعور بها وحفظت في

انسابهم التي توارثوها فراحوا يقسمون انفسهم قسمين : اولا ، العرب البائدة ومنهم ثمود وعاد ، وقد ورد ذكرهما في القرآن ، وطسم وجديس . وثانياً ، العرب الباقية. وثمود قوم عرفهم التاريخ فقد ذكرتهم الخطوط الاسفينية في مدونات سرجون الثاني ، [١] وعرفهم ايضاً كتاب اليونان والرومان باسم « ثموداي » [٢] والتحق بجيش بيزنطه في القرن الخامس للميلاد فيلق من الخيالة الثمودية . اما بنو عاد فقيل انهم سكنوا حضرموت القديمة . ثم يعود النسابون فيقسمون العرب الباقية الى دوحتين مختلفتين : العرب العرباء او العاربة والعرب المستعربة او المتعربة . فالعرباء في رأيهم هم اهل اليمن الذين تسلسلوا من قحطان (يقطان في التوراة) وهم سكان البلاد الاصليون . اما المستعربة فالحجازيون والنجديون والانباط واهل تدمر ـ وجميعهم من سلالة عدنان ، وهو من سلالة اسماعيل ـ فكأنهم اغراب دخلوا البلاد وتجنسوا بجنسيتها . ويذكرنا هذا التقسيم التقليدي للعرب كقحطانيين وعدنانيين بالفروق المعروفة بين عرب الجنوب وعرب الشمال . ولقد قضت الأحوال المتنوعة والاسباب الاقتصادية ان تنزح بعض قبائل الجنوب الى ربوع الشمال للاقامة فيها . وما اهل المدينة الذين تسارعوا الى نصرة رسول الله يوم الهجرة الا جماعة من اليمنيين . وكذلك بنو غسان الذين استوطنوا سورية الشرقية واللخميون الذين نزلوا الحيرة بالعراق . على أن قريشاً التي انتسب اليها الرسول كانت من نزار وهي من الدوحة الشمالية .

ولم تتلاش الفوارق بين هاتين الدوحتين العربيتين الى الآن بل بقي الاختلاف بينهما واضحاً على الرغم مما حاوله الاسلام من توحيد العرب والجمع بين قبائلهم وبعث امة عربية واحدة .

---

١) D. D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. ii (Chicago, 1927), §§ 17, 118

٢) Pliny, *Natural History*, Bk. VI, ch. 32

١ . العلاقات العربية المصرية

كانت جزيرة العرب اسفيناً يفصل بين مركزي الثقافة القديمة ـ مصر وبابل. وربما كانت البنجاب في الهند مركزاً ثقافياً ثالثاً فصلت الجزيرة بينها وبين بلدان الغرب ايضاً . وعلى الرغم من ان الجزيرة لم تقع تحت سلطان الثقافة التي ترعرعت وازدهرت في وادي النيل ووادي الرافدين ، فانها لم تستطع ان تتخلص من تأثيرهما [١] . على ان ثقافة الجزيرة في قرارتها كانت ثقافة محلية صرفةحاكت الثقافات التي نشأت على سواحل البحار . ولقد اصبح سكان الجنوب الشرقي منها ارباب تجارة وثراء توسطوا في سوق التجارة بين مصر وما بين النهرين والبنجاب ـ وهي مراكز ثلاثة هامة للمتاجرة في العصور القديمة ـ وباسمهم تسمى البحر الفاصل بين هذه البلدان .

ولقد كان التماس بين افريقية والجزيرة في الشمال عند شبه جزيرة سيناء حيث يمر خط بري ، وجنوباً حيث تقرب الجزيرة من افريقية عند باب المندب ، فلا تحول دون اتصالها الا مسافة خمسة عشر ميلاً ، ويربط البرين في اواسط ساحل الجزيرة الغربي خط يقطع البحر الاحمر الى القصير فوادي الحمامات قبالة انعكاف النيل بالقرب من طيبة ، وكان هذا الخط الاخير أهم خطوط الاتصال الوسطى . وقد احتفرت السلالة الفرعونية الثانية عشرة (نحو ٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨ ق. م) قناة فوق بلبيس تربط النيل بالبحر الاحمر . واعاد البطالسة معالم هذه القناة وهي بمثابة الام الاولى لقناة السويس . وجاءت دول الاسلام فاعاد الخلفاء فتحها وبقيت الى ان تم اكتشاف خط رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ م) المؤدي الى الهند .

نحاس سيناء

لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء ، ما فيها من مناجم

---

١) تساءل بعض العلماء في الآونة الاخيرة عن امر الجزيرة الجنوبية وهل كانت مركز ثقافة سبقت ثقافات آسية وافريقية . قابل Crawford , *The Geographical Review*, vol. (1926) pp. 73-81

النحاس والفيروز المتوفرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور . وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كان بدو سيناء يبيعون هذه المنتوجات الثمينة في اسواق وادي النيل . ولقد تولى فراعنة السلالة الاولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الزاهر الا أيام سنفرو (نحو ٢٧٢٠ ق.م) من فراعنة السلالة الثالثة . وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسورية وفلسطين وتصل منها الى انحاء الهلال الخصيب وآسية الصغرى ـ وهي اول طريق امية سلكها الانسان في التاريخ ـ يتجه منها فرع جنوبي غربي الى مناجم النحاس والفيروز في سيناء . ولقد عثر الاثري بتري سنة ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح ملكي للسلالة الفرعونية الاولى في ابيدوس تحمل رسم رجل سامي من النوع الارمناوي كتب عليها « أسيوي » ويمثل الرسم رجلا ذا لحية مروّسة حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب . وهناك نقش بارز اقدم عهداً من هذا يعود الى السلالة الاولى ايضاً نرى فيه زعيماً بدوياً ناحل البدن يتزر بمئزر وهو يزحف متذللاً امام آمره المصري الذي هم بهراوة ينوي بها سحق رأسه . وهذان الرسمان هما اقدم الرسوم الموجودة التي تمثل البدو . ويقابل لفظة بدوي في المصرية « عمو » ومعناها بدوي او أسيوي ، وقد ظهرت كثيراً في المدونات الاولى وهي تشير احياناً الى البدو الظاعنين حول الاراضي المصرية وخارج نطاق الجزيرة . وان اول مصري زار فلسطين وابقى لنا أثراً ينبيء عن أخبار رحلته هو سنوهي الذي ظهر في دولة امنمحعت الاول (نحو ٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠ ق. م) وهو يشير الى نفسه بلقب « ملك بين البدو » [١] وفي اثر تاريخي آخر كلام يشعرنا بان امنمحعت الاول نفسه حمل على « البدو ففرق شملهم مثل الكلاب الضالة » [٢] .

اللبان

ولقد توطدت العلائق بين جنوبي الجزيرة ومصر ايام انشأت مصر صلات

---

١) Breasted, *Ancient Records of Egypt* (Chicago, 1906-7) vol 1. ch. 450

٢) المصدر نفسه vol. 1. ch. 483

التجارة مع فوط (بنت) والنوبة . ولقد ذكر هيرودتس [1] ان سيزوستريس ، والاولى ان يقال سنوسرت الأول (١٩٨٠ ـ ١٩٣٥ ق. م) من السلالة الثانية عشرة قد افتتح الامصار المتاخمة للخليج العربي ولعلها الشقة الافريقيـة من البحر الاحمر . ثم كان للسلالة الثامنة عشرة اسطول في البحر الاحمر . ولـكن منذ عهـد السلالة الخامسة كان ساهوري (٢٧٤٣ ـ ٢٧٣١ ق. م) قد رأس اول حملة بحرية بطريق البحر الاحمر الى بلاد تفيض لباناً يتضح انها بلاد الصومال على الساحل الافريقي .

وكان اهم ما يجذب المصريين الى جنوبي الجزيرة هو اللبان الذي كانوا يقدرونه كثيراً اذ كانوا يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم ، وكانت تلـك البقاع من الجزيرة غنية جداً بهذا اللبان .

ولما تم لفرعون النصر على النوبة وضم ارض فوط (الصومال الحـديثة) الى نطاق الامبراطورية المصرية التجاري نظم حملات شتى سارت الى هذين البلدين في طلب « المر والصموغ العطرة والراتينج والاخشاب الزكية » منها حملة جردتها حتشبسوت الملكة (نحو ١٥٠٠ ق. م) الى فوط وهي اول امرأة تصدرت التاريخ . واما خليفتها تحتمس الثالث ، نابوليون مصر القديمـة ، فلقد عادت سفنه من تلك الارجاء حاملة طرائف « العاج والابنوس [2] والارقاء وجلود الفهود » . ولـما كانت اليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة تمتاز بهذه السلع الثمينة ايضاً فلا يستبعد ان المصريين انما اطلقوا لفظة فوط على البلدين اللذين يفصل بينهما باب المندب . ويظن ان الذهب ايضاً كان يصدر من الجزيرة . وكانت تجارة البخور الآتية من جنوبي الجزيرة تمر بوادي الحمـامات بحيث اصبح ذلـك الخط الاوسط اهم حلقة للاتصال ببلاد العرب الجنوبية . واشتهرت حضرموت [3] وهي بين اليمن وعمان بانها كانت ارض البخور واللبان وكانت مساحتها في القديم اعظم منها الآن لانها كانت تشمل

---

١) Bk. II ch. 102

٢) لفظة « أبنوس » هي من أصل مصري قديم « هبني »

٣) هي حصر ماوت في العبرانية تك . ١ : ٢٦ .

قطري مهرة والشحر [1] الساحليين . واهم مدنها آنئذ ظفار وهي ذفر اليوم من مقاطعات الساحل ، ولسلطان عمان نفوذ اسمي عليها ، ويجب ان لا يخلط بين ظفار هذه التي كانت المركز التجاري لبلاد اللبان وهي على الساحل الجنوبي وبين ظفار المدينة اليمنية الداخلية التي كانت عاصمة حمير [2] . ولا تزال اشجار اللبان تنمو في حضرموت وغيرها من انحاء الجنوب ولا تزال ظفار كما كانت في الماضي مركز تجارته . وطريقة اجتناء اللبان ان جانبه يشق في لحاء الشجرة شقاً ضيقاً تسيل منه عصارتها حتى اذا جفت على جذع الشجرة واصبحت مادة راتينجية كشطها وتكون عندئذ صالحة للاستعمال كبخور . ولقد ذكر ياقوت [3] اجتناء اللبان بما ينطبق على ما مر واضاف ان سلطان ظفار كان قد استبد بهذه التجارة وسيطر على مرافقها بما يشبه الاحتكار حتى انه حظر التعاطي بها واصحاب اللبان « لا يقدرون يحملونه الى غير ظفار وان بلغه عن أحد منهم انه يحمله الى غير بلده اهلكه » .

وجدير بالذكر ان المصريين القدماء لم يستقلوا بميدان المصالح التجارية في الجزيرة فلقد كان ينازعهم في تجارة الطيوب والمعادن منافسون اشداء في مقدمتهم ابناء بابل .

٢ . اتصال العرب بالسومريين والبابليين

ولقد تاخمت بلاد العرب الشرقية ارض الرافدين ، وكان سكان العراق القدماء ، السومريون والاكديون ، قد اتصلوا بمن جاورهم من اهل البلاد الغربية (الامورو) وذلك قبل الالف الرابع السابق للميلاد فنشأت بين الطرفين علاقات عن طريقي البر والبحر . والراجح أن السومريين استحضروا النحاس (وهو اول المعادن التي اكتشفها الانسان واستعملها) من مناجمه في عمان .

وهناك كتابة على تمثال من حجر الديوريت لنارام سين (نحو ٢٣٠٠ ق . م)

---

١) وبعد ذلك اطلقت لفظة الشحر على كل انحاء الساحل الذي يصدر اللبان منه ومن هذه الانحاء مهرة وظفار ولا تزال لها هذا المدلول حتى يومنا هذا .

٢) قابل ياقوت ، بلدان . ج ٣ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ .

٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٧٧ .

وهو سليل سرجون (اول عظماء الساميين في التاريخ ومؤسس الدولة الأكدية في وادي الفرات) وخليفته وهي تنص على انه اخضع «مغان» وغلب سيدها مانيوم (١)

وانبأنا ُغوديا (نحو ٢٤٠٠ ق .م) وهو الباتيسي (لقب الملك او حاكم المدينة عند السومريين وكان يقوم بواجبات الكهنوت الى جانب رئاسته السياسية) السومري حاكم لغاش انه دبر حملة على « مغان » و « ملوخا » طلباً للتجارة والخشب لبناء هيكله . وقد امعن علماء اللغة الاشورية في تقصّي اصل هذين الاسمين الدالين على مكانين ولعلهما اطلقا اولا على بقعتين معينتين في شرق الجزيرة واواسطها ثم في العصر الاشوري جعلوهما اسمين لموضعين أبعد مسافة يظن انهما في شبه جزيرة سيناء او افريقيا الشرقية . ورأى بعضهم ان ملوخا موطن العمالقة في سيناء بجوار البتراء . ولا تمت مغان من حيث الاشتقاق بصلة الى معان (٢) وهو اسم الواحة المعروفة في شمالي الحجاز (وهي الآن في شرق الاردن) وكانت على الاغلب مستعمرة قديمة على طريق القوافل التي ذكرها كتاب اليونان والرومان . ومهما يكن من امر فأن لنا في هذه الكتابة الاسفينية اول اشارة مدونة في التاريخ الى موضع معين في الجزيرة والى قوم من العرب . وفي كتابة اخرى اقرب عهداً خلفها لنا اردنَنَر (نحو ٢٣٠٠ ق. م) ذكر ارض « سبو » (٣) . ولا سبيل الى التسليم انها هي سبأ العربية .

وجاء في النقوش الاسفينية ذكر « الارض البحرية » وكان الرأي السائد الى الآن انها الاغوار الواقعة الى الشمال من خليج العجم . غير ان هناك نظرية جديدة تجعلها جزءاً من الجزيرة نفسها يشمل شواطيء خليج العجم الغربية الى غاية جزيرة البحرين (دلمون قديماً) ، وربما كانت الاراضي البحرية تشمل ايضاً النفود حتى

---

١) قابل F. Thureau-Dangin, *Les inscriptions de Sumer et d'Akkad*(Paris, 1905), pp. 238, 239 .

٢) معون او معون العبرانيين (قضاة ١٠ : ١٢ ؛ سفر الاخبار الثاني ٢٦ : ٧)

٣) Thurean - Dangin, *Les Inscriptions*. p. 213

حدود العقبة على البحر الاحمر . وتفيد النقوش ايضاً ان نبوبولاصر كان ملك الارض البحرية قبيل تسنمه عرش بابل .

٣ . توغل الاشوريين في البادية

واول اشارة ثابتة الى العرب ، هي تلك التي وردت في نقش للملك الاشوري شلمناصر الثالث الذي قاد في السنة السادسة لملكه حملة على ملك دمشق الارامي وحليفيه آخاب ملك اسرائيل وجندب احد مشايخ العرب ، فاصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام ٨٥٤ ق. م واليك كلمات شلمناصر :

قرقر عاصمته الملكية انا خربتها انا دمرتها انا احرقتها بالنار ، ١٢٠٠ مركبة، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠،٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب أرام [دمشق ؟] ... ١٠٠٠ جمل لجندب العربي ... هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمعونته ، برزوا الى المعركة والقتال ، تالبوا علي .[١]

ومن بديع الاتفاق أن اسم اول عربي يسجله التاريخ جاء مقروناً باسم الجمل .

وبذل تغلث بلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق. م) مشيد الامبراطورية الاشورية الثانية ، قصاراه لتأمين سلامة الطرق التجارية التي كانت تخترق اقسام الدولة المترامية ثم تنعطف الى البحر المتوسط ، فحمل على سورية وانحائها حملات عسكرية متعاقبة . وفي السنة الثالثة لملكه ضرب الجزية على زبيبي ملكة الارض «الاربي» وفي السنة التاسعة من عهده قهر ملكة اخرى من ملكات الاربي اسمها سمس (شمس او شمسية) ودونت سجلاته انه في عام ٧٢٨ ق. م. اتته الجزية من قبيلة (مسأي) ومدينة تمأي (تيماء) والسبأي (سبأ) ذهباً وابلاً وطيوباً .[٢] وهذه القبائل انما كانت تقطن شبه جزيرة سيناء والبادية الواقعة في شمالها الشرقي .[٣]

(١ Luckenbill , vol . i, § 611

(٢ Lucke nbill , vol . i , § 778 , 779 , 817 .

(٣ Ditlef Nielsen , *Handbuch der altarabischen Altertumskunde* , vol. i , *Die altarabische Kultur* (Copenhegen , 1927) p. 65 .

فتغلث بلاصر الثالث اذن اول من وضع نيراً فوق اعناق العرب .

وانبأنا سرجون الثاني (٧٢٤ـ٧٠٥ ق. م) فاتح كركميش والسامرة انه في السنة السابعة لملكه اخضع اقواماً من جملتهم قبيلتا ثمود (ثمود في القرآن ، هود: ٦٤ الخ) واباديد « الذين يسكنون البادية ولا يقرون كبيراً او صغيراً من الحكام » فنكل بهم تنكيلاً ونفى بقاياهم الى السامرة . (١) . وتلقى في الوقت نفسه من سمي ملكة بلاد العرب واتعمرا (يثعي امرا) زعيم سبأ وسواهما من ملوك مصر والبادية جزية من « الذهب وحاصلات الجبل والحجارة الكريمة والعاج وبذور الاسفندان (؟) وانواع الحشائش والخيل والابل ، جزيةً ادوها صاغرين » . (٢)

والظاهر ان اتعمرا هو احد آل « يثعي امران » الذين كان واحدهم يسمى «مكرّب» في نقوش عرب الجنوب الحجرية . وكذلك خلفه كربي ايلو زعيم سبأ الذي ادعى سنحاريب انه اخذ الجزية منه فانه كان من عرب الجنوب الغربي ، وينطبق اسمه على اسم كرب ايلو الوارد في النقوش الحجرية (٣) فان صح ذلك فما الجزية التي زعم ملوك الاشوريين استلامها الا هدايا وصلهم بها العرب من امراء الجنوب اختياراً وهم ينظرون الى سيد اشور نظرة الند الى الند او الحليف الى حليفه ، ولعلهم تعاقدوا والاشوريين على صد غارات البدو الجامحين من ابناء الشمال .

وحوالي سنة ٦٨٨ ق. م اخضع سنحاريب « ادومو معقل بلاد العرب » (٤) وحمل آلهتها الى نينوى وأسر ملكتها التي كانت في الوقت نفسه كاهنة الآلهة . وليست ادومو الا واحة الشمال التي بلغت شأواً عظيماً بعدئذ على عهد الفتوحات الاسلامية وعرفت بدومة الجندل . اما الملكة واسمها تلخنو (تعلخنو) فكانت قد حالفت البابليين الخارجين على سلطة أشور وساعدها حزائيل سيد قبيلة قيدار (كدري في الاشورية) الذين كان مقرهم في نواحي تدمر .

---

١) Luckenbill, vol. ii, § 17.
٢) » » » », » 18.
٣) Nielsen, *Handbuch*, vol. 1, pp. 75 *seq.*
٤) Luckenbill, vol. ii § 518

واندلعت نيران الفتنة التي اوقدها أويتع ابن حزائيل الذي خلف والده فاخمدها اسرحدون (٦٨١ - ٦٦٨ ق.م) حوالي عام ٦٧٦ فاضطر الثائر الى « مغادرة مخيمه لينجو بنفسه ، ففر وحيداً وسار الى الاصقاع البعيدة » (١) . ويخيل لنا ان البدو كانوا شوكة في جنب الدولة الأشورية وكانت تدفعهم مصر وبابل الى الثورة فان آل أمرهم الى الفشل كانت رحاب البادية خير مأوى يتوارون فيه عن الانظار فتعجز جحافل الاشوريين عن مطاردتهم . وكانت البادية موطن البلايا والمحن التي يبتلى بها الفاتح . وفي عام ٦٧٠ حمل احد اشداء أشور حملته العنيفة على الديار المصرية فما وطأ شمالي الجزيرة حتى روعته البلايا فصور له ذعره الشديد مشاهدة « افاع ذوات رأسين وزحافات مرعبة تدف باجنحتها » (٢) . ولقد ذكر اشعيا (٣٠ : ٦) عن بهائم الجنوب « الافعى والثعبان الطيار » . واكد هيرودتس (٣) ان الافاعي منتشرة في جميع اقطار العالم ، خلا الحيات المجنحة فلا تراها الا في بلاد العرب حيث احتشدت كلها هناك .

وفي الحملة التاسعة التي خرج بها اشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) على القبائل العربية كان النصر حليفه فالقى القبض على اويتع وجيوشه بعد عراك طويل وترك لنا هذا الخبر عن حملته :

« اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي [يسدوا] رمقهم أكلوا لحوم صغارهم ... وكان تساؤل اهل بلاد العرب فيا بينهم ، فقال الواحد لأخيه : « ما بال بلاد العرب قد احدق بها هذا الشر المستطير ؟ » فأجابه قائلاً : « تلك عاقبة نكثنا العهد الوثيق الذي قطعناه لاشور . » (٤)

واخبرنا أشوربانيبال كيف صنع بالأسير اويتع قال : « حبسته في مربط

---

١) Luckenbill, vol. ii, § 946
٢) قابل Luckenbill, vol. ii § 558
٣) Bk. III, ch. 109
٤) Luckenbill, vol. ii ' § 8s8.

الكلاب . اويته مع بنات آوى [؟] والكلاب وأقته على حراسة الباب في نينوى ... » [١] . وكان اويتع حليف أبيتع سيد الأنباط (نبايطو) فزحف اشور بانيبال وقواته عليهم وطاردوهم « في رمضاء البادية وقيظها حيث لا ترى طيور السماء وحيث لا يرى العير [حمار الوحش ، الفرا] ولا الغزال » [٢] .

وفي سجلات الاشوريين اشارات كثيرة الى زعماء العرب « يقبلون ارجل » ملوك نينوي رافعين اليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وانواع الكحل ، واللبان والجمال والحمير . والواقع ان الانباء متوفرة عن زهاء تسع حملات جردها سرجون الثاني وسنحاريب واسرحدون واشور بانيبال لمعاقبة قبائل البدو التي لا تقهر بسبب مضايقتهم للممملكات الاشورية في نواحي الشام واعتراضهم طرق القوافل التجارية وتلقيهم العون والمساعدة من مصر وبابل عدوتي أشور ، واما لفظتا « أرْبي » و « أُربي » الواردتان في مدونات هذه الحملات فانهما تدلان على البدو بالاكثر وبلادهم المسماة « أرْبي » تشمل في الراجح بادية الشام وشبه جزيرة سيناء وشمالي الجزيرة . وفي سيناء كان اهل مِديان الوارد ذكرهم في التوراة هم الذين خضعوا لاشور وليس الانباط لان هؤلاء ، واسمهم « نبيطو » [٣] و « نبيطاي » على اسطوانة اشور بانيبال الناقلة اخبار حملته التاسعة ، لم تكن قد استتبت قدمهم في سيناء بعد . اما السبئيون الاصليون من اهل الجنوب فلم يخضعوا قط لنينوي [٤] ومع ان الاشوريين يدعون بحق رومان العالم القديم فانهم لم يستطيعوا ان يبسطوا سلطانهم الا على بعض الواحات وبعض القبائل في شمالي الجزيرة ، وذلك بصورة اسمية فقط. وليست سجلاتهم التي بين ايدينا الا « بلاغات رسمية » قصد بها « تسكين الخواطر » في مناطق نفوذهم .

---

١) Luckenbill , vol . ii , § 819 .

٢) Luckenbill , vol . ii , § 823 .

٣) Luckenbill , vol . ii , § 823 .

٤) Alois Musil , *Arabia Deserta* , (New York ,1927) p. 477 - 78 , *Northern Hegaz* (New York , 1926) p. 288 - 89 .

٤ صلة العرب بالكلدانيين والفرس : تيماء

وفي هذه الحقبة احرزت تيماء (تيما وتي ـ ما ـ أ في المدونات الاشورية البابلية) مكانة رفيعة بين قريناتها من مدائن الشمال لان نبونيد (٥٥٥ ـ ٥٣٨ ق. م) آخر ملوك الكلدانيين ، اتخذها مقراً اقليمياً له . وكان الكلدانيون قد توارثوا املاك الدولة الاشورية ومنها امصار الشام وشمال الجزيرة التي آلت الى دولة اشور في عهد تغلث بلاصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق. م) وفي السنة الثالثة من ولايته العرش ـ على ما جاء في النقوش الاسفينية ـ ازمع نبونيد : ان يجرد حملة الى مكان بعيد ؛ وسار يرافقه جيش اكد ؛ وتوجه نحو تيماء في كنف البلاد الغربية . وجرد حملة الى مكان بعيد سالكاً طريقاً لم يعرف في الزمن الغابر . فتك بامير تيماء واعمل به [السيف] ؛ وسكان مدينته [و] بلاده افناهم جميعاً . ثم ابتنى لنفسه مسكناً [في تيماء] ؛ جيش ارض اكد ... جعل تلك المدينة زاهرة ... جعلوها كالقصر الذي في بابل ... (١)

كانت واحة تيماء (تك ٢٥ : ١٥ ، ١ ش ٢١ : ١٤) في شمال الحجاز على طريق عظيم قديم يربط خليج العقبة والبتراء غرباً بخليج العجم شرقاً . ولقد تقاطعتها ايضاً قوافل الراحلين من الشام ونواحي الشمال الى اليمن في الجنوب فصارت محطة لهم يعرجون عليها في سفرهم . وهي وسطى بين مكة والشام وفي منتصف الطريق بين بابل ومصر لذلك بلغت مكانة وعزة تتناسبان وموقعها الجغرافي . وكان يقطنها الاراميون قديماً ولقد استعمرت قبائلهم القاصي والداني من ربوع الشمال فزهت تيماء بمحاسن الثقافة الارامية .

وأهم اشارة في الكتابات الاسفينية لهذه الواحة العربية ما دون في وثيقة تاريخية

---

١) R. P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 106-7

ولقد ورد اسم هذه الواحة في تك ٢٥ : ١٥ واش ٢١ : ١٤ ، وزارها تشارلز دوتي . انظر كتابه : *Travels in Arabia Deserta* (Cambridge , 1881) vol. 1, p. 285

تتعلق بسقوط بابل (٥٣٨ ق.م) على يد الفرس . فقد ابانت هذه الوثيقة ان نبونيد يومئذ كان في «آل تيما» وذلك في السنوات السابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة من ملكه بينما كان ابنه [اي بلشاصر] مع الجند مقيمين في البلاد البابلية (١) . ويتعذر علينا اكتناه ما حمل نبونيد الى تيماء ، أهي شؤون سياسية خطيرة ارغمته على سكنى تلك الواحة السحيقة ليصرف همته فيها الى اتقاء الجشع المصري فيعقد محالفة ضد كورش ام كانت له مآرب شخصية منها ولعه الشديد بالتنقيب الاثري او انه فر من سهول بابل اتقاء لشر الملاريا التي انتشرت فيها؟ ولقد قدر الرحالة دوتي (٢) ان تيماء على ارتفاع ٣٤٠٠ قدم فوق سطح البحر .

وسنة ٥٢٥ جاز قمبيز ، وهو ابن مؤسس الدولة الفارسية وخلفه ، بشمالي الجزيرة فحالف اقوامها وهو في طريقه الى غزو مصر . وقد ذكر هيرودتس (٣) في صدد الكلام عن داريوس ما نصه : «ولقد اعترف بسلطانه جميع اقوام آسية الذين كان قد ذللهم كورش ثم قمبيز بعده الا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا البتة لسلطان فارس انما كانوا احلافها ، ولقد مهدوا لقمبيز سبيل التوصل الى مصر ، ولولاهم لما امكنه القيام بهذه المهمة» .

وعلى «حجر تيماء» الذي ابتاعه هوبر (١٨٨٣) وهو الآن في اللوفر ، نجد نقشاً هو من اعظم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة . ويرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد . وهو مكتوب باللغة الاراميه وفيه ان احد الكهنة استقدم الهاً جديداً الى تيماء يدعى «صَلَمْ هَجَم» فانشأ لهيكل الاله المعبود وقفاً وعين له كهانة وراثية (٤) . ولقد مثل الاله في زي الاشوريين وظهر في اسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد ذلك النصب .

---

١) Dougherty, *Nabonidus*, pp. 111 - 112

٢) Doughty; *Travels*. vol. 1. p. 285

٣) Bk. III, ch. 88.

٤) راجع الأصل وترجمته الى الانكليزية في G. A. Cooke, *A Text - Book of North Semitic Inscriptions* (Oxford, 1903) pp. 195 - 6

٥ . اتصال العرب بالعبرانيين

كان اليهود من الناحية الجغرافية جيران العرب الاقربين وكانوا من الناحية الجنسية اقرب الشعوب نسباً اليهم . ولقد توفرت في التوراة الاشارات التي تشعر بان اصل العبرانيين كان من الصحراء [١] . ومعلوم ان اللغة العبرانية واللغة العربية ، كما مر بنا الكلام ، لغتان ساميتان من اصل واحد . ومن الاعلام الواردة في التوراة ما هو عربي صرف . فكلمة « ابرام » وشطرها الأخير « رام » فعل عربي معناه « اراد » . ولو سمع ابن الجنوب القديم اول آية من سفر التكوين بالعبرانية لوعاه دون مشقة [٢] . وقد اظهر البحث العلمي الحديث ان اصول الديانة العبرانية تنم عن اصل صحراوي .

وعرجت قبائل العبرانيين [من سبط راحيل] على سيناء والنفود في اثناء خروجها من مصر الى فلسطين حوالي سنة ١٢٢٥ ق.م. ، وتنقلت في تلك الربوع زهاء اربعين سنة . ولقد قطع بنو اسرائيل العهد الالهي في مديان وهي تضم جنوبي سيناء والارض الواقعة الى الشرق منها . واتخذ موسى لنفسه امرأة عربية هي ابنة كاهن مديان [٣] وابوها مؤمن بدين يهوه فتعلم موسى منه اسرار العبادة الجديدة . ويخيل لنا ان يهو [يهوه] اله قبلي كان يعبده المديانيون او سواهم من اهل الشمال . وهو احد آلهة البادية طبعه البساطة والشدة ، يسكن خيمة ولعبادته طقوس ليست على شيء من الاتقان والتعقيد ، وهي تتناول الاعياد البدوية والتقدمات والمحرقات يقدمونها من الماشية . دخل العبرانيون فلسطين وهم ذوو بداوة وخشونة فاستعمروا ارض الكنعانيين واخذوا عنهم تمدنهم الآ ان التقاليد القبلية والشعائر

---

١) هوشع ٩ : ١٠ ، ارميا ٢ : ٢ : تثنية ٣٢ : ١٠ الخ .

٢) انظر D. S. Margoliouth , *The Relations Between Arabs and Israelites* (London, 1924) pp. 8,15 وراجع James A. Montgomery , *Arabia and the Bible* (Philadelphia, 1934) pp. 149 *seq* .

٣) خروج ٣ : ١ ، ١٨ : ١٠-١٢ وفي قصة يوسف اوردت احدى الوثائق الاصلية اسم « الاسماعيليين » (تك ٣٧ : ٢٥ ، ٢٧) وفي وثيقة اخرى « المديانيون » (تك ٣٧ : ٢٨) وهذا يشعر بان محرر سفر التكوين احتفظ بمنطوق الوثيقتين فابقى الاسمين كما هما اعتقاداً منه انهما يدلان على شعب واحد .

البدوية ما برحت بارزة في حياتهم على تعاقب الاجيال.

وكانت المملكة العبرانية في اوج عزها تضم شبه جزيرة سيناء وكان اسطول سليمان يرسو في خليج العقبة. وفي الراجح ان اوفير التي ابحرت اليها سفن حيرام وسليمان في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة (ملوك الاول ٩: ٢٧ - ٢٨ ، ١٠ : ١١ ؛ سفر الاخبار الثاني ٩ : ١٠) هي ظفار من اعمال عمان. حتى اذا كانت ايام ايوب (٢٢ : ٢٤) صارت اوفير مضرب المثل لوفرة التبر في تربتها . وملك يهوشافاط (٨٧٣ - ٤٩ ق.م) بعد سليمان باكثر من قرن ، فكانت سطوة العبرانيين لا تزال مهيمنة على أيلةَ (العقبة اليوم) وما يتصل بها من خطوط التجارة ، تجيئه الجزية من العرب الذين « آتوه بغنم » (سفر الاخبار الثاني ١٧ : ١١) . وصرح سنحاريب ببيانه عن اخبار الحملة التاسعة التي اناخ بها (٧٠١) على سورية قال : « اما حزقيا فان هيبة جلالتي المرعبة غلبته حتى حدث ان الاربي [العرب] والمرتزقة [؟] من جنوده الذين اصطحبهم لتعضيد اورشليم قاعدة ملكه ، هجروه » . [1] وانصرف حزقيا (سفر الاخبار الاول ٤ : ٤١) وعزّيا قبله (سفر الاخبار الثاني ٢٦ : ٧) الى مقاتلة المعونيين المقيمين في ساحة معين (معان اليوم بجوار البتراء) وما يدانيها . واسترد عزيا (٧٩٢ - ٤٠ ق. م) وهو يعرف بعزريا ايضاً ايلة ليهوذا وبنى البلدة (ملوك الثاني ١٤ : ٢٢). وفي سفر الاخبار الثاني (٢١ : ١٦ ، ١٧) تفاصيل غارة شنها عرب الجنوب على يهوذا فسبوا بني الملك يورام (٨٤٨ - ٤٤ ق. م.) ونساءه وكل ما وجد من المال في بيته أخذوه . فهل يصدق ان اهل سبأ الأباعد وهم « العرب الذين بقرب الكوشيين» تسنى لهم القيام بمثل هذه الغارة ؟ وفي ايام نحميا [2] في متوسط القرن الخامس قبل الميلاد كان اليهود قد اخذوا يحسبون جيرانهم الذين يسكنون الجنوب الشرقي منهم اعداء لهم .

---

١) Luckenbill , vol . ii , § 240

٢) نحميا ٢ : ١٩ ، ٤ : ٧

العرب في التوراة والانجيل

لفظة عرب من ناحية الاشتقاق سامية معناها « البادية » او « ساكن البادية » وهي لا تعين قومية صاحبها . وهذا هو المعنى الذي ادته في العبرانية (اشعيا ٢١ : ١٣ ؛ ١٣ : ٢٠ ؛ ارميا ٣ : ٢) . وفي القرآن الاعراب هم البدو . وفي سفر المكابيين الثاني (١٢ : ١٠) جاءت كلمة « العرب » بمعنى « البدو » - واول نص صريح لمعنى هذه اللفظة في التوراة انما هو في ارميا ٢٥ : ٢٤ - « ملوك العرب » - وتاريخ نبوءة ارميا بين ٦٢٦ و٥٨٦ ق. م. ، وغالب الظن ان « الملوك » المشار اليهم هم من مشايخ الشمال وبادية الشام . وما اقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صار هذا اللفظ يطلق على ساكن الجزيرة كائناً من كان ، فهذا سفر الاخبار الثاني (٢١ : ١٦) يذكر العرب الذين بقرب الكوشيين [الاحباش] « فلا يبقى محلاً للريب في أن الكاتب عنى قوماً من العرب المقيمين في الجنوب الغربي من الجزيرة اي سبأ . ومن جملة الدول الاربع التي اشتهرت بها الجزيرة القديمة - سبأ ومعين وحضرموت وقتبان - ان أسماء الثلاثة الاولى ، وهي الدول الهامة ، مذكورة في التوراة . وفي الفصل السابع والعشرين من نبوءة حزقيال (توفي بعد ٥٧٢ ق. م) ويسمى هذا الفصل فصل التجارة ، ذكرت بلاد العرب مقرونة بقيدار ، واحصيت سلع تجارية شديدة المشابهة بما نتوقعه من حاصلات بلاد العرب . ويتضح من الآية ٢١ في هذا الفصل ان عرب القرن السادس قبل الميلاد - انصرفوا الى تربية الماشية شأنهم اليوم وكانوا يبيعونها الى جيرانهم الحضر . ويؤخذ من ارميا (٣ : ٢) انهم كانوا في ذلك الزمن يشتهرون بقطع الطرق والسلب . كذلك يستدل من ارميا (٢٥ : ٢٣) انهم كانوا يحلقون شعور رؤوسهم الا خصلة في قمة الرأس كعادة البدو عندنا اليوم .

اما دِيدان (دَيدان في العربية) التي ذكرت مراراً في التوراة اشعيا ٢١ : ١٣ ؛ ارميا ٢٥ : ٢٣ ؛ حزقيال ٢٥ : ١٣) فهي العلا الحديثة - واحة في شمال الحجاز

ـ وقد ظلت مدة من الزمن المقر الرئيسي لاهل سبأ في الشمال [١] ويظهر ان سبأ في ابان عظمتها التجارية كانت تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالا حتى موانىء البحر المتوسط وكان لها مستعمرات انشئت على هذه الخطوط.

واستبدت قيدار (قيدار في العبرانية) التي نوه بها حزقيال [٢] وهي «كدري» في المدونات الاشورية [٣] و «كدراي» [٤] في آداب اليونان والرومان على شمال الجزيرة استبداد قبيلة كلب عليها في العصور الوسطى وقبائل العنزة في العصر الحاضر فسكن ابناؤها ربوع تدمر، ومنطقة الجنوب الشرقي من دمشق. هذا والتوراة تعتبر قيدار ونبايوت (الانباط) من جملة ابناء اسماعيل (تك ٢٥ : ١٣، سفر الاخبار الاول ١ : ٢٩).

والراجح أن الفتاة الشولمية (الشونمية) التي خلد جمالها في نشيد يعزى الى سليمان الحكيم (نشيد الانشاد ٦ : ١٣، ١ : ٥؛ قابل ملوك الاول ١ : ٣) كانت اعرابية من قبيلة قيدار [٥]. وان صح أن ملكة سبا (وفي القرآن بلقيس) هي شخصية تاريخية وانها قدمت الى ملك اسرائيل الحكيم بعطايا طريفه مما امتازت به ارض الجنوب (ملوك الاول ١٠ : ١٠، سفر الاخبار الثاني ٩ : ٩) فمقرها لم يكن في اليمن ولا في الحبشة كما رأى البعض بل في احد معاقل سبا ومراكزها التجارية على خط القوافل. ولم يظهر ملوك اليمن الا بعد عصر سليمان نحو (١٠٠٠ ق.م) بمئتي سنة حسبما جاء في النقوش. والظاهر ان ملكة سبأ وكذلك الملكة سمسي والزعيم اتعمرا اللذين اديا الجزية لسرجون الأشوري كانت مساكنهم جميعاً في بعض هذه المستعمرات الشمالية التي تمثلها لنا ديدان.

وقد اقترن اسم سبا (شبا) بتيماء (تماء) في سفر ايوب (٦ : ١٩). وايوب

---

١) Alois Musil, *The Northern Hegaz*, pp. 288-9

٢) انظر ايضاً اشعيا ٢١ : ١٦؛ تك ٢٥ : ١٣

٣) Luckenbill. vol. ii, § § 820, 869

٤) Pliny, Bk. V, ch. 12

٥) قابل المجاز في نشيد الانشاد ٣ : ١ ـ ٥، ٤ : ٥ ؛ ٢ ـ ٨ بما جاء في معلقة امرىء القيس الابيات ٢٦ وما يلي ؛ ثم نشيد الانشاد ٤ : ١ وما يلي و٧ : ١ وما يلي بالابيات ٣١ وما يلي ؛ ثم نشيد الانشاد ٥ : ١٤ بمعلقة عمرو ابن كلثوم البيت ١٥

ذاته الذي تغنى بانفس ما انتجته القريحة السامية القديمة من القريض كان عربياً لا يهودياً يدلك على ذلك بناء اسمه (إيوب : أيوب) ومسرح الحوادث التي يرويها كتابه هو شمال الجزيرة . اما موطنه عوص فهو (عَوص) في نواحي أدوم . أضف اليه ان صديقه أليفاز كان من اهل تيماء . ولعل هذا السفر وضع اصلاً في اللغة العربية [1] فاذا صح ذلك كان اقدم ما لدينا من مخلفات آداب عرب الشمال .

ويؤخذ من التوراة ان العرب انجبت حكماء عظماء . ففي ملحق سفر الامثال كلام [2] لآجور ابن ياقة (امثال ٣٠ : ١) واقوال أخرى تنسب الى لموئيل (امثال ٣١ : ١) – كلاهما من ملوك مَسَّا وهي احدى قبائل اسماعيل (تك ٢٥ : ١٤) . ولقد ورد اسما هذين الشخصين باشكال مختلفة في بعض النقوش المعينية وسواها من نقوش الجنوب القديمة . وفي سفر الامثال (٣٠ : ٣١) اسطع مثال للالفاظ العربية المتسربة الى التوراة وهو لفظ « القُوم = القَوم » العربية بمعنى شعب او جند [3] . وفي نبوءة باروخ (٣ : ٢٣) اشارة الى بني هاجر اي الاسماعليين او عرب الشمال « الذين يبتغون التعقل [الحكمة] على الارض » .

اما « قدِم وبني قَدِم » في التوراة العبرانية (تك ٢٩ : ١ ، عدد ٢٣ : ٧ ، اش ١١ : ١٤ ، قضاة ٦ : ٣٢ ، حزقيال ٢٥ : ٤ ، ايوب ١ : ٣) – و « المشرق » وبنو « المشرق » في الترجمة العربية – فيقابلهما « شرق » و « شرقيون » في لغة الضاد وهما ترمزان الى الارض الواقعة شرق فلسطين والى بدوها بالاخص او قل بلاد العرب والعرب عامة . واليوم اذا سمعت بدوياً يقول انه « مُشرّق » فهمت منه انه ضارب في البادية مهما كان اتجاهه فيها . وكان ايوب الذي يعد سفره من بدائع الحكمة

١) Frank Foster , *American Journal of Languages and Literatures*, vol. 49 pp. 21 - 45 .

٢) قابل حكمة لقمان ، سورة لقمان : ١١

٣) والآية ٨ من هذا الفصل التي تذكرنا بـ « خبزنا كفافنا اعطنا اليوم » تشتمل كما رأى مرغوليوث في كتابه المذكور سابقاً ص ٣١ على كلة عربية الأصل هي هطريفيني العبرانية التي تعادل الفعل العربي اطرف اي اعطى والجملة عربية البناء .

« اعظم ابناء المشرق جميعاً » (ايوب ١ : ٣) . وبنو المشرق لم يفقهم حكمة الا سليمان (ملوك الاول ٤ : ٣٠) . ولعل المجوس الذين اقبلوا من المشرق الى اورشليم (متى ٢ : ١) يهتدون بالنجم كانوا بدواً من البادية في الشمال لا مجوساً من فارس .

ويلاحظ أن لفظة « عرب » في آداب العبرانيين التي تلت سبيهم الى بابل ترمز الى الانباط (سفر المكابيين الثاني ٥ : ٨ ؛ سفر المكابيين الاول ٥ : ٣٩) . غير ان الانباط ورد ذكرهم بالذات في المكابيين الاول (٩ : ٣٥) . وكانت دولة الانباط على عهد الرسول بولس تترامى اطرافها حتى دمشق شمالا ويؤيد ذلك ان حاكماً بدمشق تحت امرة ارتاس [الحارث] سعى الى القبض على بولس (كورنثس الثاني ١١ : ٣٢) . ولا ريب في أن « ديار العرب » التي انطلق بولس اليها (غلاطية ١ : ١٧) انما هي بقعة صحراوية في ارض الانباط كذلك « العرب » في في اعمال الرسل (٢ : ١١) كانوا في الارجح انباطاً .

٦ . العرب في آداب اليونان والرومان

ولقد أحاط اليونان والرومان علماً باحوال الجزيرة والعرب لان هذه البلاد على طريقهم الى الهند والصين وكانت تنتج السلع المرغوبة جداً في اسواق الغرب . وكان سكانها كأقاربهم القدماء من ابناء الشمال اي الفينيقيين هم الوسطاء او العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم . فكانوا يقومون بتمثيل « ضباط الارتباط » في ميادين التجارة العالمية .

ويقسم كتاب اليونان والرومان جزيرة العرب الى اقسام ثلاثة ـ العربية السعيدة ، والعربية الصخرية (منطقة البتراء) والعربية الصحراوية ـ وهو تقسيم يتفق مع وحداتها السياسية في القرن الاول للميلاد . فالقسم الاول كان مستقلاً وكان الثاني تابعاً لرومه وكان الأخير يسيطر عليه الفرثيون بالاسم .

كانت بادية الشام « السماوة والحماد ، عند اوائل كتاب العرب ، والبادية عندسواهم » ضمن نطاق العربية الصحراوية . اما العربية الصخرية فكان مركزها سيناء وبلاد

الانباط وكانت عاصمتها البتراء . واشتملت العربية السعيدة على بقية انحاء الجزيرة الا ان الالمام باحوالها الداخلية كان زهيداً جداً ، فأخطأ كتاب العصور الوسطى اذ توهموا ان العربية السعيدة هي اليمن فحسب . ويلوح ان كلمة « سعيدة » هي محاولة لتفسير كلمة « اليمن » العربية اعتقاداً ان مصدرها هو اليمن والصواب أن دلالتها اليد اليمنى فلقد سميت هذه البلاد يمناً لوقوعها الى يمين الناظر الى جنوب الحجاز حيث تكون البلاد السورية – الشام – الى شماله .

واول من ذكر العرب في آداب اليونان هو اسكلس [١] (٥٢٥ – ٤٥٦ق.م) الذي أشار الى ضابط عربي شريف في جيش احشويروش . ثم تلاه هيرودتس [٢] (نحو ٤٨٤ – ٢٥ ق. م) فاشار الى العرب في جيش احشويروش ويلوح لنا انهم من سكان مصر الشرقية وقد ادلى بحقائق يسيرة عن ملابسهم واسلحتهم .

وأجمعت كلمة المصنفين اليونان والرومان من ارتُستنيس اليوناني (المتوفى نحو ١٩٦ ق.م) (واليه استند سترابو) الى بلينيوس الروماني (المتوفى ٧٩ م) ان بلاد العرب بلاد ثروة ورخاء عجيبين . وانها موطن اللبان والطيوب الاخرى وان اهلها يحبون الحرية ويتمتعون بها كل التمتع . والحق ان هذه المزية الاخيرة هي التي لفتت انظار الكتاب الغربيين . فالاستقلال الذي تميز به خلق الشعب العربي اصبح مضرب المثل وموضع المدح والاعجاب عند المؤلفين الاوربيين من ابعد العصور حتى ايام المؤرخ الانكليزي غِبن [٣] .

وعرف العرب هذه المزايا العالية التي نفحتهم بها بيئتهم الطبيعية . يدلنا على ذلك هذا الحوار الذي زعموا انه جرى بين النعمان ابن المنذر (المتوفى ٦٠٢ أو ٦٠٧م) وكسرى ملك الفرس ، وقد حضرته وفود الروم والهند والصين . وكان النعمان

---

١) *Persians* , I . 320

٢) Bk. VII, § 69

٣) Edward Gibbon , *The Decline and Fall of the Roman Empire* , . ed J B . Bury (London , 1898) vol. V, p. 319

وهو موفد من قبل العرب قد اوتي طلاقة اللسان ورباطة الجأش فأخذ يطنب بسمو الشمائل التي فاق بها العرب جميع الامم قال :

لم يطمع فيهم [في العرب] طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الارض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور.[١]

واثبت ديدورس الصقلي[٢] (وقد ازدهر في النصف الأخير من القرن الأول للميلاد) ان العرب يقدرون ما لهم من حريـة ويتباهون بذلك . وروى سترابو (المتوفى سنة ٢٤ م) في جغرافيته[٣] عن مرجع يوناني قبله ان العرب هم الامة الوحيدة التي لم تبعث سفراءها الى الاسكندر الكبير الذي كان قد صمم « ان يجعل بلاد العرب مركز امبراطوريته ».[٤]

الحملة الرومانية

ساد الرومان العالم ولكنهم لم يسودوا العرب . فحملتهم الشهيرة التي جردوها من مصر عام ٢٤ق.م. يرأسها والي مصر ايليوس غالوس باءت بالفشل . وقد تألفت هذه الحملة من جيش قوامه ١٠،٠٠٠ مقاتل يناصرهم احلافهم الأنباط وذلك في ملك اوغسطس قيصر . وكان غرضهم الاستيلاء على طرق النقل التي احتكرها عرب الجنوب واستغلال مرافق اليمن ومواردها لمصلحة رومه . ولقد اقلعت هذه الحملة من السويس تؤازرها قوات الاسطول البحري وكان دليلها قائد من الأنباط . وبعد ان مضت شهور على توغلها في الجنوب صادفت من العقبات ما اضطرها الى النكوص بعد ان فتكت بها الطوارىء فتكاً ذريعاً فانقلبت الى نجرانا (نجران) التي كانت قد احتلتها قبلاً ثم اتجهت الى البحر الاحمر فعبرته الى الساحل المصري واستغرقت

---

١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة ، ١٣٠٢) الجزء الاول ص ١٢٥

٢) *Bibliotheca historica*, Bk. II, ch. I, § 5.

٣) *Geography*, Bk. XVI, ch. I § II.

٤) Bk. XVI, ch. 4, § 27

مدة العودة ستين يوماً . وكانت « مريابا » [١] ابعد المراكز التي وصلتها في الجزيرة والراجح انها غير مأرب قاعدة سبأ في الجنوب الشرقي بل هي مرياما التي في الجنوب الشرقي . ويقول الجغرافي اليوناني سترابو [٢] ـ مؤرخ تلك الحملة وصديق قائدها ايليوس غالوس ـ ان المصاعب والاخطار التي جابهتها هذه الحملة انما تعزى الى خيانة الدليل « سيلاّوس سفير الأنباط وممثل ملكهم ابوداس [عبيدة] » . وهذا هو المصير الذي آلت اليه اول بل آخر غارة ذات بال قصدت بها دولة اوربية اكتساح داخل الجزيرة .

بلاد الطيوب

كان هيرودتس [٣] يرى ان « بلاد العرب كلها كانت تفوح بالعطر والطيوب » لأنها كما قال « البلاد الوحيدة التي تنتج المر واللبان والاقاصيا والقرفة واللاذن ... وتصون الاشجار التي تحمل اللبان حيات مجنحة وهي صغيرة الحجم متنوعة الالوان تتدلى باعداد لا حصر لها من كل شجرة . » [٤] وكانوا يحتالون لطرد هذه الحيات بتدر من بلسم الاصطرك (لبنى اوصمغ) يشعله الذي يريد اجتناء اللبان فيصعد من دخانه ما يفرق شملها . اما الجغرافي سترابو فكان احكم قليلاً من هيرودتس « ابي التاريخ » السريع التصديق لما يروى له فانه بعد ان دعا جنوبي الجزيرة « بلاد الطيوب » [٥] قال :

« وبلاد « السبأي » بلاد مزدحمة السكان ... وهي اخصب تلك الاراضي على الاطلاق ثمارها المر واللبان والقرفة ... وفيها حيات ذات لون احمر فاقع تبلغ الشبر طولا وبوسعها القفز الى علو خصر الآدمي ولا ينجع في لسعتها علاج » [٦]

١) كذا جاءت في الطبعات الاولى من كتاب بلينيوس (Pliny) اما في كتاب سترابو فانها مرسيابا
٢) Bk. XVI ch 4, § 23
٣) Bk. III, ch. 113.
٤) Bk. III, ch. 107.
٥) Bk. XVI, ch. 4, § 25.
٦) Bk. XVI, ch. 4, § 19.

واعاد ديدورس الصقلي [١] ذلك الوصف فقال ان الجزيرة أرض تثمر الطيوب بحيث كانت تربتها نفسها تعبق بالاريج . اما بلينيوس الذي لخص في الجزء السادس من تاريخه الطبيعي ما بلغه المام الرومان حتى سنة ٧٠ م باحوال البلدان الشرقية فقد اكد هذه الميزة [٢] واضاف في مناسبة اخرى ان «السبأي» هم « اشهر قبائل الجزيرة لغناهم باللبان » [٣] . ومن الواضح ان حضرموت كانت في ذلك الزمن تتصدر بلاد اللبان قاطبة . والظاهر ان اليونان والرومان حسبوا أن جميع البضائع التي تاجر بها العرب كانت من حاصلات بلادهم . فقد كان حرص التجار على الاحتفاظ باسرار حرفتهم ومواردهم من الحبشة والهند عظيماً . وكذلك كان الاحتكار عندهم مضبوطاً دقيقاً .

وكان لهؤلاء الكتاب من اليونان والرومان اعجاب عظيم بما ناله عرب الجنوب من ثروة ورخاء فقد ذكر سترابو [٤] مدناً عامرة « تزينها الهياكل الجميلة والقصور » قال [٥] :

ولقد اصبحت « السبأي » و « الجرهاي » [٦] بما لها من نصيب في تجارة (الطيوب) اغنى القبائل عامة فعندهما مستحدثات الأدوات المصوغة من الذهب والفضة ، منها الأسرّة ومثلثات القوائم والاحواض واوعية الشرب وناهيك بمنازلهم الفخمة ، وقد تزوقت ابوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة .

وروى بلينيوس [٧] عن ايليوس غالوس ما يؤيد ذلك فقال :

فاقت « السبأي » الجميع ثروة بما يتوفر في ارضها من أدغال ذات عطور

---

١) Bk. II, ch. 49, §§ 2-3.

٢) Bk. XII ch. 30.

٣) Bk. VI, ch. 32.

٤) Bk. XVI, ch. 4, § 3.

٥) Bk. XVI, ch. 4, § 19.

٦) وهي في العربية الجرعاء على خليج العجم .

٧) Bk VI, ch. 32.

ومناجم ذهب وامواه للري وهي تنتج العسل والشمع بكثرة . . . فلو تحريت هذه الاقطار تماماً علمت انها اغنى بلدان الارض قاطبة بما يتوارد اليها من كنوز دولة الرومان ودولة الفرثيين .

الذهب

ولئن كان اللبان والطيوب افخر الحاصلات التي اشتهرت بها البلاد فثروتها المعدنية لم تقل عن تلك قيمة واخص معادنها الذهب ، وكانت مناجمه على ساحل الجزيرة الغربي بين مديان واليمن وفي أواسط الجزيرة ايضاً . اما ذهب اوفير الذي أشارت اليه التوراة ووصفه كتاب اليونان والرومان فقالوا انه « لم تمسه النار » فيظن الآن انه عربي الاصل . وقد بسط ديدورس [1] ان الجزيرة غنية بمناجم الذهب الذي بلغت نقاوته حداً لم تعد معه حاجة الى تصفيته بواسطة الصهر . وافرد جغرافيا العرب اللامعان ـ المقدسي [2] والهمداني [3] (القرن العاشر للميلاد) ـ فقرة كاملة في كل من كتابيهما اتيا فيها على وصف معادن الجزيرة وتقرير ما فيها من الذهب .

وفوق ذلك نجد في كتب اليونان والرومان نتفاً اخرى تحوي حقائق هامة عن العرب . منها ما ذكره سترابو [4] من ان تعدد الازواج كان مألوفاً في الجنوب حيث كثر اقتران امرأة واحدة بعدد من الاخوة وتفشت آفة الفسق بالاهل الاقربين وروعيت شريعة البكورة التي تحتم ان يتسلم البكر مقاليد الزعامة . وروى عنهم ايضاً ان معظم نبيذهم من التمر وانهم يعتاضون بزيت السمسم (السيرج) عن زيت الزيتون [5] . وايد بلينيوس [6] هذين القولين الاخيرين في صدد النبيذ والسيرج على رواية ايليوس غالوس ايضاً . اما ديدورس فانه انما قصد البدو لا

١) Bk. II, ch. 50, § 1.
٢) المقدسي ، احسن التقاسيم نشر دي غويه ، (ليدن ، ١٨٧٧) ص ١٠١ـ١٠٢ .
٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب نشر ملر (ليدن ، ١٨٨٤) ص ١٥٣ـ١٥٤ .
٤) Bk. XVI, ch. 4, § 25.
٥) Bk. XVI, ch. 4, § 26; Pliny, Bk. VI, ch. 32.
٦) Bk. VI, ch. 32.

سواهم من العرب اذ قال ان شريعتهم تقضي بالاقلاع عن الحراثة والزراعة وهجران البيوت وعياف النبيذ [١] . واورد بلينيوس ان « العرب يلبسون القلنسوة ويرخي بعضهم شعور رؤوسهم فيغنيهم طولها عن لباس الرأس ويحلقون اللحية تاركين الشاربين » [٢] .

ورسم بطليموس خريطة اودعها كتابه المعروف في الجغرافية ، الذي صنفه بين ١٥٠ و ١٦٠ م. ، وقد ظهرت فيها اقطار العالم المتمدن وبقيت هذه الخريطة طيلة القرون التالية عماداً يتوخاه الاوربيون والاسيويون في مسائل الجغرافية ، ولقد استقى موادها بطليموس مما رواه التجار واهل الاسفار في ذلك العصر فوعت مشاهداتهم وتأثراتهم . وخريطة بلاد العرب هذه هي اول مصور مبني على امثال هذه المعلومات .

١) Bk. IX, ch. 94.
٢) Bk. VI, ch. 32.

الفصل الخامس

الدولة السبئية وغيرها من بلاد العرب الجنوبية

عرب الجنوب وتجارتهم

كان السبئيون اقدم الاقوام العربية التي تخطت عتبة المدنية . وقد ذكروا في النقوش الاسفينية المتأخرة ووردت اول اشارة اليهم في الآداب اليونانية في كتاب ثيوفرستس [١] (المتوفى ٢٨٨ م) اما موطنهم القديم فناحية الجنوب الغربية من الجزيرة .

ويعزى رقي تلك الربوع « السعيدة » الى عوامل عديدة منها نصيبها الوافر من الامطار وقربها من البحر ومركزها الجغرافي الخطير على خط الاتصال بالهند . وكان من حاصلاتها الطيوب والمر وسواهما من طرائف العطور والأفاويه التي تستعمل توابل للطعام او تحرق في حفلات البلاط والمراسيم الدينية واجدرها بالذكر البخور وهو اثمن البضائع التي تداولتها التجارة القديمة . والى هذه البلاد ترد الحاصلات الغالية المرغوبة فكان يرد اللؤلؤ من خليج العجم والافحاء والانسجة والسيوف من الهند والحرير من الصين والارقاء والقرود والعاج وريش النعام والذهب من الحبشة ، وكانت جميعها تجد طريقها الى اسواق بلاد الغرب . ولقد ترك لنا مؤلف كتاب الطواف حول الاريثري [٢] (٥٠ ــ ٦٠ م) وصفاً مجملاً لسوق « موزا » وهي « مخا » اليوم قال فيه :

---

١) Theophrastus, *Historia Plantarum* Bk. IX, ch. 4, § 2.

٢) *The Periplus of the Erythraean Sea*, Tr. W. H. Schoff (New York, 1912) § 24

« كان يردها من البضائع انواع الاقمشة الارجوانية ، ناعمها وخشنها ؛ والبسة خيطت على الزي العربي ، ذات اردان قد تكون بسيطة او عادية او مطرزة او موشاة بالذهب ؛ والزعفران وقصب الذريرة وأنسجة القطن الشفافة والاعبئة والأحرمة ـ وهي ليست كثيرة ـ بعضها بسيط وبعضها مصنوع على الطريقة البلدية ، ومناطق ذات الوان عديدة ، ودهون عطرية بكميات معتدلة والخمر وقليل من الحنطة ، لان البلاد لا تنتج من الحنطة الا اليسير على انها تفيض خمراً . . . وتصدر البلاد حاصلات ارضها : فاخر المر والصمغ المعيني [1] والرخام اللين [المرمر] وسائر ما اسلفنا القول فيه وذلك من عوباليت [2] واقصى الساحل » .

لقد كان أهل سبأ فينيقي البحر الجنوبي . فقد عرفوا طرقه وتعرجات سواحله وموانيه وامتلكوا رياحه الموسمية الغدارة ـ السموم ـ فاحتكروا بذلك تجارته خلال القرون الثلاثة عشر الاخيرة قبل الميلاد ، اما الطواف حول الجزيرة الذي حسبه نيركس ، احد قواد الاسكندر ، مستطاعاً نظرياً فقد اصبح عندهم امراً واقعاً . وكانت بلاد اللبان في نظر ربابنة اليونان والرومان بلاداً « جبلية ممقوتة » [3] و «الملاحة» كما جاء في كتاب الطواف [4] « خطرة في انحاء ساحل الجزيرة فلا تجد فيها موانيء ، والمراسي عسرة المسلك صعبة المنال يحول دون الدنو منها الامواج المتكسرة والصخور ـ وهي مزعجة من كل ناحية » .

وقد اتجه خط التجارة الرئيسي في البحر الاحمر من باب المندب الى وادي الحمامات على ساحل مصر الوسطى . واضطرت سبأ لما يلازم الملاحة في انحاء هذا البحر الشمالية من آفات الى افتتاح خطوط برية بين اليمن والشام تحاذي ساحل الجزيرة الغربي وتودي الى مكة والبتراء ومنها تتشعب الى مصر والشام وما بين النهرين .

---

١) تفرزه الاشجار البرية .

٢) قابل عوبال في تك ١٠ : ٢٨ و « ابلو » في النقوش الاشورية وهم شعب ارامي سكنوا ارض بابل ايام تغلث بلاصر الثالث . وهي الأبلة عينها التي ذكرها الهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٤٧ و ١٦٩ .

٣) *Erythraean Sea* § 29.

٤) *Erythraean Sea* § 20.

اما الفرع الشامي فكان ينتهي على المتوسط عند غزة ، ومن حضرموت ، اغنى الاقطار باللبان ، كانت تمتد طريق تسلكها القوافل حتى مأرب عاصمة سبأ حيث تتصل بشريان التجارة الهام . وقد نمت لسبأ عدة مستعمرات على طول هذا الخط بين الجنوب والشمال . ولعل ابناء سبأ الذين ذكرت اسماؤهم في المدونات الاشورية والعبرانية قد تحدروا من هؤلاء المستعمرين . ولقد خلد لنا سفر التكوين (٣٧:٢٥) صورة مصغرة جلية لقافلة « من الاسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة نكعة وبلساناً ولاذنا » . [١]

النقوش العربية القديمة

وكانت الانتصارات التي احرزها عرب الجنوب تجارية اقتصادية شأنهم في ذلك شأن الفينيقيين . ولم تكن الممالك التي شيدوها دولا حربيه . واما ملخص تاريخهم فيمكن معرفة الخطوط الرئيسية فيه من المراجع التي اسلفنا ذكرها في كتابات الساميين القديمة واليونان والرومان ومن الاخبار المروية في الآداب الاسلامية الاولى ، وهذه الاخبار تكاد تشبه الاساطير ، واهمها ما رواه وهب ابن منبه (المتوفى في صنعاء نحو ٧٢٨ م) والهمداني [٢] (المتوفى ٩٤٥م) ونشوان ابن سعيد الحميري [٣] (المتوفى ١١٧٧م) وفوق هذا كله ما نستقيه من المصادر المحلية التي اصبحت قريبة المأخذ بفضل الكشوف التي تمت على يد هاليفي وغلازر في الشطر الثاني من القرن الاخير . وجميع الآداب العربية الجنوبية التي اتصلت بنا هي ابيغرافية اي رقم او نقوش نقشت على الواح معدنية او حجرية . واذا كانوا قد اعتمدوا فضلاً

---

١) راجع المزامير ٧٢ : ١٠ ، ١٥ ؛ اشعياء ٦٠ : ٦ ؛ ارمياء ٦ : ٢٠ ؛ ملوك الاول ١٠ : ١٠ سفر الاخبار الثاني ٩ : ١ .

٢) انظر D. H. Müller, *Die Burgen und Schlosser Südarabiens nach dem Iklil des Hamdâni*, 2 pts. (Vienna, 1879-81) ؛ والمجلد الثامن نشره الدكتور نبيه فارس (برنستون ، ١٩٤٠)

٣) القصيدة الحميرية و « شمس العلوم » تحرير احمد عظيم الدين (ليدن ، ١٩١٦)

عن ذلك مواد اخرى يكتبون عليها مما هو سريع العطب كالبردي والرقوق فسجلوا عليها المعاملات التجارية والحوادث التاريخية والآثار الادبية الصرفة فانها قد اندثرت ولم تصل الينا . واقدم ما عثر عليه من الرقم يرجع عهده الى القرن السادس او السابع قبل الميلاد . ويمكن تنسيق رقم سبأ كما يلي : اولا الرقم النذرية وهي محفورة على الواح برونزية اقيمت في الهياكل وقدست للآلهة المقه[1] وعثتر وشمس. ثانياً الرقم الظاهرة على جدران الهياكل وغيرها من الابنية العمومية تخليداً لذكرى بانيها او لمن تعهد نفقة البناء . ثالثاً الرقم التاريخية وتنبىء عن اخبار معركة او تعلن ظفراً على الاعداء . رابعاً قوانين الشرطة وهي منقوشة على اعمدة منصوبة في مداخل الهياكل وما يحاكيها من الاندية العمومية ، وفيها انذار للشعب ان يمتنعوا عن منكرات معينة والا فينزل بهم العقاب . خامساً رقم قبرية واليك ترجمة بعض النصوص الجنوبية ننقلها عن الاصل على سبيل المثال :

٧. ... المقه رب شبعان [ليحفظ عبيد] ه

٨. آجور[2] ووذ وثشب [؟] ابناء عثز

٩. من الشر ... ومن الخطر ومن المرض

١٠. ومن الأذى وليبيد و [ليضرب اعداءهم ؟][3]

١. تبعكر [رب قدس لالمقه حران ته]

٢. تالا من الذهب اقامه هنا ، اقراراً بفضله لانه اعان] و ذ

٣. صر سيدهم الشرح يحضب ابن فر ينهب

٤. ملك سبا بكسره وغلبته واخضاعه [ا... حتى

٥. انهم التمسوا السلم [وقدموا الاعذار] وقدموا هدية ...[4]

---

١) المقه إله سبا القومي الذي كانت له الصدارة في نظام الآلهة ولقد اختلف علماء العربية الجنوبية في قراءة اسمه على وجوه عديدة .

٢) قابل سفر الامثال ٣٠ : ١ .

٣) عثر على هذه الوثيقة هاليفي في البيضاء .

٤) من رسالة كتبها مرغوليوث عن نقشين عربيين.

١. سعد وابنه اسلم ابناء
٢. جزيز بسيل ، هم الذين قدسوا جميع
٣. . . . وكرسوه وقفاً لعثد
٤. ر ريت واعتنوا بآله
٥. آل عبد . . . [١]

وهنالك بضع وثائق شرعية هامة تنم عن تطور ورقي في الحياة الدستورية ، فشريعة حمورابي وشريعة موسى نزلتا من فوق وليست شرائع الحثيين الا مراسيم اصدرها ملوك مسيطرون . اما شرائع عرب الجنوب فتمتاز بصفات النضوج الشرعي والبلوغ السياسي وتدل على نظام دولة تلوح من خلاله اوضاع الحكم النيابي وربما لم يكن في آثار القدم السحيقة ما يدانيها رقياً .

ولم تفطن اوربا لامر الرقم العربية الجنوبية حتى اطلعها عليها كارستن نيبوهر (١٧٧٢) . وعاد اليها يوسف هاليفي ، وهو اول اوربي بعد عهد ايليوس غالوس (٢٤ ق. م) زار نجران في اليمن (١٨٦٩ - ١٨٧٠) ، حاملاً نسخ ٦٨٥ رقماً جمعها من سبعة وثلاثين موضعاً . وقام ادوارد غلازر بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤ الى اليمن باربع بعثات علميه اسفرت عن الحصول على نحو الفي نقش بعضها لم ينشر بعد . ولدينا اليوم ما يقارب ثلاثة آلاف من الرقم تروي اخباراً يرجع عهدها الى سنة ٨٠٠ ق. م . واستنسخ العالم الافرنسي ارنود وهو الذي كشف عن اخربة مأرب نحو ستين رقماً بعد ان عرض نفسه للخطر وذلك في سنة ١٨٤٣ وكان الضابط البحري البريطاني جمس ولستد قد نشر سنة ١٨٣٧ قسماً من رقيم نقب الحجر فاطلع اوربا بذلك للمرة الثانية على كتابة الجنوب العربية . اما حل رمز هذه الكتابة فلقد تم على يد العالمين اميل روديغر في هاله بالمانيا (١٨٣٧) وغسينيس (١٨٤١) .

وابجدية لغة الجنوب العربية او لغة معين وسبأ (وسميت ايضاً الحميرية واحياناً

---

١) نقش معيني وجده يوتينغ في العلا .

المعينية) تسعة وعشرون حرفاً . والراجح أن شكل حروفها قد تفرع قديماً من الفباء سيناء التي هي حلقة الاتصال بين الابجدية الفينيقية وسابقتها المصرية . وهذه الحروف المتسقة المستقيمة الخطوط (وتسمى بالخط المسند في اللغة العربية) تدل على انها نتيجة لتطور طويل مرت به [١] . وابجدية لغة الجنوب تحاكي الابجديات السامية الاخرى من حيث انها تتألف من الحروف الصامتة فحسب . وللغة الجنوب في بناء الاسماء وتصاريف الافعال والضمائر والمفردات صلة مع اللغة الأكدية (البابلية القديمة) والاثيوبية (الحبشية) ، ولا ترتبط في هذه الامور بلغة الشمال العربية ـ لغة القرآن . الا انها تتميز بالجموع المكسرة شأن لغة الضاد . وللغة الأكدية ولغة الجنوب العربية واللغة الاثيوبية (الحبشية) خصائص تجعلها اقدم اللغات السامية . وقد تداعت ثقافة اليمن قديماً فماتت لغة الجنوب ، واحتلت لغة الشمال مقامها . وساعد على هذا الانقلاب الاسواق الأدبية التي كان الشمال قد ألفها كسوق عكاظ ومواسم الحج السنوي التي كان عرب الجاهلية يقصدون الكعبة فيها والعلاقات التجارية التي انشأتها مكة مع غيرها من البلدان . فلما جاء الاسلام كانت لغة الشمال قد تبوأت مقام اختها الجنوبية في اكثر انحاء الجزيرة . ولهذه اللغة الجنوبية ذرية باقية في لهجتي مهرة وسقطرة ولكن ليس لهاتين قيمة ادبية تذكر .

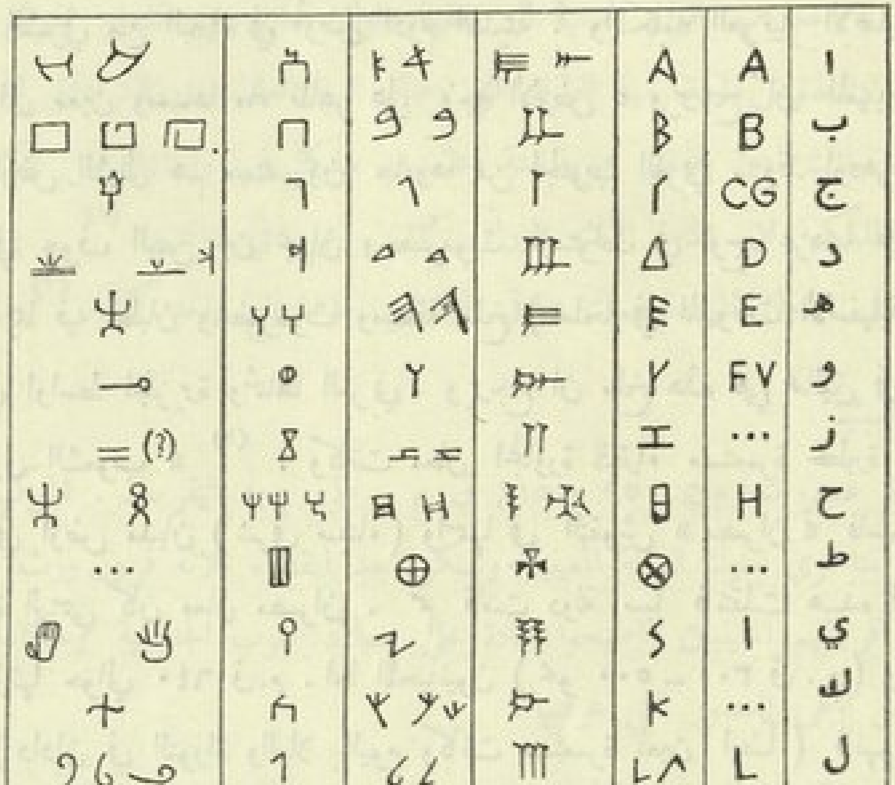
١ . الدولة المعينية

إن اول دولة نستطيع ان نتبينها من خلال الظلمات المخيمة على غابر الجنوب القديم هي الدولة المعينية التي ازدهرت على رأي بعض علماء الدراسات العربية من حوالي ١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق.م [٢] ، وعينوا لها تاريخاً اسبق مما يعينه لها سواهم . ولفظة « معيني » وردت في آداب اليونان والرومان . اما كتبة التوراة فيدعونها ماعُون او معون او معين ـ على اعتبار انها اسم لمكان . وهي ليست معن التي

١) تجد نماذج من النقوش العربية الجنوبية في *Corpus inscriptionum Semiticarum*, pars IV (Paris, 1889 ff).

٢) قابل Nielsen, *Handbuch*, vol. 1,pp. 67,74.

العربية | اللاتينية | اليونانية المتأخرة | راس شمرا | الفينيقية | العربية الجنوبية | السينائية



جدول بعض الابجديات

ذكرتها الكتابات الأشورية البابلية حسبما اسلفنا ، ولكن تمثلها معان الحديثة الى الجنوب الشرقي من البتراء في أرض ادوم القديمة . والكلمة العربية الاصلية معان حرفت الى معين ومعناها ماء ظاهر على وجه الارض ، ويرجح ان المعينيين الذين احتلوا ارض الشمال هم مستعمرون جاءوها من الجنوب الغربي . وقد ازدهرت الدولة المعينية في جوف اليمن بين نجران وحضرموت فاستولت في اوج عزها على معظم الجنوب بما فيه قطبان وحضرموت ومنطقة ملخ (ملخا في المدونات الاسفينية) وهي واقعة في اواسط الجزيرة وشمالها الغربي . ويرجح ان ملخ هذه هي عماليق في التوراة ـ « اول الشعوب » [١] . وكانت معان المجاورة للبتراء مستعمرة خطيرة ومركزاً تجارياً في ارض مديان (شرقي سيناء) واسمها في النقوش « مصران » فاسم هذه المستعمرة الرسمي كان معان مصران . ثم قامت دولة سبأ فانتقلت هذه المستعمرة الى حوزتها حوالي ٦٤٠ ق.م . اما اللحيانيون (نحو ٥٠٠ ـ ٣٠٠ ق . م) وعاصمتهم ديدان (دادان في التوراة والعلا اليوم وكانت مستعمرة لمعين ايضاً) فانهم استولوا على مصران حوالي ٥٠٠ ق.م . ثم تلاهم الأنباط فحكموا هذه المستعمرة المعينية بارض الشمال . والواقع ان اسمها القديم خالد في « معان مصرية » ـ القسم الجنوبي من بلدة معان اليوم .

واذا استثنينا معان ، مركز السلطة المعينية في شمال الجزيرة الغربي ، فاننا نجد دويلات معينية سبئية قد ظهرت على ضفاف الفرات السفلى في القرن السابع قبل الميلاد كما اثبتت النقوش والختوم التي عثر عليها في تلك الناحية . اما العاصمة المعينية قرناو [٢] التي زارها هاليفي في ١٨٧٠ فتمثلها « معين » الحديثة (في جنوبي الجوف الى شمال صنعاء الشرقي) التي يخلد الاسم فيها . ولقد قامت اليوم ايضاً براقش موضع يثيل ، المركز الديني قديماً في جنوبي الجوف ، الى الشمال الغربي من مأرب . وهنالك بلدة اخرى هي نشان قامت على اطلالها اليوم بلدة السوداء .

---

١) العدد ٢٤ : ٢٠ . قابل Nielsen, *Handbuch* vol. i, p. 86, n. I.

٢) القرناء في لغة الشمال .

واللغة المعينية تشاكل لغة سبأ التي قامت بعدها فلا تختلف اللغتان الا في امور لهجية . ويرجع عهد الرقم المعينية الى حقبة ملوك معان وهي تشمل نقوش قطبان الملكية والنصوص الحضرمية القليلة التي وصل اليها العلماء . ولقد دقق العالم مولر في اسماء ملوك معين فحقق هوية ستة وعشرين ملكاً فيها واستدل من تكرار بعض الاسماء الملكية ان نظام الملك الوراثي كان يراعى في دولتهم [١] . ومن اشهر الاعلام في جدول ملوكهم : صدقي الو وابي يدعا يثع ومعد كربا [٢] .

الدولة السبئية

يمتد عصر سبأ بين ٩٥٠ و ١١٥ ق. م . على وجه التقريب . فملوكهم الأول عاصروا متأخري ملوك الدولة المعينية . ولكن بعد انقضاء ثلاثة قرون ورث السبئيون مملكة اقربائهم المعينيين واصبحوا سادة على بلاد العرب الجنوبية وحكاماً لها في عصر من ازهى العصور التي عرفتها .

انتهى العصر السبئي الاول نحو ٦٥٠ ق. م . فكان لقب القائم على امور الدولة آنئذ « مكرب [٣] سبأ » وكان يقوم بوظيفة ملك وكاهن معاً . ونجد في النصوص المحفوظة ذكراً لما يقارب السبعة عشر ملكاً يحملون هذا اللقب . واقدم ابنية سبأ قصر صرواح ويدعى اليوم خربة وهو على مسيرة يوم الى الغرب من مأرب وكان معقلهم الأول . والى هذه الحقبة يعود امر شمس (او شمسية) ويثعي امرا السبئيين اللذين تقاضى سرجون الثاني جزية منهما .

سد مأرب

وتقع مأرب على علو ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ولم يزرها حتى اليوم الا ثلاثة من الاوربيين : ارنود وهاليفي وغلازر . وكانت ملتقى الخطوط التجارية التي

١) Müller, *Die Burgen*, pt. 2, pp. 60 — 67.

٢) Nielsen, *Handbuch*, vol. 1, pp. 68 — 73.

٣) لفظة « م ك ر ب » لم تضبط حركتها وكانت تطلق على من يجمع بين الكهانة والملك .

وصلت بلدان اللبان بمرافىء البحر المتوسط واخصها غزة . ولقد أشار الهمداني في « الاكليل » (١) الى ثلاث قلاع بمأرب ولكن البناء الذي اكسب المدينة شهرتها هو سدها العظيم ـ سد مأرب (٢) فقد كان من عجائب الفن الهندسي وكان فيه كما في غيره من مباني سبأ العامة من الرقي الهندسي ما ينم عن مجتمع محب للسلام عريق في الحضارة لا في الامور التجارية فحسب ، بل في الاعمال الفنية الرائعة ايضاً . وشيدت اقسام السد القديمة في اواخر العصر السبئي الاول . ولقد أبانت النقوش ان المقام الاول بين بناة السد ناله يثعي امرا باين وابوه . على ان الهمداني ومن جاء بعده من مؤرخي العرب امثال المسعودي (٣) والاصفهاني (٤) وياقوت (٥) يحسبون ان بانيه هو رجل اسمه لقمان بن عاد ، والواقع ان لقمان هو من رجال الاساطير.

ويظهر في العصر الثاني لدولة سبأ (نحو ٦٥٠ ـ ١١٥ ق.م) ان الحاكم قد تجرد من صفته الكهنوتية فاطلق القوم عليه لقب « ملك سبأ » وكانت عاصمته مأرب (مريابا في الآداب اليونانية والرومانية) وهي على بعد مئة كيلو متر (نحو ستين ميلاً) الى الشرق من صنعاء . وقد توهم ياقوت وتابعه كثيرون ان سبأ هي مأرب على ان الصحيح غير ذلك فسبأ اسم البلاد والأمة ولم تك بلدة ابداً .

وكان لقطبان في بعض ادوار هذه الحقبة ملوك يديرون دفة أحكامها وعاصمتهم تمنع . ولحضرموت ملوك آخرون في عاصمتهم شبوة (سبوتا في آداب اليونان والرومان) . ولكن سبأ نالت المقام الأول بين من عاصرها من فروع الدوحة الجنوبية . وكانت هذه الحقبة (٦٥٠ ـ ١١٥ ق.م) امجد عصر في تاريخها.

٣ . الدولة الحميرية الأولى

ومضت سنة ١١٥ ق.م . فاذا بملك الجنوب تظهره النقوش حاملاً لقباً جديداً :

---

١) نشر الكرملي (بغداد ، ١٩٣١) ص ٥٥ .
٢) راجع وصف اتقانه في كتاب نزيه العظم الجزء ٢ ص ٥٠ وما يلي .
٣) المسعودي ، مروج الذهب نشر دي مينار وترجمته (باريس ، ١٨٦٤) المجلد الثالث ص ٣٦٦ .
٤) الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء نشر غوطولت (ليبزغ ، ١٨٤٤) ص ١٢٦ .
٥) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٣ .

« ملك سبأ وذو ريدان » . وريدان هي التي عرفت فيما بعد باسم « ظفار » (١) وهي منطقة الساحل البحري وهنا بدأت دولة حمير الاولى التي كتب لها البقاء حتى ٣٠٠ م . ولعل الحميريين كانوا في اول امرهم حكاماً في قطبان . واول اشارة الى الحميريين في الآداب اللاتينية هي في « كتاب الطواف حول البحر الاريثري » ثم تكررت في تصنيف بلينيوس . وحمير تمت بصلة شديدة الى سبأ . وهي أحدث فروع الدوحة الجنوبية عهداً ووريثة امجاد الحضارة المعينية السبئية . وليست لغة الحميريين الا لهجة من لغتي سبأ ومعين السابقتين . ويؤيد اقوال بلينيوس عن احوال الزراعة عندهم ما قررته الرقم من ذكر الآبار والسدود والاحواض . وكانت للعسل مناطق خاصة به يستثمر فيها وللذهب مناجم في عسير . اما مورد البلاد الرئيسي ففي اجتناء اللبان ولهم من ذلك صناعة واسعة كانت من قبيل الفرائض الدينية .

وكانت عاصمة الاسرة الحميرية ظفار (في آداب اليونان والرومان سيفار وسفار وفي تك ١٠ : ٣٠ سفار) وهي مدينة في الداخل على بعد مئة ميل الى الشمال الشرقي من مخا وعلى الطريق المؤدية الى صنعاء . وما لبثت ان احتلت مكان مأرب عاصمة سبأ وقرناو عاصمة معين في عظمتيها . ولا تزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة يرم الحاضرة . وكان ملكها في الوقت الذي وضع فيه كتاب الطواف يدعى كربا الوتر . واول من أشار الى آثار هذه البلدة الحميرية القديمة مستدلا من نقوش بعيدة العهد هو العالم نيبوهر الذي أم اليمن في ١٧٦٣ وكتب عنها في ١٧٧٢.

وحدث في هذه الحقبة الحميرية ما ذكرناه آنفاً من امر الحملة الرومانية المشؤومة التي رأسها ايليوس غالوس وطوح بها حتى مرياما . وليس الملك الاساروس الذي قال سترابو انه حاكم البلاد في ذاك الوقت الا ألسرحا يحضب المذكور في النقوش .

الاحباش واصلهم السامي

وفي هذه الحقبة جرت حادثة تاريخية اخرى ذات بال هي نزوح فئة من عرب

١) وهي غير ظفار المدينة البرية التي كانت هي العاصمة .

اليمن وحضرموت الى « ارض كوش» حيث استقر بهم المقام فوضعوا حجر الاساس لدولة حبشية ذات مدنية وعمران ما فتئت ان ادركت من الحضارة درجة لم يكن لزنوج البلاد الاصليين ان يبلغوها لولا اندماج العرب بهم . ومن المحتمل ان تفرق قبائل الجنوب حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد (وتعزوه الاخبار والتقاليد الى انفجار سد مأرب العظيم) الذي اسفر عن هجرة بعض القبائل الى الشام والعراق قد ادى الى نشاط حركة الانتقال الى الحبشة ايضاً وازدياد الجالية العربية فيها . وكانت قد تقاطرت جموع العرب الى ساحل افريقية الشرقية قبل الفتح الاسلامي بزمن بعيد حيث اختلط دمهم بدم السكان الاصليين . ولدولة اكسوم - وهي نواة نمت منها دولة الحبشة فيما بعد - اصول تعود الى القرن الاول للميلاد .

والحبشة هي البلاد الافريقية الوحيدة ما خلا مصر التي تنعم بتاريخ معروف ولقد مرت على الأمة الحبشية اجيال متعاقبة اعتصمت فيها باستقلال سياسي نادر المثال . وفي التقاليد التي تناقلها المولدون عندهم ان عاهلهم الذي كان يلقب قبل التدخل الايطالي الأخير - باسد يهوذا الفاتح - هو من سلالة سليمان الحكيم وملكة سبأ . الا ان الحقائق الراهنة لا توصلنا في تاريخهم الى ما قبل القرن الأول الميلادي وليس لدينا ما يؤبه له من الأخبار الصريحة لهذه الأمة قبل اعتناقها النصرانية على يد القديس فرمنتيوس [١] السوري حوالي منتصف القرن الرابع للميلاد .

قصر غمدان

ويعزى الى ملك آخر من ملوكهم يسمى الشرحا (وهو ليشرح بن يحصب في ياقوت [٢] وقد تولى الحكم في القرن الأول للميلاد انه بنى افخم قصور اليمن

---

١) وفي اخبار الحبشة ان تاجراً سورياً عرج برفقة اثنين من اقربائه هما فرمنتيوس واخوه على احد ثغور البحر الاحمر حيث قتل التاجر وسيق الاخوان الى حضرة الملك . ويروى ان الملك استوزر فرمنتيوس ثم سامه بطريرك الاسكندرية اول اسقف على الحبشة Budge, *History of Ethiopia*, vol. 1, pp. 147 — 148.

٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٨١١ . وهو ابو شرح يحصب في اكليل الهمداني نشر الكرملي ص ٢٤ .

وقد دعيت اليمن « بلاد القصور » . وهذا القصر هو غمدان في صنعاء . وكان المتحضرون من حمير يبادرون بحكم الضرورة الى ابتناء القصور والمعاقل المنيعة اتقاء لغارات البدو . ولقد امتدح الهمداني [1] المتوفى بصنعاء سنة ٩٤٥ وياقوت بعده عظمة غمدان ووصفا اتقان بنيانه وصفاً دقيقاً برغم ان رسومه كانت قد عفت في عصرهما ولم يتخلف منه سوى حطام خرابه الضخم . فكان في هذه القلعة فيما رواه هذان الجغرافيان عشرون طبقة مسقوفة بعضها فوق بعض وبين كل سقفين عشرة اذرع ـ فهذه اذن اول ناطحات السحاب في التاريخ المدون . وكانت مبنية بالغرانيت والبرفيري والرخام . وجعل صاحب غمدان مجلسه في اعلى طبقة في القصر واطبق سقفها برخامة واحدة فكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة . وكان للقصر اربعة اوجه منها وجه مبني بحجارة بيض ووجه بحجارة سود ووجه بحجارة حمر . وكان في كل ركن من اركان القصر اسد من نحاس فكانت الريح اذا هبت تتردد في اجواف تلك الأسود فتزأر عند ذلك . وفي غمدان يقول الهمداني :

ومن السحاب معصب بعمامة ومن الرخام منطق ومؤزر

وبقي البناء حتى ظهور الاسلام ولعله هدم في اثناء العراك الذي نجم عنه استقرار السيادة الاسلامية في اليمن . ولقد تعهد موقعه الامام يحيى بعنايته فامر ان يقوم بحراسته رقيب يشرف عليه ولو ان اطلال القصر قد لعب بها العفاء . ويستدل من الحجارة العظيمة التي شيد بها الجامع الكبير الحديث بصنعاء وطريقة نحتها انها منقولة من بقايا تلك القلعة القديمة .

ويبدو الملك في هذه الحقبة الاولى من تاريخ حمير سيداً اقطاعياً يسكن قلعة حصينة مستبداً في حكم الارض يضرب النقود ذهباً وفضه ونحاساً وهي حاملة رسمه على احد وجهيها وصورة بومة على الوجه الآخر (البومة شعار لمدينة اثينة اليونانية)

---

١) الاكليل، نشر الكرملي ص ١٥ ـ ٢٨ .

او رأس ثور . ومن نقودهم القديمة طائفة تمثل رسماً لرأس الالهة اثينة ويستدل من هذا ان اهل الجنوب انما توخوا في سك النقود قواعد اثينية وذلك في ما يبلغ القرن الرابع قبل الميلاد قدماً . وفضلاً عن النقود فقد عثر المنقبون في اليمن على اشكال وتماثيل صغيرة من البرونز من صنع الهلنيين والساسانيين . الا ان الفن البلدي ليس عريقاً في القدم ولا نعرف زماناً او بلاداً عبّرت فيه العبقرية السامية عن نفسها في هذا السبيل الفني .

ولقد اوضحت الرقم ان نظام الاجتماع في بيئة سبأ وحمير كان يرتكز على أساس تمازجت فيه مزايا الحياة القبلية بطبيعة انقسام الامة الى طبقات مستقلة متباينة وبالارستقراطية الاقطاعية والحكومة الملكية فجاء شكلاً قائماً بذاته لبعض مظاهره مثيل اذا اعتبر كل مظهر منها على حدة ولكن مجموعها فريد فذ لا يحاكيه نظام آخر في تاريخ الامم .

تحول تجارة العرب البحرية الى الرومان

ولم تنقض الحقبة الاولى من تاريخ حمير حتى مال نجم دولة الجنوب الى الافول . فالرخاء الذي حالف اليمن كان وليد نجاحهم في احتكار مرافق التجارة في جهات البحر الاحمر . ثم بدأوا يتخاذلون في الاستئثار بها والسيطرة عليها . واننا لو تصفحنا « كتاب الطواف حول البحر الأريثري » (٥٠ - ٦٠ م) - وهو اول ما وصلنا من مدونات العلاقات التجارية المنظمة بين الشرق والغرب التي انشاها الغربيون وابتنوا لها السفن وقاموا على ادارتها - لرأينا بوادر جديدة تشعرنا بانقلاب عظيم في ميدان التجارة . وكان الاسكندر قبل ذلك يهدد كيان هذا الطريق البري العظيم الذي كان يجتاز ارض الهلال الخصيب ويربط ما بين اوروبا والهند فيسبب الاصطدامات المتوالية بين امبراطورية الفرثيين وامبراطورية الرومان . ولكن الخط البحري الجنوبي الذي ينتهي الى الهند ، ظل في ايدي العرب حتى القرن الاول للميلاد . وكان دأبهم ان يجمعوا حاصلات بلادهم وحاصلات افريقية الشرقية والهند

ثم يرسلوها على ظهور الابل شمالا من مأرب الى مكة فالشام ومصر اجتناباً لاهوال السفر في البحر الاحمر . اما اذا اضطروا الى نقل البضائع بحراً او رأوا انه اصلح فانهم كانوا اما يسلكون البحر الاحمر كله الى القناة حيث يتحولون ببضائعهم الى احد فروع النيل العليا الشرقية او يقلعون الى وادي الحمامات ثم يعبرون الصحراء المصرية الى طيبة او يقلعون في النيل الى ممفيس . وكان الخط البري الذي يخترق الحجاز قد انبثت على طوله المحطات الحميرية [١] وافادنا سترابو [٢] ان القوافل كانت تقطع المسافة بين « مينيا » و « ايلانا » (العقبة) في مدة سبعين يوماً . ثم ازداد ولع الاقوام الغربية بالمنسوجات الشرقية وتضاعفت رغبتهم في الاعطار والطيوب فتسارع عرب الجنوب الى رفع اثمان بضائعهم خصوصاً اللبان وزادوا المكوس والضرائب التي يتقاضونها عن البضائع الاجنبية التي تمر ببلادهم وازدادوا حرصاً في الوقت نفسه على تمكين قبضتهم على طرق التجارة ، ومن هنا كثرت ثروتهم واصبح غناهم مضرب الامثال . ولقد ساهم كل من البتراء وتدمر في هذا النظام التجاري الواسع وكانت كل منهما حلقة في سلسلة هذا الطريق التجاري وتمتعت بنصيبها من الثروة والرخاء . ولكن الموقف كله اخذ يتغير الآن .

ذلك انه عندما جلس البطالسة على اريكة مصر واعادوها الى مصاف الدول العظمى بدأت اول محاولة للنزاع مع عرب الجنوب وانتزاع السيادة البحرية منهم . فنشط بطليموس الثاني (٢٨٥ ـ ٤٦ ق. م) الى افتتاح القناة بين النيل والبحر الاحمر وكان سيزوسترس قد شقها قبله بنحو ثمانية عشرة قرناً . وجاءت اساطيل البطالسة التجارية الى البحر الذي يفصل مصر والجزيرة العربية فادى ذلك الى اندحار زعامة حمير التجارية ثم طلعت رومة فانتزعت مصر من البطالسة حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد وحذت حذوهم في مزاحمة العرب في البحر وبذلت جهدها لتحرير مصر من الاتكال التجاري على اليمن . ولقد كان الرعايا الرومان

١) راجع القرآن ، سبا ، ١٧ ـ ١٨ .
٢) Bk. XVI, ch 4, § 4.

منذ ايام بلينيوس يشكون مر الشكوى من فداحة الاسعار التي كان يفرضها تجار العرب ثمناً للسلع التي اضطرت رومة الى شرائها نقداً اذ لم يكن لديها الا القليل من السلع التي يرغب فيها العرب على سبيل المقايضة . قال بلينيوس :

كسبت بلاد العرب نعت « سعيدة » لانها فياضة بحاصلات يستعذبها اهل الترف ويباهون في اقتنائها جهازاً لموتاهم ، هكذا انصرف المترفون الى حرق هذه الحاصلات امام اجساد اعزائهم الراحلين الى دار الفناء بعد أن كان استعمالها قبلا ينحصر في مراسيم العبادة لآلهتهم [١] ... ولكن بحر العرب احرى بكنية السعادة فهو مصدر اللؤلؤ . وتبتز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من اموال امبراطوريتنا مبلغ مئة مليون سترساً [نقد روماني قديم] كل حول ـ هذا على اقل حساب ـ وتلك ثروة طائلة نبذرها على اهواء مترفينا ونسائنا [٢] .

ولم يكن الاحباش فيما نرى راضين بنصيبهم من الغنائم التي كانوا ينالونها من جيرانهم في الشرق فاخذوا الآن يخطبون ودّ الرومان .

وتسنى لاحد الرومان او اليونان في الحقبة الأخيرة من عصر البطالسة ، ولعله كان يعمل في اسطول الاحباش التجاري ، ان يعي اسرار الخطوط التجارية ويقف على اغراضها وتبدلات رياح السموم الدورية فيها فعاد ادراجه الى الاسكندرية يحمل وسق سفينة من السلع المستطابة العزيزة المنال فيها القرفة والبهار من الهند وسواها من الاصناف التي حسب الاوربيون قبلاً انها عربية المصدر . وجرى آخرون في أثر هبالوس هذا الذي اصبح مقامه عند البطالسه مقام كولمبوس لما فتحه من الابواب التجارية الجديدة فاعانوا بني جنسهم على هدم صروح الاحتكار التي كان تجار العرب قد رفعوا بناءها . ولكن لم يقو احد على الاستفادة من هذا الاكتشاف العظيم الذي ازاح الستار عن سر السموم الدورية واظهر الخط المباشر الى الهند حتى العصر الذي استولت فيه رومة على مصر . وكان دخول سفن الرومان الشاحنة الى

---

١) يشير الى اللبان .

٢) Pliny, Bk. XII, ch.41.

الاوقيانوس الهندي نذير الموت لحياة اليسر والرخاء في بلدان الجزيرة الجنوبية . ولم يقف التدهور الاقتصادي عند هـذا الحد بل تلاه تدهور سياسي كما هو مألوف في مثل تلك الاحوال . وأخذت دول التجارة البتراء وتدمر وبلاد العراق الشمالية تسقط واحدة واحدة فريسه للذئب الروماني .

٤ . دولة حمير الثانية

وحوالي سنة ٣٠٠ ميـلادية اصبح اللقب الملـكي في جنوب بلاد العرب هو ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » . ويؤخذ من ذلك ان حضرموت في تلك الوهلة كانت قـد فقدت استقلالها . ثم اضيف الى هـذا اللقب قسم آخر : « وعربهم في الجبال وفي التهامة » . ويجوز تفسير « يمنات » (او يمانة) الواردة في الالقاب المضفاضة لمتأخري الملوك بانها اسم عام اطلق على السواحل الجنوبية . اما تهامة فهي ساحل البحر الاحمر الى غربي صنعاء .

ثم غزا الاحباش البلاد العربية فلم يطل امدهم فيها (٣٤٠ ـ ٧٨ م) ومـا لبثوا ان فارقوها واسترجعت حمير سيادتها واسترد ملوكها القابهم الضخمة الى ما يقارب ٥٢٥ م . وفي رقم اكسوم التي يرجع عهدها الى منتصف القرن الرابع نجـد ملك الحبشة يدعى « ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشة [١] وسلح وتهامة » . وما هذه باول غارة للاحباش على الجزيرة ولا هي آخر عهدهم بها فلقد سبق لهم في القرن الثاني والثالث للميلاد ان نجحوا في بسط نفوذ وقتي على بعض انحاء الجنوب .

وابقت لنا الرقم اسماء تسعة من ملوك حمير في هذه الحقبة ومنهم من ذكرتهم الآداب الاسلامية بلقب « تبع » الملـكي وهؤلاء هم التبابعة المعروفون . احـدهم يسمى شمر يرعش وقد دونت اخباره الاساطير العربية وجعلتـه يخضع الاقطار حتى سمرقند وزعمت أن اسم هذه البلدة مشتق من اسمه . وملك آخر هو ابو كرب اسعد كامل (نحو ٣٨٥ ـ ٤٢٠ م) وقد حكي انه اكتسح بلاد فارس فاخضعها ثم

١) اي حضرموت راجع Nielsen, *Handbuch*, vol. i, p.104.

اعتنق اليهودية بعدئذ . وقد خلدت ذكرى ابي كرب اسعد في اشعار الحماسة العربية . وامتازت هذه الحقبة الاخيرة من تاريخ حمير بدخول النصرانية واليهودية الى اليمن .

النصرانية واليهودية في اليمن

ولقد قامت ديانة الجنوب في جوهرها على اساس تـأليه السيارات الفلكية وتركزت على عبادة القمر ـ الاله سين ـ واسمه « ودّ » عند المعينيين (بمعنى الحب او المحب او الأب) ، وعند سبأ « ألمقه » (الأله المعطي الصحة ؟) وفي ديانة قطبان هو « عم » . وكانت له الزعامة على آلهتهم كلها وقد صوره عباده الهاً ذكراً وقدموه على « الشمس » التي اعتبروها زوجه . وكان الاقنوم الثالث في ثالوثهم الديني « عثتر » ابنهما (وهو فينس او الزهرة ويقابل الالهة البابلية عشتـار ، وعشترت عند الفينيقيين) . وانتج هذا الزواج السماوي اجراما فلكية اخرى اتخذوها آلهة . ويحتمل ان اللات الالهة العربية الشمالية المذكورة في القرآن هو اسم آخر لالهة الشمس هذه .

وكانت قد أخذت تتسرب الى الجنوب مبادىء النصرانية على المذهب المنوفيزي من عهد قديم . وربما كان المرسلون السوريون قد قصدوا اليمن في أزمنة مجهولة لدينـا ، فراراً من الاضطهاد . وكـانت اول سفارة نصرانية الى الجنوب تلك التي وفدهـا الامبراطور قسطنطيوس في ٣٥٦ يرأسها ثيوفيلس اندس الآريوسي (على مذهب آريوس الذي انكر لاهوت المسيح) . واهم البواعث الداعية الى هـذه الارسالية توضحها الحالة السياسية بين الدول انئذ والمناظرة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية اذ نشطت كل منهما الى توطيد هيبتها في جنوبي الجزيرة . وافلح ثيوفيلس في انشاء بيعة في عدن وبيعتين في ارض حمير . اما نجران التي جاءتها النصرانية على المذهب المنوفيزي فيقال ان حاملها اليها هو رجـل ذو ورع قدمها من سورية اسمه فيميون . فاعتنقت البلاد الدين الجديد في نحو ٥٠٠ م . ونقل ابن هشام [١] والطبري [٢] حكاية هذا الزاهـد وقـد اسرته قافلة عربية فنزلت به

١) السيرة ، نشر وستنفلد ، (غوتنغن ، ١٨٥٨) ص ٢٠–٢٢

٢) تاريخ الرسل والملوك ، نشر دي غويه (ليدن ١٨٧٩–١٩٠١) الجزء الاول ص ٩١٩–٢٥

الى نجران . ولقد بقيت للنصرانية بنجران بيعة واحدة معروفة الى الازمنة المتأخرة . والى هؤلاء النصارى المقيمين بنجران ارسل يعقوب السروجي (المتوفى ٥٢١) كتاباً بالسريانية يحثهم فيه على الجهاد الروحي ، ثم جاء الاسلام فاجلى الخليفة عمر سنة ٦٣٥ ـ ٣٦ م الى العراق من لم يعتنق منهم الاسلام [١] . وكان للنصرانية حتى سنة ٨٤٠ اسقف لصنعاء واليمن يدعى مار بترس .

وقد اخذ مؤلفو الاسلام اكثر معارفهم عن احوال النصرانية وبيزنطة في عهود الجاهلية من المصادر السريانية او استمدوها مما نقله كتاب السريان عن آداب اليونان . وهذه المصادر هي التي احاطتهم علماً بشؤون النصرانية في جنوبي الجزيرة . ويستفاد من اقدم هذه المصادر السريانية [٢] في هذا الصدد أن نصارى الجاهلية كانت لهم بيع ليس في نجران فقط بل في ظفار وحضرموت ومأرب ايضاً .

وقد انتشرت اليهودية ايضاً في اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية . ولا بد ان تكون قد دخلت شمال الجزيرة قبل ذلك الزمن وربما كان ذلك على اثر خضوع فلسطين لادريانوس وطيطس وتدمير بيت المقدس على يد هذا الاخير سنة ٧٠ م ولو تفحصنا اسماء اليهود المقيمين في الجزيرة لرأينا ان معظمهم اراميون وعرب متهودون وليسوا من ذرية ابراهيم الخليل . واخذ ساعد اليهودية يشتد حتى اذا اقبل القرن السادس للميلاد صارت لها صولة في اليمن بحيث ان آخر ملوك حمير وهو ذو نواس (سليل تبع اسعد كامل) كان يهودياً . ولا يزال في اليمن الى يومنا هذا ما يقرب من مئة الف يهودي لهم حي من احياء العاصمة صنعاء . وانك لترى « خاتم سليمان الحكيم » منقوشاً على جدران بعض المساجد في البلاد . [٣]

---

١) البلاذري ، فتوح ص ١٠١ــ١٠٢

٢) انظر Axel Moberg, *The Book of the Himyarites* (Lund, 1924) ويبدو ان ما جاء في هذا السفر من الاخبار لم يكتب الا بعد حملة الأحباش بأمد يسير (٥٢٥ م) .

٣) احمد زكي ، مجلة الهلال ج ٣٧ ، (القاهرة ، ١٩٢٩) ص ١٠٥٠ .

« ٦ »

واشتدت المنافسة بين عرب الجنوب الذين انضووا تحت لواء هاتين الديانتين الموحدتين الحديثتي العهد فانقلبت عداء مريراً . والذي يلوح لنا ان ذا نواس كان يمثل الروح القومية في البلاد فرأى في النصارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الاحباش المسيحيين البغيض . والى هذا العامل تعزى مذبحة نصارى نجران في تشرين الاول سنة ٥٢٣ . ويقال انه جمع من نجا منهم ثم دعاهم الى اليهودية فخيرهم بين القتل والدخول فيها فاختاروا القتل . فخدّ لهم اخدود النار ذات الوقود .[١] وفي اخبار العرب ان دوس ذا ثعلبان افلت ولجأ الى امبراطور الروم فاستنصره على ذي نواس ، وقيصر الروم اذ ذاك يوستينوس الاول ـ صاحب القسطنطينية ـ كان يعد حامي ذمار النصرانية في كل الارض ، فقال له يوستينوس « نأت بلادك عنا فلا نقدر أن نتناولها بالجنود ولكني سأكتب الى نجاشي الحبشة (كلِب الا اصبحا حسما ذكرته النقوش) وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك » . ويقال ان صاحب الحبشة بعث معه سبعين الفاً من الحبشة وامّر عليهم رجلاً منهم يقال له ارياط . فركب البحر الاحمر بهم حتى نزلوا بساحل اليمن . ولهذه الحملة اهمية في شبكة السياسية الدولية آنذاك . ومحور تلك الاوضاع هو سعي بيزنطة الى الاستعانة بالحبشة كيما تبسط سلطانها على قبائل العرب وتتوسل بهم في مناوأة الفرس . وكتب الفوز للاحباش اولا سنة ٥٢٣ وثانية سنة ٥٢٥ اذ تزعمهم ابرهة (لغة في ابراهيم) . وكان لاول عهده قائداً في جيش الاحباش الى ان خرج على رئيسه ارياط واستبد بالاحكام . ولقد روى الطبري [٢] ان ذا نواس رأى أن لا طاقة له بالاحباش فركب فرسه واعترض البحر فاقتحمه فكان آخر العهد به . وهكذا كانت خاتمة آخر ملك حميري . وانتهى بموته عصر استقلال اليمن ، ولم يحفظ من آثار اسرة حمير العريقة على ما كان لها من العز والفخار الا اسم قبيلة مجهولة الحسب تدعى حمير وبنوها قوم ديدنهم السلب ميالون الى البداوة وحياتهم جبلية يسكنون تلال

١) سورة البروج : ٤

٢) تاريخ الرسل ، ج ١ ص ٩٢٧–٩٢٨

يلهف في ساحل جنوبي الجزيرة على نحو مئتي ميل الى الشرق من عدن.

وقد ذكر القزويني [1] أنه لما بعث الخليفة معاوية (٦٦١ ـ ٨٠ م) عبد الرحمان ابن الحكم الى اليمن والياً رأى قصراً بساحل عدن مبنياً بالصخر والكلس وعلى بعض ابوابه صخرة عظيمة بيضا، نقشت عليها ابيات من الشعر. وقد اخطأ القائل انها ترجمة ما كشف عنه في حصن الغراب من نقوش حمير الاولى التي نشرها العلماء في اوروبا.

حكم الاحباش

ولقد دخل الاحباش اعواناً ثم ما لبثوا ان اصبحوا فاتحين وهذا امر كثير الوقوع. ثم نشأ منهم جيل جديد استعمر الارض واستأثر بها من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥. واستثمر الاحباش ارضاً كان اجدادهم قد نزحوا عنها في الازمان القديمة واستوطنوا الساحل الافريقي. وابتنى ابرهة عامل الدولة الاكسومية كاتدرائية في صنعاء، عاصمة اليمن اليوم، تعد من افخم كاتدرائيات ذلك العصر سماها القليص (اكليسيا اليونانية اي بيعة). ولقد بنيت هذه الكاتدرائية التي لم يبق منها اليوم الا اطلال من أخربة مأرب القديمة.

وعقد الاحباش النية على تنصير البلاد ومزاحمة مكة الوثنية. ومكة يومئذ مركز الحج في امصار الشمال وموارد الحج غنية عن البيان فهي تعود على ابناء المدينة التي يقصدها الزائرون بخيرات طائلة وترتزق منها ايضاً كل المدن الواقعة على خطوطه. ويخيل لنا ان المشرفين على سياسة البلاد من الأحباش أفلحوا فيما نووه من انشاء مزار ديني في الجنوب تتوارد اليه القبائل وهو امر يجلب الضرر الى معبد الحجاز. وحفظت الاخبار ذكرى هذه المنافسة الاقتصادية الدينية فنقلت ان ابرهة كتب الى النجاشي يقول « اني قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى اصرف اليها حاج العرب ». فلما تحدث العرب بكتاب

[1] الآثار (غوتنغن، ١٨٤٨) ص ٤٣

ابرهة ذلك ، غضب رجل من فقيم وهي قبيلة تنتسب الى عبادة الكعبة وآخر من بني مالك فخرجا حتى اتيا القليس فقعدا فيها ودنساها ثم رجعا فلحقا بارضهما . فاتصل ذلك بابرهة فحلف ليسيرنّ الى البيت الذي تحج اليه العرب ـ الكعبة في مكة ـ حتى يهدمه . ثم امر الحبشة فتجهزت للحرب . وتعرف سنة حمله على مكة بعام الفيل (٥٧٠ او ٥٧١ م.) وهي سنة مولد النبي العربي لان ابرهة اقبل فيها بفيله فحمل على مكة في الشمال فتحدث عرب الحجاز به ولم تكن الفيلة مألوفة عندهم . الا ان ابرهة لم يفلح بل فتك الجدري (سجّيل [١] في القرآن » بجيشه اي فتك .

انفجار سد مأرب

وحدث في هذه الحقبة انفجار سد مارب المفجع الذي ذكرت اخباره الآداب الاسلامية . وجرى السيل العرم [٢] فغمر الاراضي ، و « تفرق القوم ايدي سبا » ولقد خص الاصفهاني [٣] الباب الثامن من تاريخه (انهاه سنة ٩٦١م) بسياقة تواريخ ملوك حمير فزعم ان السيل العرم اخرب السد « قبل ظهور الاسلام باربعمئة سنة » . ولكن ياقوت [٤] كان اقرب الى الصواب فقد ذكر ان خراب سد مأرب وقصة العرم كان في ملك الحبشان . ولا تزال انقاض السد ظاهرة الى اليوم . وقد نشر غلازر [٥] رقما من رقم الجنوب التي كشفها (وتاريخه يقابل سنة ٥٤٢ ـ ٤٣) وهو لأبرهة فيه ذكر لانفجار احد السدود .

وقد سبق التصدع الذي حدث في السد ايام ابرهة تصدع آخر في سنة ٤٥٠ م يوم تفجرت المياه أثره وخربت السد . ولكن البناء أصلح بعد ذلك [٦] . اما

١) سوره الفيل ، ١ـ٣ وانظر الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن (بولاق ، ١٣٢٣ـ٩) ج ٣٠ ص ١٩٣ ؛ وابن هشام ، السيرة ، ص ٣٦

٢) سورة سبا : ١٥

٣) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني الملوك والانبياء ، ص ١٢٦

٤) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٣

٥) *Mitteilungen der vorderasiatischen Gesellschaft* (Berlin, 1897), pp. 360-488

٦) انظر الموسوعة الاسلامية (*Encyclopedia of Islam*) تحت مادة *Ma'rib*

الكارثة الكبرى التي اشار اليها القرآن (سورة سبا : ١٥) فيترتب وقوعها بعد سنة ٥٤٢ وقبل ٥٧٠ . ويعزى الى أحد انفجارات السد الاولى نزوح بني غسان الى حوران في سوريا حيث انشأوا دولة اصطنعها الرومان في الدفاع عن تخومها ، ونزوح بني لخم ايضاً الى ارض الحيرة حيث كشف اخيراً عن عدد من رقم الجنوب العربية . ولقد كانت غسان تؤرخ بانفجار السد جاعلة تلك الحادثة بداية عهدها الجديد [١] . وفضلاً عن غسان وتنوخ النازلتين في ربوع سوريا والعراق فان كثيراً من قبائل الشمال الكبيرة القوية ترجع انسابها الى اصل جنوبي منها بنو طيء وكندة . وفي الشام اليوم عائلات ترجع دخولها البلاد الى عهد هذه الحادثة .

وتناولت مخيلة العرب المتأخرين هذا الحدث الرائع عن اخبار السيل العرم وانفجار السد المنيع فعللت به حالة التأخر والانحطاط في تاريخ الجزيرة الجنوبية والتقهقر والانحلال في مرافق الزراعة [٢] وانقضاء عصر الازدهار والتقدم القومي ، وهو انحلال ترجع اسبابه كما رأينا الى اتصال الرومان بالبحر الاحمر اذ جاءته مراكبهم التجارية شاحنة اصناف السلع ، والى المؤثرات الدينية التي صحبت دخول الدين الجديد وما تثيره من احقاد وتذكيه من حفائظ وما تقيمه بين طبقات الامة الواحدة من فوارق ، وما تلا ذلك من الخضوع لنير الأجانب . وليست اسطورة انفجار السد – والواقع ان الأخبار حاكتها اسطورة منمقة – الا حكاية يمكن القول انها ترمي الى الاتيان بخلاصة وجيزة فذة لما رجعت اسبابه الى عوامل اقتصادية وعمرانية واجتماعية نشأ عنها تداعي معالم الهيئة الاجتماعية في البيئة العربية الجنوبية او قل على سبيل المجاز انها صورة وهمية « تبلورت » فيها عواقب حقب الانحطاط الطويلة وصقلتها العقول وصاغتها في اسلوب سهل المنال . وكأن الاخباريين [٣] ادركوا سر هذه

---

١) المسعودي ، كتاب التنبيه ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٣) ص ٢٠٢

٢) اما النظرية القائلة بان مناخ الجزيرة آخذ في الجفاف فلا عبرة بها لان الادلة العلمية لا تؤيدها في الازمنة التاريخية .

٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٣٨٣ ؛ ياقوت ، بلدان ، ج ٤ ص ٣٨٤ وقابل المسعودي ، المصدر نفسه ص ٣٧٠ – ٧١ فقد تفرد في عزوه سبب انكسار السد الى عوامل طبيعية فقال ان تواتر قطر الماء على الحجر الصلد يؤثر فيه ، فلقد عمل الماء في اصول السد فاضعفه على مر السنين . فسبب انكسار السد عنده اذا هو التأكل .

الاسباب غير الملموسة التي افضت الى المأساة المفجعة فسلكوا الى التعبير عنها اسلوباً بديعاً مبتكراً وقالوا ان جرذاً حفر السد وقلب برجليه صخرة منه لا يقلبها خمسون رجلاً فتدفقت المياه ووقعت الكارثة . ولقد روت الأخبار ايضاً ان مزيقياء (عمرو ابن عامر ابن ماء السماء) كان الملك الذي استطاع في عصره هـذا الجرذ الخبيث ان يحدث هذا التغيير الخطير فافتتح عصراً جديداً من عصور التاريخ .

عصر الفرس

ونشط القوم الى تحرير بلادهم وطرد الأحباش منها فقام بينهم بطل مشهور في التقاليد القومية هو سيف ابن ذي يزن ويرجع نسبه الى اسرة عريقة المجد من ملوك حمير الماضين . وقد حازت سيرة سيف وانباء حروبه مقاماً عظيماً في حكايات الفروسية عند العرب . ثم قيّض لها في مصر من نقح مادتها وهذب الفاظها وحسن فصولها وذلك في اثناء القرن الرابع عشر واصبحت موضوع بهجة السامعين تتناولها ألسنة القصاصين الى اليوم في مجالس القاهرة وبيروت وبغداد . وفي التقليد المنقول ان سيفاً انما اخفق في ابتغائه المدد من القسطنطينية على الحبشة لان هذه الاخيرة دولة نصرانية كبيزنطة تربطها اواصر الاخاء الديني ، فصار الى ملك الحيرة الذي قدمه الى عاهل الفرس كسرى [1] انو شروان المقيم ببلاطه في المدائن (سلوقية : تسيفون) وكان مصير اكثر العالم في ذلك العهد تتنازعه بزنطة النصرانية وفارس المزدية . اما دولة اكسوم الحبشية فكأنها قامت وكيلة غير شرعية تنظر في مصالح بزنطـة ، هذا ونصارى العرب يوالون البيزنطيين ويتطلعون الى الحماية والرعاية من القسطنطينية كما كان اليهود والوثنيون والعرب يلوذون بالفرس ويطلبون عطف المدائن . واستغاث سيف بملك الفرس واستجاره فلباه وارسل لغوثه ثمان مئة محارب في سنة ٥٧٥ بقيادة وهرز (او وهريز) . فدحر الاحباش واخرجهم من اليمن وكفى البلاد شر

---

(١) الى هذا العاهل يشير مؤرخو العرب حين يقولون « كسرى » دون تعيين ، واسمه في الفارسية « خسرو نو شيروان » .

حكامها الافريقيين . ونشأت على انقاض ذلك حكومة مزدوجة تقلد سيف فيها ولاية اسمية على البلاد واقام لنفسه مجلساً في قصر غمدان القديم وقد طمست معالمه في ايام الاحباش . وكان الفرس يتدخلون في شؤون اليمن حتى جعلوها ايالة خاضعة لسلطانهم ففقه العرب جلية الامر وادركوا انهم بدلو سيداً اجنبياً بآخر .

وفي أخبار العرب التقليدية التي تتعرض لتلك الحقبة آثار بينة لما نشب من نزاع بين الدولتين المتاخمتين للجزيرة ـ فارس الزردشتية والحبشة النصرانية (تعضدها بيزنطة) ـ وهما تتكافحان في سبيل الاستئثار بما فقدته دولة الجنوب العربية من مجد وعمران . واظهر نصارى العرب ميلاً لبيزنطة فتوسل الاحباش بذلك الميل للتدخل في امور البلاد . وهكذا اتخذت فارس الى التوسع في البلاد وسيلة مما رأته من مؤازرة يهود العرب ووثنييهم لمصالح امتها . وانه وان حالت بادية الشام في الشمال دون توسع الدول الكبرى في الجزيرة فقد اصبحت ارض الجنوب مدخلاً لتلك الدول يوصلها الى قلب البلاد .

وانت سنة ٦٢٨ وهي السادسة للهجرة فاعتنق باذان ، عامل الفرس على اليمن ، الاسلام . وما بزغ نور الاسلام حتى انتقل مركز الجزيرة الخطير الى الشمال وصارت حوادث التاريخ العربي بعد ذلك تجري في مواطن شمالية وقام الحجاز مقام اليمن واليه آلت مكانة ذلك القطر الجليل . وطوال العصور الوسطى كان شأن الجنوب ضئيلاً واموره ثانوية في نظر حكومات الخلفاء المتعاقبة لانها امور قطر سحيق قليل الاثر في حياة الدولة . ولكن في اثناء حكم الاسرة الرسولية (١٢٢٩ ـ ١٤٥٤ م) استعادت اليمن قسطاً من الاستقلال ولم تستعد معه شيئاً من السؤدد والسلطان . وفي الحرب العالمية الاولى اعلنت البلاد استقلالها وانسلخت من جسم الدولة العثمانية بعناية عاهلها الامام يحيى [1] (وهو ينتمي الى آل البيت والمذهب في بلاده هو الزيدي الشيعي) . وقد اغتيل الامام يحيى سنة ١٩٤٨ وخلفه في الحكم نجله الاكبر سيف الاسلام احمد وهو امام اليمن حالياً .

---

١) انظر رحلة نزيه العظم ج ١

الفصل السادس

دولة الأنباط وغيرها من دويلات شمال الجزيرة وأواسطها

١. الانباط

نشأ في عصور الجاهلية غير دول الجنوب بضع دويلات زهت في شمال الجزيرة واواسطها . وكان عمران هذه الدويلات الشمالية كعمران دول الجنوب يعتمد على التجارة . فلم تكن بحال من الاحوال دولا حربية لا في نشأتها ولا في تدرجها وارتقائها وكانت اقدم هذه الدويلات مملكة الانباط .

ولسنا نرى في الاخبار القديمة ان الاشوريين ناصبوا الانباط العداء او وجهوا عليهم حملة ما وذلك لان بلاد الانباط لم تكن على الطريق الرئيسي المؤدي الى الغرب . وقد كان الانباط (نباتاي [١] في آداب اليونان والرومان) في مطلع القرن السادس قبل الميلاد قبائل بدوية نزحت من ارض نسميها اليوم شرق الاردن . فنزلت ارض الادوميين [٢] (احفاد عيسو) وانتزعت منهم البتراء فيما بعد . ويظن بعض العلماء ان سفر ايوب ادومي الاصل [٣] واسلاف الادوميين في « ارض سعير » هم الحوريّون [٤] (الحرّيون) . ثم امتدت سلطة الانباط من قاعدتهم البتراء الى النواحي المجاورة . اما لفظة البتراء فيونانية معناها الصخرة وهي ترجمة كلمة « سلع »

---

١) اما نابوت في العبرانية ونبتاي ونبتو في الاشورية فليسوا الانباط على ما نرجح .

٢) ادوم هي في اليونانية ادومية (مرقس ٣ : ٨) . ولفظة ادوم العبرانية معناها احمر وقد اطلقت على تلك البلاد لشدة احمرار صخورها الرملية ورخامها السماقي (برفيري) .

٣) راجع ما ذكرناه سابقاً ص ٥٥ عن سفر ايوب

٤) تك ١٤ : ٦ ، ٣٦ : ٢٠

العبرانية الواردة في اشعيا ١٦ : ١ ، ٤٢ : ١١ [1] وفي سفر الملوك الثاني ١٤ ، ٧ ويقابلها في اللغة العربية « الرقيم » [2] . وهي تعرف اليوم بوادي موسى . وكانت المدينة القديمة قائمة على رابية قاحلة يبلغ ارتفاعها ثلاثة الاف قدم وهي اليوم عبارة عن مقبرة كبيرة ساطعة الالوان منقورة في طبقات من الحجر الرملي تعكس للرائي كل الوان قوس قزح .

وزهت البتراء في ختام القرن الرابع قبل الميلاد وظلت نحو اربع مئة سنة تشغل مركزاً خطيراً على طريق القوافل الذي يقطع الصحراء واصلاً بين سبأ في الجنوب وبين ثغور بحر الروم .

واول ما بلغنا من اخبار الانباط انما هو من ديدورس الصقلي (المتوفى بعد ٥٧ ق. م) ومنه يستفاد ان الانباط حوالي سنة ٣١٢ ق. م كانوا من القوة بحيث استطاعوا ان يصدوا حملتين انفذهما عليهم انتغونس خلف ذي القرنين في سورية وعادوا الى « الصخرة » ظافرين [3] . والظاهر انهم في ذلك العهد كانوا تحت حكم البطالسة . الا انهم عقدوا محالفة مع رومة فيما بعد وضافروها مضافرة اسمية يوم حمل ايليوس غالوس على بلاد العرب سنة ٢٤ ق. م . واول اتصالهم بالرومان كان في ولاية حارثة (الحارث ـ أرتاس الثالث ـ حوالي ٨٥ ـ ٦٠ ق. م) . وقد ضربت خلال ملكه اقدم نقودهم الملكية المسكوكة . وسنة ٤٧ ق. م التمس يوليوس قيصر من مالكو (مالك ـ ملكوس الاول) كتيبة من الخيالة لاكتساح الاسكندرية . ولما جاءت حملة الرومان الى بلاد العرب كان عرش الانباط قد آل الى خلفه عُبيدث (عبيدة ـ اوبوداس الثاني ، ٢٨ ـ ٩ ق. م) . ولقد بلغت مملكة الانباط (بلاد العرب الصخرية) وعاصمتها البتراء اوج عزها في ايام حارثة الرابع (٩ ق. م ـ ٤٠ م) وامتدت في عصر المسيح شمالا الى دمشق التي كان الانباط

---

١) قابل سفر الاخبار الثاني ٢٥ : ١٢ ، ارميا ٤٩ : ١٦ ، عوبديا ٣ ـ ٤ .

٢) انظر Josephus, *Antiquities*, Bk. IV, ch. 4, § 7, ch. 7, § 1.

٣) Diodorus, Bk. XIX, § § 94-7.

قد فتحوها عنوة في ايام حارثة الثالث (نحو ٨٥ ق.م) كما فتحوا سورية المجوفة (سهل البقاع) بعد أن حكمها السلوقيون . ولم يكن حاكم دمشق الذي سعى للقبض على بولس [١] الرسول سوى عامل لحارثة الرابع . وتشهد الرقم المكشوف عنها في الحجر (مدائن صالح) في شمالي الحجاز ان تلك الناحية ايضاً كانت في حوزة الانباط عند القرن الاول الميلادي . واننا نعرف اسماء ملوك الانباط كلهم من اولهم وهو حارثت (الحارث) الاول (١٦٩ ق.م) الى آخر من حكم مستقلاً منهم وهو كربيل الثاني (٧١ — ١٠٦ م) [٢] . وفي سنة ١٠٥ م قضى الامبراطور تراجانوس على سيادتهم القومية فانتثر عقد الوحدة النبطية وضمت ديارهم في السنة التالية الى المملكة الرومانية وصارت ايالة تابعة لها .

ويعتبر يوسيفوس (المتوفى نحو ٩٥ م) اهم مصدر لمعلوماتنا عن الانباط بعد ديدورس . الا ان يوسيفوس لم يعن الا بما له علاقة من تاريخهم بالشعب العبراني . وكانت بلاد العرب في عرفه بلاد الانباط وتمتد شرقاً الى ضفاف الفرات . وعرض يوسيفوس [٣] لاخبار ملكوس او مليكوس (مالك في العربية) فقال هو « ملك بلاد العرب » الذي مالأه هيرودوس كما مالأه والد هيرودوس . وعرض ايضاً لملكوس [٤] (اي ملكوس الثاني) الذي بعث نحو ٦٧ م الفاً من الخيل وخمسة الاف من المشاة لنجدة طيطس عندما غزا هذا اورشليم وكان كلاهما من ملوك الانباط . وفي سفر المكابيين الاول ٥ : ٢٥ والثاني ٥ : ٨ ذكر الانباط كأنهم قوم من العرب . ويعد بدو الحويطات اليوم من سلالة الانباط .

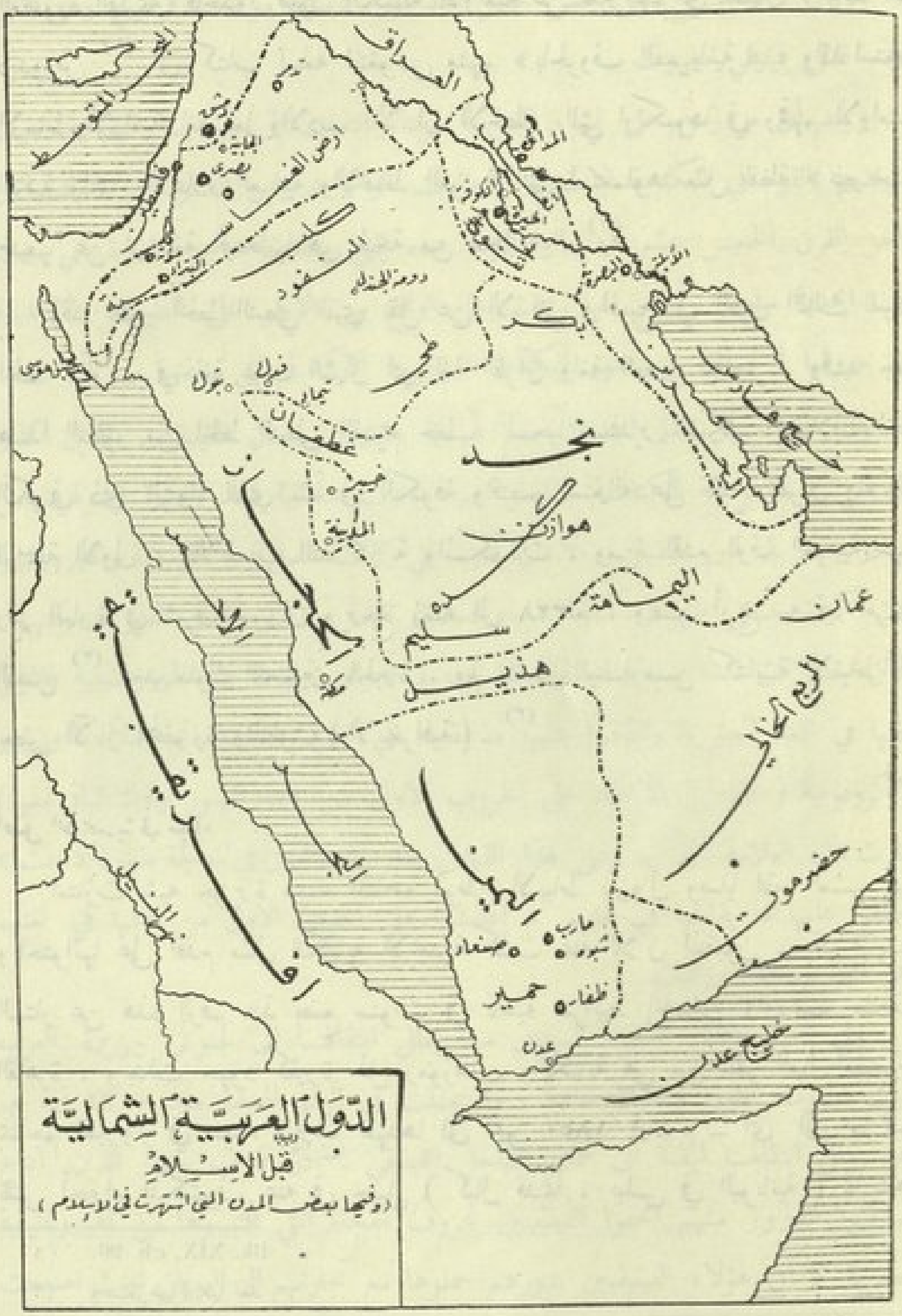
وليس لنا مصادر تلم باحوال الانباط الداخلية الا ما خطته يراعة سترابو وهو صديق ايليوس غالوس ولم يقم من كتاب اليونان والرومان من اعتنى بهم بعده الا ديدورس . وكان الانباط يتفاهمون بلغة عربية ولم يك للعربية حروف تكتب في تلك

١) كورنثس الثاني ١١ : ٣٢

٢) انظر جدول ملوكهم في Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, p. 216

٣) *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 14, § 1. *The Jewish War*, Bk. I, ch. 14, § 1.

٤) *Jewish War*, Bk. III, ch. 4, § 2.



الدول العربية الشمالية
قبل الإسلام
(وفيها بعض المدن التي اشتهرت في الإسلام)

العصور القديمة فاخذوا صور الكتابة الارامية عن جيرانهم في الشمال . وقد أشار ديدورس [١] الى كتاب تسلمه انتغونس منهم « بالحروف السريانية » . ولقد استعمل الانباط الارامية لغة للعلم والادب الا ان الاخطاء التي ارتكبوها في رقمهم الارامية الباقية واسماء الاعلام العربية والالفاظ العربية التي استعملوها مثل لفظة « غير » تنم جميعها عن ان لغة اصحابها هي لهجة من لهجات العربية .

وقد تطور الخط النبطي الذي نقل عن الارامي واصبح في القرن الثالث للميلاد الخط المألوف في لغة عرب الشمال اي لغة القرآن ولغة العصر الحاضر . وقد جعل هذا التطور من الخط النبطي القديم خطاً نسخياً مستدير الشكل بخلاف الخط الكوفي ذي الزوايا الذي نشأ في الكوفة واقتصر استعماله على نسخ القرآن والوثائق الرسمية الاولى ، والانصاب التذكارية والمسكوكات . ومن اقدم الرقم العربية عهداً رقيم النمارة في شرق حوران ويرجع زمنه الى ٣٢٨ م . ولقد أرخ به قبر امرئ القيس [٢] احد ملوك اللخميين بالحيرة . ولم يتحدر الينا من كتابة الانباط الا بعض الآثار المحفورة والمنقوشة (الابيغرافية) . [٣]

اصل الابجدية في سيناء

امتازت شبه جزيرة سيناء المتاخمة لموطن الانباط بنزول وصايا الله العشر فيها وباحتوائها على اقدم مثال للكتابة الابجدية كشف عنه للآن المنقبون . وقد ازيح الستار عن هذه الرقم منذ بضع سنوات في ناحية سرابيط الخادم واودعت متحف القاهرة . وبذلت جهود كثيرة لحل رموزها . والكتابة هي من حفر العمال المشتغلين بمناجم الفيروز في سيناء ويرجع عهدها الى نحو ١٨٥٠ ق. م - اي الى ما قبل نقش أحيرام المكشوف عنه في جبيل (كبال قديماً ، ببلس في اليونانية) بما يناهز

---

١) Bk. XIX, ch. 96.

٢) وسنعرض له فيما بعد

٣) اما كتاب الفلاحة النبطية الذي صنفه ابن الوحشية سنة ٩٠٤ م وادعى نقله عن « الكلدانية » فيعد سفراً ملفقاً .

ستة قرون . ولقد عثر على نقش جبيل المذكور الاستاذ مونته الافرنسي وهو الثاني لاقدم نقش فينيقي معروف .

وبعد أن مر زمن على نشوء ابجدية سيناء انتقلت الى سورية الشمالية حيث استخدمها القوم في الكتابة الاسفينية كما اثبتت الواح « راس الشمرة » العائدة الى أواخر القرن الخامس عشر (١) . والكتابة هذه التي وجدت برأس الشمرة هي بلا ريب ابجدية سامية . ومع انها رسمت على الواح من الآجر على الطريقة الاسفينية فان حروفها لم تستعر من صور الكتابة السومرية الاكدية التي سبقتها .

وقد ظل رجال العلم الحديث مدة طويلة يعتبرون ان الفينيقيين الذين كانوا اول من عمّم طريقة للكتابة تستعمل فيها حروف هجائية قد أخذوا اصولها من مصادر مصرية هيروغليفية . الا ان الهوة التي كانت تفصل بين الفينيقية والهيروغليفية ظلت كبيرة حتى ظهرت كتابة سيناء فسدت الثلمة وكانت الحلقة المفقودة بينهما . والآن يظهر ان ابناء سيناء اخذوا مثلاً صورة « راس ثور » عن الهيروغليفية فاغفلوا تغلبا في اللغة المصرية واطلقوا عليها ما يقابله في لغتهم الخاصة . ثم عملاً بقانون الاكروفونية (القاضي بالاعتماد على الحروف الاولى من اسماء الصور وترك الباقي منها) صارت هذه العلامة ألفاً . وعلى هذا القياس سار السينائيون في معالجة صورة « بيت » فاطلقوا عليها ما يقابلها في لغتهم ثم اعتمدوا على الحرف الاول من اسمها في لغتهم وهو الباء وهكذا دواليك .

وفي القول باصل الالفباء السينائي ما يعلل انتقالها الى جنوبي جزيرة العرب حيث تطورت تطوراً مستقلاً خاصاً ، واستعملت في الرقم المعينية منذ ١٢٠٠ ق. م. وهو يعلل انتقالها ايضاً الى شمال الساحل الفينيقي . اذن فعرب سيناء الذين اتاع الفينيقيون الفيروز منهم اتحفوا الفينيقيين بحروف الهجاء التي اقتبسوها من الهيروغليفية المصرية كما أن هؤلاء الفينيقيين بدورهم حملوها مع تجارتهم الى اليونان بحيث اصبحت

(١ F. - A.Schaeffer in *Syria*, vol. X (1929), pp. 285 - 97, Charles Virolleaud, *Syria*, vol. X. pp. 304 - 10.

مع الزمن أما لكل الابجديات الاوربية .

اما الرقم المكشوف عنها في ناحية صفا البركانية بحوران الراجع عهدها الى نحو ١٠٠ سنة م او بعدها (١) وما يعود الى ذلك العصر ايضاً من الرقم اللحيانية التي وجدت في العلا من شمالي الحجاز (ويجوز تسمية هـذه الرقم عربية نموذجية تعني ان حروفها سابقة للحروف العربية المألوفة) والكتابات الثمودية التي عثر عليها في المنطقة نفسها وخاصة في بقعة الحجر (من عهد القرن الخامس ق. م.) فحروفها تشاكل الابجدية الجنوبية العربية (٢) ولكن لغتها عربية شمالية لا يفرق بينها وبين لغة الضاد الا اختلاف طفيف . وما الرقم الثمودية الا تطور مواز او تابع للكتابة اللحيانية التي نشأت منها ايضاً رقم صفا . ولم تنتشر الكتابة الجنوبية في الشمال الى ابعد من موضع رقم صفا . اضف الى ذلك ان كتابة الجنوب ظلت حية في الكتابة الاثيوبية .

ولم تحدد بعد تماماً العلاقات التاريخية بين هذه الشعوب الثلاثة الشمالية التي اعتمدت هذه الكتابة الصفائية واللحيانية والثمودية . الا ان اللحيانيين الذين ذكرهم بلينيوس (٣) باسم لحييني هم شعب قديم لعله تفرع من ثمود وكانت قاعدته ديدان التي كانت من قبل مستعمرة معينية على الخط التجاري العظيم الذي سلكته تجارة اليمن والهند الى ثغور بحر الروم . وعقب سقوط البتراء (١٠٦ م) قيض للحيانيين الاستيلاء على الحجر ـ مركز الانباط الخطير . وكان فيما سبق بلدة ثمودية . ولقد تأثرت ثقافة اللحيانيين كثيراً بالمدنية المعينية والنبطية . وتنم الانقاض في العلا ومن بينها قبور مزخرفة بالنقوش البارزة عن مدنية جاهلية راقية لا نعرف عنها الا الشيء اليسير (٤) .

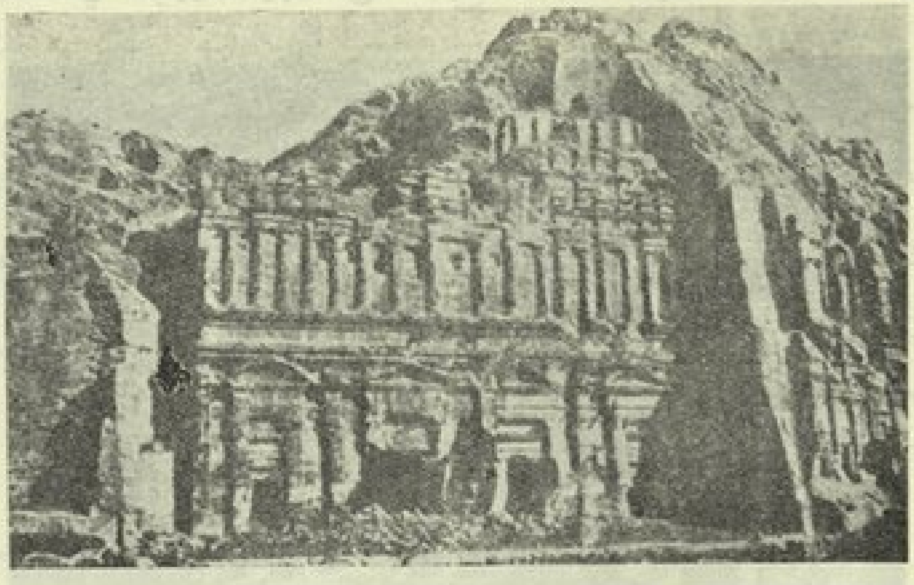
١) قابل F. V. Winnett, *A. Study of The Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), p. 53.

٢) René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 57-73; Dussaud and F. Macler, *Voyage archéologique au Safa et dans le Djebel ed-Drûz* (Paris, 1901), pp. 2-14.

٣) Bk. VI, ch. 32.

٤) لزيادة الاطلاع على شؤون لحيان وثمود راجع : Eduard Glaser, *Skizze der Geschichte and Geographie Arabiens* (Berlin. 1890), vol. ii, pp. 98-127; Jaussen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (risPa, 1909), pp. 250-91.

بلغت البتراء قمة غناها ومجدها في القرن الاول الميلادي وهي رائعة في كنف الرومان الذين جعلوا منها دولة منيعة الجانب تذب عن مصالحهم على تخوم امبراطورية الفرثيين فاكتسبت مجداً وثروة واضحت مدينة حصينة لا يمكن اقتحامها من جهات الشرق والغرب والجنوب وكانت قد قدت من الحجر الصلد تحيط بها شواهق عالية من الصخور بحيث يكاد يستحيل الدخول اليها الا من ممر ضيق متعرج فيها .

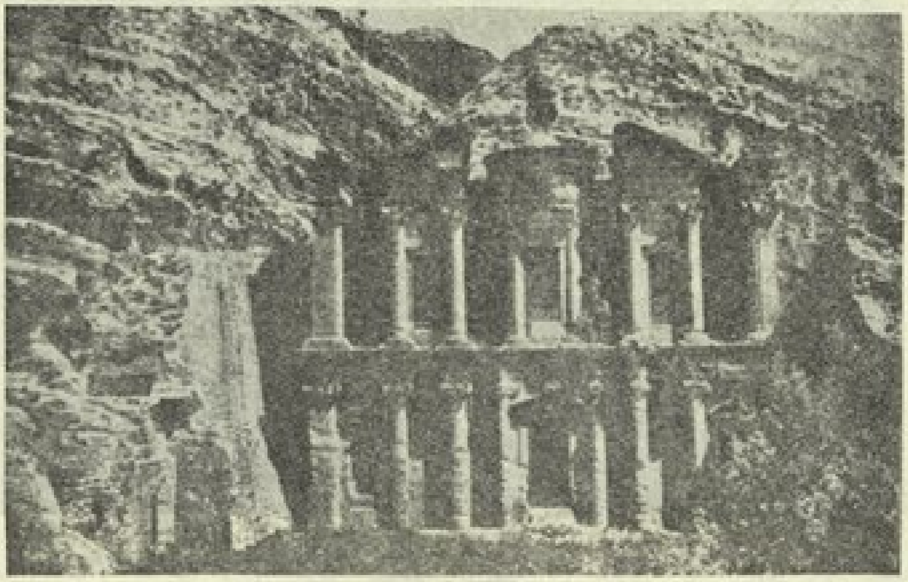


البتراء : القصر .

وكانت تنعم بمائها الصافي الغزير فليس هناك موضع بين الاردن واواسط الجزيرة الا ها يفيض مثل هذا الماء . فهنا كان عرب الجنوب المتجهون شمالا في قوافلهم يحطون الرحال ويستعينون بما يحتاجون اليه من ابل نشيطة جديدة وحداة لها في مراحل رحلتهم الاخيرة . فكان الانباط اذاً حلقة هامة في تلك السلسلة التجارية الوثقى التي كانت عاملاً على ازدهار بلاد العرب الجنوبية ورخائها . ولا تزال انقاض البتراء الفخمة الرائعة تجذب اليها العدد الكبير من السياح وهي تعتبر مورداً هاماً من موارد الدخل لحكومة شرق الاردن اليوم .

وكان في البتراء مقام ديني يقصده الحجاج هو اشبه بكعبة لعرب تلك البقاع في الجاهلية . وكانوا يعبدون فيه وثنهم دوشرى (دوسارس) ويمثله حجر اسود مستطيل . وكان لهذا المعبود السيادة على جماعة آلهتهم . اما سيدة الالهات عندهم فهى اللات التي اعتبرها هيرودتس [١] افروديت اورانية بعينها . واصبح دوشرى (ذو الشرى) اله الكرمة من بعد . وقد جيء به الى ارض الانباط في الحقبة الهلينية فاكتسب صفات ديونيسوس وباخوس الهي الخمر .

وحدث في القرنين الاولين من التاريخ الميلادى تطورات اهمها ان اهل الملاحة



البتراء : الدير

من الرومان عمدوا للسفر بحراً الى الهند . وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب الى منطقة شمالية فاصبحت تدمر مركزه الاوسط بعد أن كانت سيادته وقفاً على البتراء . كذلك فان الخط الشمالي الجنوبي اخذ يسلك سبيلاً الى الشرق يتفق مع خط الحج في العصور الاسلامية ، ومع خط السكة الحجازية الحالية . وقد تألبت هذه العوامل على الانباط فادت الى تحطيم هيبتهم والقضاء على موقعهم الجغرافي فذهبت دولتهم .

(١) Bk. III, ch. 8

و بعد ان دمر تراجانوس مدينتهم سنة ١٠٥ م لجشعه وقصر نظره انضمت بلاد العرب الصخرية الى ممتلكات الامبراطورية الرومانيـة وصارت تدعى ـ أرابية بروفينكيا ـ مقاطعة بلاد العرب . وانقطع منذ ذلك العهد تاريخ البتراء لعدة قرون [١] .

٠٢ مملكة تدمر

وتبدلت الحال في آسية الغربية بعد استيلاء الفرثيين على بلاد ما بين النهرين وفتحت خطوط تجارية جديدة بعد القرن الاول للميلاد بحيث تمهدت السبل لقيام مدينة في واحة باواسط بادية الشام لا يزال صيتها منتشراً الى الوقت الحاضر . تلك هي مدينة تدمر (بالميرا) التي تعتبر اطلالها الحالية من افخم الآثار القديمـة وان تكن اقلها عناية من قبل الدارسين . ولقد نشأت تدمر بين دولتين متطاحنتين دولة الفرثيين ودولة الرومان . فاضطرت الى ضمان الامـان لنفسها بتوخي الموازنة بين هـاتين الامتين والسعي للانتفاع من حيادها [٢] . وحباها مركزها الجغرافي وما فيها من المياه النقية والمعدنية فائدة المحـافظة على طريق الاموال المنتقلة بين الشرق والغرب فضلاً عن انها كانت على طريـق التجارة بـين الجنوب والشمال فـاصبحت ملتقى جميع القوافل ويكثر في نقوشها القديمة ذكر عبارة « زعيم القافلة » و « زعيم السوق » باعتبار ان المشار اليه هو من زعماء المواطنين [٣] وتبوأت هـذه القاعدة الصحراوية طوال القرن الثاني والثالث للميلاد اعلى مراتب الثروة والجاه بين مدائن الشرق .

وتدمر (وهو اسم سامي) مدينة قديمة العمران فلقد ذكرها تغلث بلاصر الاول (نحو ١١٠٠ ق.م) في رقم باسم « تدمر امورو » [٤] . ولقد تركت انقاضها اثراً

(١) إن ارم الموقع النبطي الذي اكتشف حديثاً على بعد ٢٥ ميلا الى الشرق من العقبة هو ارم المذكورة في القرآن سورة ٦٩ : ٨ .

(٢) Pliny , Bk. V, ch. 21

(٣) Cooke , pp. 274 , 279

(٤) Luckenbill, vol. i, § § 287 , 308

عميقاً في نفوس القصاصين العرب بحيث عزوا بناءها الى الجن بامر من سليمان الحكيم . ولم تعين الاخبار العربية اول عهد استعمار العرب لتدمر فهو سحيق في القدم . واول اشارة راهنة اليها ترجع الى يوم حاول مركوس انطونيوس سنة ٤٢ ـ ٤١ ق.م ان يفوز بكنوزها فاخفق . واقدم الرقم التي وجدت في تدمر ترجع لسنة ٩ ق.م حين كانت قد اصبحت مركزاً تجارياً خطيراً بين دولتي الرومان والفرثيين .

والراجح ان تدمر دخلت ضمن النفوذ الروماني في اقدم عصور الامبراطورية لاننا نجد قرارات رسمية تتعلق بالمكوس « الكمركية » صادرة سنة ١٧ م [١] . وكان خضوع تدمر وملحقاتها لسلطان رومة على عهد أدريانوس (١١٧ ـ ١٣٨ م) . ولقد جاءها الامبراطور ادريانوس زائراً سنة ١٣٠ فمنحها لقب « ادريانا بالميرا » . ثم قام سبتميوس سيفيروس (١٩٣ ـ ٢١١ م) فجعل تدمر وملحقاتها مدناً اقليمية في امبراطوريته . وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانية ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي قط بل بقيت تدير شؤونها بنفسها . ولم يكن اعترافها بسلطان رومة الا اعترافاً اسمياً . بيد ان اهلها لذلك العهد اخذوا ينتحلون لانفسهم اسماء رومانية . وقد ادرك الرومان اهمية المدينة من الوجهة الحربية لان طريقهم بين دمشق والفرات تمر بها .

ووصلت تدمر الى اوج عزها بين سنة ١٣٠ و ٢٧٠ والى هذه الحقبة يرجع سواد النصب التذكارية فيها وما عليها من نقوش . وبلغت صلاتها التجارية شرقاً حتى الصين . وباعتبار انها مدينة خلقتها خطوط القوافل ، فقد اصبحت الوارث الحقيقي للبتراء .

أذينة وزنوبيا

ولم يسطع نجم التدمريين في الحرب الا عندما استطاع زعيمهم أذينة (٢٦٥م) (أذيناثوس ، أذينة في العربية) ان يقصي شابور الاول من الشام بعد أن كان

---

١) تجد نصوصاً تبين بعض الرسوم على البضائع والأثمان باليونانية والتدمرية في كتاب Cooke, pp. 313-332.

هذا الأخير قد اسر الامبراطور فاليريانوس واستولى على جانب كبير من سورية .
وقد ظل اذينة في مطاردة شابور حتى اسوار المدائن (تسيفون) عاصمته وسبق لسيد تدمر أن ابلى بلاء حسناً في نزاع عنيف اشتبك فيه الرومان وآل ساسان الذين تبوأوا عرش الفرثيين (٢٢٦ م) . وكان يقاتل مع الرومان فمنحته المشيخة الرومانية سنة ٢٦٢ م لقب « دوكس اورينتس » اي نائب الامبراطور على الشرق مكافأة له على بطولته في حمايتها . ولما ظهر فضل جهاده في ردع شابور اغدقت رومة عليه اسباب الاكرام والتبجيل حتى انعم عليه الامبراطور غاليانوس بلقب امبراطور فخري واقره قائداً لجيوش رومة في الشرق . وبذلك تمت له السيادة على آسية الصغرى والقطر المصري بصورة اسمية فضلاً عن استئثاره بالسلطة الناجزة على ربوع الشام وشمال الجزيرة وربما كانت بلاد ارمينية خاضعة له . وغدت تدمر اذاً سيدة نافذة الأمر على بلدان آسية الغربية . ولم تك قد مضت سنة على تلك العظمة وذياك المجد حتى قتل أذينة وبكره غيلةً في حمص « اماسا » . ولعل رومة ارتابت في ولائه فاوعزت الى بعضهم أن يريحها منه .

وآلَ الملك من بعده الى زنوبيا (في الارامية بثْ زبّاي وفي العربية الزبّاء او زينب) زوجته الجميلة الطموحة فاتبعت سياسة زوجها واشرفت على شؤون الدولة وصيّة على العرش ريثما يبلغ ابنها القاصر سن الرشد وكان اسمه وهب اللات (اي عطية اللات وفي اليونانية اثنودورس) . واتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق وتحدت رومة نفسها مدة من الزمن . ثم عقدت عزمها ، وكان كعزم الرجال ، على توسيع ارجاء ملكها حتى ضمت مصر وقسماً كبيراً من آسية الصغرى وخضدت شوكة الرومان فتراجعوا الى انكرا (انقره) وطوحت بجيوشها الى خلكيدون تجاه بيزنطة محاولة احتلال تلك البقعة السحيقة . وفتح جنودها البواسل الاسكندرية ، أهم مدن الامبراطورية بعد العاصمة ، فنودي بابنها القاصر ملكاً على مصر .
وضربت المسكوكات خالية من رسم رأس اورليانوس الذي كان ينقش عليها . ويعود

معظم الفضل في انتصاراتها الرائعة الى ذكاء قائديها زباي وزبدا من ابناء تدمر.

واخيراً اهتم اورليانوس للأمر فجرد جيشه وغلب زبدا في واقعة انطاكية وواقعة اخرى بجوار حمص. ثم دخل تدمر ظافراً في ربيع ٢٧٢ وقد فرت ملكتها العربية على ذلول سريعة هاربة يائسة في مجاهل الصحراء. ولكن لم تنج من أيدي الامبراطور فحملها اسيرة وامر ان تغل يداها باطواق من ذهب ويسار بها امام مركبته عند دخول موكبه الظافر الى رومة. ونمي اليه وهو في طريقه الى رومة خبر نشوب الثورة في تدمر فعاد ادراجه اليها وامعن باسوارها هدماً وتخريباً ودك معظم معالمها الى الاساس وقضى عليها. اما حلي هيكل الشمس البديع وذخائره فنقلها الى الهيكل الجديد الذي احدثه برومة واقامه لاله الشمس الشرقي تخليداً لذكرى ذلك النصر المبين. اما زنوبيا فلقد خلع الدهر حول هامتها هالة من نور الاساطير وخلد اسمها مضافاً الى اسماء الابطال في تقاليد الامة العربية امثال سيف ابن ذي يزن وعنترة وصلاح الدين وبيبرس وكلهم حي في الأدب القومي العامي.

كانت مدنية تدمر مزيجاً غريباً من العناصر اليونانية والسورية والفرثية (الايرانية) واهمية تلك المدنية لا تقوم على ما فيها من مزايا العظمة فحسب، بل هي كمدنية الأنباط التي تقدمتها تمثل ذرى الثقافة التي باستطاعة العرب من بني البادية ان يبلغوها اذا ما تسنت لهم المهيئات. والقول ان التدمريين هم من العرب تثبته اسماؤهم العلمية وورود الفاظ عربية جمة في رقمهم الارامية. وكانت اللغة التي يتكلمونها لهجة من اللهجات الارامية الغربية ليس بينها وبين لغة الانباط والارامية المصرية الا بون يسير. اما دياناتهم فقد اتصفت بمزايا النظام الشمسي الذي تركزت عليه ديانة عرب الشمال. وكان على رأس الآلهة عندهم شمش (شمس). ويظهر في الرقم النذرية التي خلفوها اسم «بعل شمين» (سيد السماوات) واسماء مالا يقل عن عشرين معبوداً آخر في تدمر.

ومن يتعم النظر في اطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدنية الزاهرة التي كانت

لأهل هذه العاصمة ، ويتبين ان بناء المدينة جاء وفقاً لتصاميم وضعها لها جماعة حذاق مهرة في هندسة البناء . وقد حمل اليها حجارة ضخمة من الغرانيت من شلال النيل الاول بمصر من مسافة تزيد على الألف ميل . وكان يحف بشارع المدينة الرئيسي نحو ٧٥٠ عاموداً كورنثياً من الحجر الكلسي الأبيض الوردي ارتفاع كل منها نحو خمسة وخمسين قدماً ، ولا تزال بعض تلك الاعمدة قائمة فيها . وكان اول الشارع



شارع الاعمدة في تدمر

العظيم بقرب قوس النصر الفخم الذي رفعوه الى جانب هيكل معبودهم الاكبر شمش ، ومن ثمة يمتد مسافة ثلاثة ارباع الميل شمالا . ولا يزال هيكل الشمس هذا اروع اثر لمجد تدمر القديم وكان منذ بضع سنوات مقر البلدة الحالية باسرها . وهناك ابراج عالية كانت قبوراً وتظهر فيها آثار البذخ والعظمة وتعد فريدة بين آثار العصور القديمة . ونرى في تدمر اليوم آثاراً لأقنية عظيمة تحت الارض وبقايا أحواض لاختزان الماء في ظاهر المدينة مما يدل على ان تلك الارض ، التي تبدو اليوم جرداء مجدبة ، كانت بفضل هذه المنشآت خصبة صالحة للزراعة .

ولم يدم مجد تدمر طويلاً فتحولت التجارة عنها الى خطوط جديدة فظهرت مدينة بصرى (بسترا) حوران وسواها من عواصم غسان فخلفتها وورثت مكانتها كما ورثت تدمر من قبل مكانة البتراء .

٣. الغساسنة

ارجع بنو غسان انسابهم الى قبيلة قديمة من عرب الجنوب كان يرأسها فيما مضى عمرو مزيقياء ابن عامر ماء السماء . وقيل انه هجر اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد عند انفجار سد مأرب واستوطن ارض حوران [١] والبلقاء . اما مؤسس دولتهم فجفنة ابن عمرو . ولقد ذكر ابو الفداء في تاريخه [٢] لاسرة غسان المالكة واحداً وثلاثين عاهلا . غير ان حمزة الاصفهاني [٣] جعلهم اثنين وثلاثين ، اما المسعودي [٤] وابن قتيبة [٥] فاحد عشر فقط . وانت ترى في اختلاف مؤرخي العرب على عدد ملوك غسان دليلا لما يحوط اسرة جفنة من الغموض [٦] .

ونزحت هذه القبيلة من اليمن فاحتلت الارض التي كان بنو سليح قد سبقوهم اليها وشيدوا فيها أول ملك للعرب في الشام ، فاستقر الغساسنة في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل العظيم الذي كان يربط مأرب بدمشق . وكرت الاعوام فاذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الارامية لغة لها . الا انها لم تهجر لسانها العربي الاصلي بل ان ابناءها اصبحوا كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة . وقبل انقضاء القرن الخامس للميلاد غشت ارض غسان مؤثرات سياسية ادخلتها ضمن دائرة

١) هي حورانو في الاشورية ، وباشان في التوراة واورانيتس في آداب اليونان والرومان ، وان جبل الدروز اليوم داخل ضمن نطاق حوران . قابل ايضاً Luckenbill, vol. i, §§ 672, 821

٢) ج ١ ص ٧٦ـ٧

٣) مختصر تاريخ البشر ١١٥ـ٢٢

٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٧ـ٢١

٥) كتاب المعارف ، نشر وستنفلد ، (غوتنغن ، ١٨٥٠) ص ٣١٤ـ١٦

٦) امراء غسان لنولدكه ترجمة جوزي وزريق (بيروت ، ١٩٣٣) ص ٤

النفوذ البيزنطي السياسي . وقد قصد الروم بذلك ان يجعلوها حاجزاً لرد هجمات البدو. ولما كان من مصلحة الغساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها ولكن على المذهب المونوفيزي ـ مذهب اصحاب الطبيعة الواحدة ـ وهو المذهب الوطني الغالب في البلاد السورية . ولم يكن لهم في مطلع عهدهم عاصمة الا مخيم يتنقلون به من ارض الى ارض حتى استقرت بهم الحال فيما بعد في جابية الجولان فاقاموا لهم مركزاً في جلق (١) استقروا به مدة من الزمن .

الدولة السورية العربية في ابان مجدها

وقد بلغت دولة غسان اوجها خلال القرن السادس للميلاد وهو عصر ازدهار دولة اللخميين قريبتها ومنافستها في الحيرة . ويكاد يقتصر تاريخ العرب في هذا القرن على مآتي الحارث الثاني ابن جبلة ملك غسان (نحو ٥٢٩ ـ ٦٩) والمنذر الثالث ابن ماء السماء ملك الحيرة (المتوفى ٥٥٤) وقد كان الحارث هذا (ويلقب بالاعرج) اول رجال الاسرة الجفنية الذين يقرهم التاريخ بل هو اعظمهم على الاطلاق ونستطيع التحقق من سيرته اذا قابلنا حوادثها بما ذكرته المصادر الاغريقية . والمعلوم من امره انه فاز على خصمه الاشد المنذر الثالث ملك لخم فكافأه يوستنيانوس امبراطور بيزنطة على ذلك وعينه (٥٢٩) على قبائل العرب في سورية وانعم عليه بلقب باتريسيوس ـ بطريق ـ ولقب فلاركوس ـ رئيس قبيلة او شيخها ـ وهما اعلى المراتب بعد السدة القيصرية ، فلا يفوقها الا رتبة الامبراطور نفسه . ولم تقم العرب للقب الرومي وزناً بل عرفت اميرها ملكاً فحسب .

وقضى الحارث اكثر ايام ملكه يقاتل في سبيل بيزنطة ويدأب على خدمة غاياتها . وفي السنة التي انعمت عليه فيها بيزنطة بالالقاب معولة على التذرع به وبقومه للذود عن حدودها تم له الاشتراك معها في قمع ثورة السامريين . وبعد عشر سنين انقض على المنذر يحاربه . وفي سنة ٥٤١ حارب الفرس انفسهم الى جانب

١) راجع Leone Caetani, *Annali dell' Islam* (Milan, 1910) vol. iii, p. 928.

الروم تحت قيادة بلساريس . وحوالي ٥٤٤ عاد الاميران العربيان الى القتال فوقع احد ابناء الحارث في يد المنذر - الذي كان لا يزال على دينه الوثني - فقدمه ذبيحة للآلهة العزى ، التي كان يقابلها عند الاغريق افروديت . ثم بعد مضي عشر سنوات فاز الحارث ابن جبلة في معركة حاسمة في ناحية قنسرين قتل فيها خصمه المنذر فتمت له النقمة . ولعل هذا اليوم الذي انتصر فيه الحارث هو « يوم حليمة » الشهير في اخبار العرب المنسوب الى حليمة بنت الحارث التي قامت تحض الرجال على قتال الاعداء، واقبلت على مئة منهم كان ابوها قد وجههم الى الحرب تطيب اجسامهم وتلبسهم الاكفان والدروع [١] .

وسافر الحارث الى القسطنطينية لزيارة بلاط يوستنيانوس الاول ٥٦٣ . فاعجبت بطانة القيصر بمرأى ذلك الشيخ العربي وما عليه من مسحة البداوة . ويقال ان يوستينوس ابن اخي القيصر الذي خلفه راعته سيماء الامير العربي وطلعته الغريبة حتى اذا ما بلغ من العمر عتياً واصابه الخرف - فيما تقول القصة - كان اهل خاصته بالبلاط اذا شاؤا الخلاص من عربدته يخيفونه بالحارث قائلين « صه ! هوذا الحارث جاء ليأخذك ! » فلا يكاد يسمع كلامهم حتى تأخذه سورة من الفزع فيسكت . واغتنم الحارث فرصة مكثه في القسطنطينية فعمل على تعيين يعقوب البردعي [٢] وهو مطران الرها واحد انصار البدعة المونوفيزية المعروفين باصحاب الطبيعة الواحدة اسقفاً على الكنيسة السورية العربية . وبلغ من غيرة هذا الاسقف وحميته في بث اصول ديانته ان صارت الكنيسة المونوفيزية بعده تعرف بكنيسة اليعاقبة .

المنذر ابن الحارث

وخلف الحارث ابنه المنذر . فما كاد يستتب له الأمر حتى هب لمحاربة قابوس ابن هند ملك الحيرة الذي كان قد اغار على اراضي الغساسنة من قبل ، فدحره في

١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٤-١٥ ؛ وقابل ابا الفداء ج ١ ص ٨٤
٢) بردعانا في السريانية اي لابس البردعة لانه كان يرتدي اللابس الخشنة .

وقعة تغنى بها الشعراء فيما بعد وتعرف بمعركـة عين أباغ . وحذا المنذر حذو ابيه فأخذ بناصر البدعة المونوفيزية فاحنق عليه بيزنطة موقتاً . وأنبرى الغساسنة الى شق عصا الطاعة واعلان الثورة طيلة ثـلاث سنوات فارغموا الروم على استرضاء الامـير الجفني . وتم الاتفاق فعقد الصلح بين بيزنطة والحارث (نحو ٥٧٥) في الرصافة [١] عند قبر القديس سرجيوس . وسنة ٥٨٠ وصل المنذر مع ابنين له الى القسطنطينية فاحتفى به طيباريوس الثاني واعلى مقامه فانعم عليه بـ « التاج » الابهى عوضاً عن « الاكليل » البهي الذي كان يتقلده . وفي تلك السنة اغار المنذر على الحيرة واباد بالنار عاصمة اعدائه اللخميين . غير ان الفوز الذي تكلل بـه جبين الامير العربي في هذه الغزوة لم يمح ريبة الروم في ولائه فقاموا يلصقون به ما الصقوا بابيه من الخيانة لدولتهم ، حتى اذا حضر تدشين احدى الكنائس في حوّارين قرب القريتين بين دمشق وتدمر القي القبض عليه وارسل مخفوراً الى القسطنطينية ونفي منها الى صقلية . اما ابنه وخلفه النعمان الذي شن الغارة على بيزنطة وعاث فساداً في اراضيها فان الروم قبضت عليه واخذته اسيراً الى القسطنطينية .

زوال دولة غسان

وغمرت امواج الفوضى بلاد غسان عقب عصر المنذر والنعمان وتفككت عرى الوحدة في بادية الشام فاختارت كل قبيلة اميراً . وما ان طغا كسرى ابرويز من آل ساسان على الشام واستولى على بيت المقدس ودمشق (٦١٣ ـ ١٤) حتى ضاعت بقية الأمل في انتعاش الاسرة الجفنية . ولسنا نعلم أأعاد هرقل الامـارة السورية العربية يوم زحف على الشام فاسترجعها (٦٢٩) ام لا . ويعتبر مؤرخو العرب جبلة ابن الايهم آخر ملوك غسان . وقد شارك جبلة الروم في قتـال العرب في وقعـة اليرموك . ولـكنه ما لبث ان اسلم في ايام الخليفة عمر وقدم الى مكة حاجاً بعـد

---

١) سميت رصافة الشام من بعد للتمييز بينها وبين رصافات العراق . ثم اعاد الخليفة هشام ابن عبد الملك رصفها فعرفت برصافة هشام .

استئذان عمر ابن الخطاب ، فسر بذلك عمر والمسلمون . وبينا هو يطوف بالبيت الحرام اذ وطيء ازاره – كما يحكى – اعرابي من بني فزارة فحله ، فلطمه جبلة وهشم أنفه. فرفع الاعرابي امره الى الخليفة فبعث اليه عمر ان يرضي الاعرابي والا اقاده منه . فلما دنا جنح الليل خرج هو واصحابه فلم يثنِ حتى دخل القسطنطينية [١]

ولا ريب ان الغساسنة ، وهم جيران البيزنطيين ، كانوا ارقى ثقافة من مناظريهم اللخميين المقيمين على تخوم فارس . ولقد نشأت في عهدهم وفي اوائل الحقبة الرومانية مدنية خاصة بهم ازدهرت على طول الشقة الشرقية من سورية ، وهي خليط من عناصر عربية وسورية واغريقية . وكان مهندسو الرومان في فجر القرون الميلادية قد استغلوا سيول الماء المتدفق من اعالي حوران وجبالها في امور الزراعة . ويبلغ ارتفاع هذه الجبال ٦٠٣٢ قدماً . وكان سقوط المطر فيها عظيماً . اما القضاء الذي نراه اليوم قفراً موحشاً فقد كان في زمن غسان عامراً بالقرى والدساكر وفيها المنازل التي شيدت من الرخام الاسود والقصور واقواس النصر والحمامات العمومية والاقنية الارضية والمسارح والبيع . ولا تزال انقاض قصورهم ظاهرة في بصرى وفي انحاء الشرق والجنوب من جبال حوران وهناك آثار لزهاء ثلاث مئة بلدة وقرية حيث لا نرى اليوم الا القليل من القرى العامرة .

ووفد بعض شعراء الجاهلية الى امراء غسان فاحسن هؤلاء وفادتهم وبالغوا في اكرامهم منهم لبيد احدث اصحاب المعلقات السبع سناً ، ولقد قاتل الى جانب غسان في يوم حليمة ، والنابغة الذبياني شاعر البلاط عند المناذرة فانه لما انقلب عليه النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لجأ الى الغساسنة فرحب به ابناء الحارث وطاب مثواه في بلاطهم . وممن لحق بالغساسنة شاعر يثرب (المدينة) حسان ابن ثابت وزعم انه كان يمت اليهم بنسب وقد وفد الى بلاطهم في حداثة سنه قبل ان يصبح شاعر النبي محمد ، وأشاد في شعره بما كانوا عليه من البذخ والرخاء . ونسبت اليه رواية

---

١) ابن عبد ربه ، العقد ، ج ١ ص ١٤٠–٤١

لا يوثق بصدقها [١] تشرح ما اتصف به مجلس جبلة من الغنى والبهجة والترف وقد غنت فيه قيان ومغنون من مكة والحيرة وبلاد الروم وجلس القوم للشرب والطرب [٢] .

٤ . دولة لخم

كان العرب منذ اقدم الازمان يفدون الى تخوم الجزيرة الشرقية حتى اذا ما وصلوا وادي الفرات اقاموا في ربوعه . وفي اوائل القرن الثالث للميلاد بدت طلائع جديدة منهم من قبائل تنوخ وترجع انسابها الى اصل يمني ، فاتخذت لها مساكن في المنطقة الخصيبة الواقعة الى الغرب من الفرات . وليس غريباً ان يكون قدومهم قد وافق فترة الاضطراب التي تلت سقوط الدولة الارساسية من اسرة الفرثيين وتأسيس الاسرة الساسانية (٢٢٦) بقيادة ارد اشير بابكان (٢٢٦ ـ ٤١ م) .

وسكنت تنوخ لاول عهدها الخيام ومضت الاعوام فاذا المخيم يصبح قاعدة راهنة تعرف بالحيرة (من السريانية حرتا اي مخيم) على بعد نحو ثلاثة اميال جنوباً من الكوفة وهي ليست ببعيدة من بابل القديمة . ثم اصبحت الحيرة عاصمة بلاد العرب الفارسية .

واخترقت السواقي والترع ارض الحيرة فازدانت سهولها بحقول الحبوب وحدائق النخيل . وكان هواؤها من الطيب والجودة بحيث قال العرب في وصفها « يوم وليلة بالحيرة خيرٌ من دواء سنتين » .

وكان سكان الحيرة الاصليون نصارى من اتباع الكنيسة السريانة (السورية) الشرقية (وسميت النسطورية فيما بعد) . ويسميهم مصنفو العرب العباد (اي عبّاد عيسى) . ونقل عن هشام ابن محمد الكلبي [٣] (المتوفى ٨١٩ او ٨٢١ م)

١) ابو الفرج الاصبهاني ، الاغاني ، (بولاق ، ١٢٨٤ـ٥) ج ١٦ ص ١٥
٢) وفي لبنان الجنوبي اليوم أسر ترجع أنسابها الى الغساسنة .
٣) الطبري ، تاريخ ، ج ١ ص ٧٧٠

وهو من أجلّ الثقات باحوال عرب الجاهلية انه كان يذهب الى بيع الحيرة وفيها ملكهم واموزهم كلها يستخرج منها اخبار العرب وانساب قبائلهم التي نزلت العراق. وقد تنصر بعض التنوخيين فيما بعد واقاموا في شمال سورية [١] .

وفي كتب الاخبار ان مالكاً ابن فهم الازدي [٢] كان اول من ولي الامر في هذه الجالية العربية بالعراق . اما ابنه جذيمة الابرش فكان عاملاً لارداشير [٣] ، ملك الفرس . ومما يحكى ان جذيمة اراد الزواج بالزّباء (واسمها نائلة) بنت عمرو ابن ظرب ابن حسان ابن أذنية وهي أخت زبيبة [٤] بعد ان قتل اباها . ولا ريب في ان هذه السيدة هي زنوبيا ملكة تدمر . ويقال ان جذيمة اسس امارة سبقت دولة لخم وضمت الانبار والحيرة . على ان المؤسس الحقيقي لدولة لخم هو عمرو ابن عدي ابن نصر ابن ربيعة ابن لخم وهو ابن اخت جذيمة التي كانت قد تزوجت من مولى لجذيمة . وعمرو ابن عدي اول من استوطن الحيرة من ملوك العرب فاصبحت عاصمة ملكه .

واستتب الملك للاسرة النصرية اللخمية في أواخر القرن الثالث للميلاد فكان ذلك مفتتح التاريخ الجلي لتلك البلاد العربية . اما ملوك لخم الذين اتصلت بنا اسماؤهم فيزيدون عن العشرين . ولكن اول ملك لدينا صورة واضحة عن شخصيته هو امرؤ القيس [٥] الاول (المتوفى ٣٢٨ م) الذي وجد العالم دوسو كتابة على ضريحه في النمارة بالصفا (حوران) هي اقدم كتابة بالخط العربي الاول . وتشف احرف هذه الرقم عن اصلها المأخوذة عنه وهو احرف الكتابة النبطية ، وتنم على

---

١) اما التنوخيون الذين نزحوا الى لبنان الجنوبي بعدئذ فقد اعتنقوا الديانة الدرزية ، وهم يرجعون انسابهم الى ملوك لخم بالحيرة . قابل Hitti, *The Origins of the Druze People and Religion* (New York, 1928), p. 21.

٢) ان قبيلتي ازد وتنوخ توحدتا فتكونت منهما قبيلة واحدة في العراق .

٣) قام ارداشير فقهر آخر ملوك الفرثيين ثم قتله واصبح سنة ٢٢٦ م مؤسس الاسرة الساسانية في بلاد الفرس .

٤) راجع الطبري ، تاريخ ، ج ١ ص ٧٥٦–٧ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٦–١٧

٥) هو غير امرىء القيس الشاعر الكندي .

طور الانتقال من الحروف النبطية الى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة الى الآن وأخص مزايا هذا الانتقال نشوء طريقة تعليق الحروف بعضها ببعض . واليك مطلع الرقيم الذي نحن بصدده : « تي نفس مر القيس بر ملك العرب كله ذو اسر التاج » اي [هذا ضريح امرىء القيس ملك كل العرب صاحب التاج] [١] .

وكان من ذرية امرىء القيس هذا النعمان الاول الملقب بالاعور (نحو ٤٠٠ - ٤١٨) . وقد ذكرته اشعار العرب واخبارهم بكثير من المديح . قيل انه بنى قصر الخورنق [٢] بظاهر الحيرة منزلا لبهرام كور ابن يزدجرد الاول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) ملك الفرس . وكان يزدجرد قد ارسل بكره هذا بهرام الى عرب الحيرة لينشأ بينهم ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء . ويعد الخورنق من معجزات الفن وبدائعه . وقد نسب مؤرخو الاسلام بناءه الى مهندس رومي يسمى سنمّار كتب له ان يموت ميتة شنعاء معهودة في شتى الاساطير التي تجعل ولي الأمر يقتل الصانع ، وهي فكرة مبنية على أن البناية الفنية الخالدة لا يمكن ان يبني مثلها احد غير بانيها . وفي الاساطير ان النعمان جلس يوماً في مجلسه وكان الفصل ربيعاً يلقي على الطبيعة حلة من الخيال فاستغرق في تأمله وانبعث الجمال حوله ينطق الكائنات سحراً فأخذته روعة من المهابة وتجلت له حقارة حطام الدنيا وادرك انها زائلة لا محالة بما فيها قصره الفخم ، فزهد في الدنيا وعكف على اعمال البر والتقوى فانقلب سائحاً متزهداً . هذه هي القصة اما الواقع من امر النعمان فهو انه ظل طوال حياته وثنياً وسوّل له تعصبه للاصنام الاستئثار ببعض النصارى من رعيته وصرفه العرب عن زيارة القديس سمعان العمودي . الا ان تحامله على النصرانية تلاشى في القسم الاخير من عمره . اما سمعان المذكور فقد كان عربياً تتوافد جموع البادية لمشاهدته وهو يتزهد جالساً في اعلى عموده . ويعزون السر في عدول النعمان عن النقمة عليه الى انّ سمعان نفسه ظهر له في حلم . ولقد اقترن ذكر الخورنق في

١) Dussaud, *Les Arabes en Syrie*, pp. 34-5

٢) لفظة فارسية معناها حصن منيع .

اشعار العرب بذكر السدير وهو قصر في وسط البرية التي بين الحيرة و بين الشام [١] وينسب قصر السدير الى النعمان ايضاً . وما السدير وسواه من حيرات اللخميين اليوم الا اسماء حفظها الناس عن اسلافهم مجهولة اماكنها اللهم الا الخورنق .

الحيرة في ذروة زهوها

ولقد ازدهرت الحيرة في ايام المنذر الاول (نحو ٤١٨ - ٦٢ م) وهو ابن النعمان وخليفته ، ونالت منزلة في شؤون ذلك العصر . وبلغت مهابة المنذر درجة امكنته من حمل كهنة الفرس على تتويج بهرام الذي كان والد المنذر يرعاه ويشرف على تربيته كما اسلفنا القول فاذعنوا لاشارته غير عابئين بمساعي مدّع آخر قوي كان يطالب العرش . وخرج المنذر سنة ٤٢١ بتعبة سيده ملك ساسان لقتال البيزنطيين .

وجلس على عرش الحيرة في النصف الاول من القرن السادس المنذر الثالث (نحو ٥٠٥ - ٥٤ م) . وهو المعروف بابن ماء السماء وماء السماء لقب امه مارية او ماوية . وكان عهده اسطع عهود الدولة اللخمية بالرغم من البلايا والمحن التي تناوبته في مطلع ملكه وآخره . ولم يمض على تسنّمه الولاية الا زمن قصير حتى حمل الحارث ابن عمرو ملك كندة على نواحي الفرات الجنوبيـة وضاقت الحيرة ذرعاً بذلك العدو الطامع الذي ارغم المنذر على الجلاء عن عاصمته ، الا انه عـاد اليها من بعد وذلك قبل استواء انو شروان على العرش (٥٣١) بما يقارب الحولين . واقبل المنذر على محاربة الروم في سورية فقهرهم واوقع بهم واستتبع الغارة تلو الغارة على مدائنهم الى حدود انطاكية فعم الارض الدمـار الى ان نشط الغساسنة الى محاربته فكان الحارث ابن جبلة عامل يوستنيانوس خصما كفؤاً له . والمنذر هذا هو الذي اسر احد ابناء الحارث فقدمه ذبيحة للعزى . ويقال انه قدم اربع مئة راهبة نصرانية ذبيحة لتلك الالهـة نفسها . ثم قُلب له ظهر المجن فقتـل في يوم حليمة

---

١) ياقوت ، بلدان ، ج ٢ ص ٣٧٥

سنة ٥٥٤ كما اسلفنا . وفي كتاب الاغاني [١] قصة ممتعة جاء فيها ان المنذر ابن ماء السماء نادمه رجلان فاغضباه في بعض المنطق فامر بان يحفر لكل واحد حفرة بظاهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين . فلما اصبح سأل عنهما فاخبر بهلاكهما فندم على ما فعل وامر ببنـاء الغريّين عليهما وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عنـد الغريين يسمى أحدهمـا يوم نعيمه والآخر يوم بؤسه ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الأبل واول من يطلع عليـه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ورش بدمه الغريان . ثم ان عبيد ابن الابرص كان اول من اشرف عليـه في يوم بؤسه وهو من الشعراء المجيدين فلم ينج من الموت . وطال الامر بالمنذر وهو على هذا العهد حتى مرّ به رجل من طيء اسمه حنظلة ابن عفراء في يوم بؤسه . فاطلقه المنـذر بكفالة شريك ابن عمرو على ان يعود بعد سنة . ولما آن الأوان جلس المنذر ينتظر حنظلة فابطأ عليه فامر بشريك ليقتله ، فلم يشعر الا براكب قد طلع عليهم فتأملوه فاذا هو حنظلة قـد اقبل متكفناً متحنطاً معه نادبته . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فاطلقهما وابطل تلك السنّة .

وخلفه ابنه عمرو ابن هند (٥٥٤ ـ ٥٦٩ م) فكان فخوراً عاتياً وجعل الحيرة موئل الادباء والشعراء فـامّ مجلسه اعاظم الشعراء المعاصرين مثل طرفـة ابن العبد والحارث ابن حلزة وعمرو ابن كلثوم (وهم من اصحاب المعلقات السبع) . ولقـد نسج عمرو على منوال سواه من ملوك لخم وجفنـة الذين ادركوا ان الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين العرب يديرون دفـة الدعاية كيف شاءوا ، فلم يال جهداً في اكرامهم وغمرهم بفضله كما فعل سواه من الملوك طمعاً في اجتذاب العرب اليه . الا ان عمراً مات مقتولا والسبب في قتله فيما يروى ان ابن كلثوم ، احـد امراء الشعر الذين اموا بلاطه ، غضب يوم دخلت امه ليلى ابنة المهلهل على الملكة فلحقها من المهانة ما لم تطقه نفسه فوثب الى سيف معلق في الرواق وضرب به راس

١) ج ١٩ ، ص ٨٦ ـ ٨ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣١٩ ؛ الاصفهاني ، تاريخ ، ص ١١١ حيث جعل النعمان الثالث ابو قابوس بطل القصة .

الملك . وكان الاخطل شاعر الامويين متحدراً من قبيلة تغلب التي انتسب اليها عمرو ابن كلثوم ففاخر بعمّيه قائلاً :

أبني كليب ان عمّيّ اللذا قتلا الملوك وفككا الاغلالا (١)

تنصر الاسرة المالكة

كانت هند ام عمرو اميرة نصرانية غسانية . وقال بعضهم انها بنت الحارث ابن عمرو ابن حجر آكل المرار الكندي . وبنت في الحيرة ديراً يعرف بدير هند بقي الى القرن الثاني الهجري (٢) . ولقد اورد ياقوت (٣) الكتابة التي كانت على واجهة الدير جاء فيها « بنت هذه البيعة هند ... امة المسيح وام عبده [عمرو] وبنت عبيده » .

وفي اهل الحيرة آنئذ عدد من النصارى يثبت ذلك كثرة الاشارات الى اساقفة الحيرة . واقدم من وصلنا خبره منهم اسقف عاش نحو سنة ٤١٠ .

وسقطت الاسرة اللخمية على عهد النعمان (٤) الثالث الملقب بابي قابوس (نحو ٥٨٠ ـ ٦٠٢) وهو ابن المنذر الرابع . ولقد نشأ النعمان في حجر عائلة نصرانية ذات حسب ونسب أحد افرادها عديّ ابن زيد الذي اصبح شاعراً كبيراً من بعد . فكان والد عديّ يتعهد شؤون الامير في صغره وبعد اعوام تطرق الى قلب عديّ هوى هند ابنة النعمان ولها من العمر احدى عشرة سنة . وقد رآها مرة في البيعة واحبها وما لبث ان تزوجها (٥) . وبعدئذ اصاب عديّ منصباً سامياً عند خسرو

١) ديوان الاخطل ، نشر صالحاني (بيروت ، ١٨٩١) ص ٤٤

٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ص ١٨٨٢ ، ١٩٠٣

٣) بلدان ، ج ٢ ص ٧٠٩

٤) وذكره خالد ـ على ما في الاساطير ـ في زهر شقائق النعمان ، ويقال ان النعمان احتكر زراعته فلم يعرف الا في حديقته الملكية . ولكن هناك اسطورة اقدم عهداً من النعمان تجعل الاله ادونيس (تموز) ينقلب زهرة من شقائق النعمان حين خرج للصيد وهاجه خنزير بري فانفذ نابه في جسمه وقتله . ولا يزال الاله ادونيس يعرف بهذا اللقب الى يومنا الحاضر .

٥) الاغاني ، ج ٢ ص ٢٢و٣٢

ابرويز فاذا به ترجمانه وكاتبه بالعربية . فلم ينس عديّ صديقه الأمير النعمان بل اشار على ابرويز ملك الفرس ان يوليه عرش الحيرة فاجابه كسرى الى ما طلب الا ان النعمان لم يبر به ولم يكافئه خيراً بل ما زال يحمل على عديّ حتى حبسه ثم أمر بقتله . ولكن لم يطل امر النعمان حتى كاد له زيد ابن عديّ الذي كان قد توصل الى ابرويز وحل محل أبيه واراد أن ينتقم من النعمان فوشاه الى ابرويز فالقاه تحت ارجل الفيلة فوطئته حتى مات [١] . وكان النعمان من ممدوحي الشاعر المشهور النابغة الذبياني قبل ان يطرد هذا من الحيرة بتهمة كاذبة . فلقد نشأ النعمان اذاً في بيت نصراني ، واتخذ النصرانية ديناً واصبح الملك النصراني الوحيد من ملوك لخم . ولم يدخل احد من الاسرة اللخمية في حظيرة هذا الدين من قبل لما قضت به مصلحتهم السياسية من مراضاة الفرس عبدة الاوثان . الا ان النعمان انخرط في سلك الكنيسة السورية الشرقية (النسطورية [٢]) وتقبل معموديتها ، وهي اقل كنائس النصرانية كراهية عند الفرس .

لم تصل المدنية العربية في الحيرة وهي مواجهة لفارس الى الدرجة العالية التي وصلت اليها المدنيات العربية في البتراء وتدمر وبلاد غسان تحت تأثير المدنية السورية البيزنطية ، وكانت لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يرطنون بها في معاملاتهم العادية ولكنهم استعملوا السريانية في مكاتباتهم . فشأنهم اذاً شأن الانباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية . وقام النصارى من سكان جنوبي الفرات بدور المعلمين للعرب الوثنيين يعلمونهم القراءة والكتابة والدين . ومن الحيرة سارت الى الجزيرة نفسها مؤثرات الحضارة . ويقول البعض ان الكنيسة

---

١) ابن قتيبة ، المعارف ، ٣١٩

٢) رفض النساطرة الرأي القائل باتحاد طبيعتي السيد المسيح في شخص واحد وذهبوا الى انه ذو شخصيتين متميزتين تماماً تجمعهما روابط الالفة الوثيقة . وتسمى النساطرة باسمهم نسبة الى نسطوريوس مطران القسطنطينية ٤٢٨-٣١ م .

السورية في الحيرة يرجع اليها الفضل في ادخال النصرانية الى نجران . وفي الاخبار التي حفظها ابن رسته [١] ان قريشاً انما اخذت الكتابة من الحيرة واخذت الزندقة [٢] من الحيرة ايضاً . ويتضح لنا من ذلك ان مؤثرات الثقافة الفارسية سرت الى الجزيرة ايضاً بواسطة المملكة اللخمية .

وضاعت صولة لخم بعد النعمان ولما ملك اياس ابن قبيصة من بني طيء (٦٠٢ ـ ١١) كان الى جانبه « مقيم » فارسي يشرف على مهام الحكومة . والواقع ان ملوك فارس الغوا نظام الامارة العربية وولوا من قبلهم حكاماً فرساً يخضع لهم زعماء العرب . وعلى هذا المنوال استمر الحال حتى سنة ٦٣٣ م حين استسلمت الحيرة [٣] للجيش الاسلامي الذي كان يقوده خالد ابن الوليد .

٥ . كندة

وكما كان الغساسنة عمالا للبيزنطيين واللخميون عمالا للفرس ، كذلك كان ملوك كندة في اواسط الجزيرة عمالا لتبابعة اليمن المتأخرين . ولم تعرف الجزيرة حكاماً سواهم نودي احدهم بلقب ملك . فقد جرى العرب عادة على اطلاق هذا اللقب على الملوك الاجانب .

ومع ان كندة هي من عرب الجنوب ، وكانت تقيم قبل الاسلام في الأرض الواقعه الى غربي حضرموت ، فانا لا نجد لها ذكراً في الرقم العربية الجنوبية الاولى واول ذكر لها في التاريخ انما جاء في القرن الرابع للميلاد . اما باني مجد اسرتها المالكة فهو حجر ويلقب بآكل المرار [٤] . ولقد روت الاخبار انه رضيع حسان

---

١) الاعلاق النفيسة ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٢) ص ١٩٢ و ٢١٧ وقابل ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٧٣ ـ ٤

٢) زندقة في العربية مأخوذة من زنديك الفارسية ـ مجوسي عابد نار .

٣) لا ترى اليوم حيث كانت الحيرة سوى بضع تلال منخفضة .

٤) المرار عشب يعرف ايضاً بالمرير اذا اكلته الابل قلصت مشافرها فبدت اسنانها ولذلك قيل لحجر آكل المرار لكشر كان به .

ابن تبّع الحميري وان هذا الاخير عينه حاكماً على بعض القبائل التي قهرها (٤٨٠ م) تبّع في اواسط الجزيرة [١] وخلفه في هذه الزعامة ابنه عمرو . وكان له ابن هو الحارث اصبح من بعد اشد ملوك كندة بسالة واقداماً . فتوسل بعد موت ملك الفرس ، قباذ ، بمدة يسيرة الى ان يقيم نفسه ملكاً على عرش الحيرة (نحو ٥٢٩ وظل على حاله الى قيام المنذر الثالث من امراء لخم . وفتك هذا بالحارث سنة ٥٢٩ وعبث بافراد الاسرة المالكة فافنى منهم خمسين نفساً وكانت ضربة قاضية على كندة ولعل الحارث اقام في الانبار ، وهي مدينة على الفرات تبعد اربعين ميلاً الى الشمال الغربي من بغداد .

وقام الخلاف بين ابناء الحارث وكان كل منهم يتزعم قبيلة فادى هذا الخلاف الى انحلال وحدة كندة وتلاشي الدولة الفتية . اما الباقون من ابناء كندة فرجعوا الى منازلهم بحضرموت . وبهم انقرضت معالم دولة نشطت الى مناظرة الحيرة فكانت هي وغسان الدولتين اللتين نازعتا الحيرة البقاء . وتكوّن من الثلاثة مجموعة دولية كانت تتطاحن وتتنافس على الزعامة بين عرب الشمال . اما الشاعر امرؤ القيس ، احد أصحاب المعلقات ، فينتسب الى الاسرة الكندية الملكية . ولقد حاول استرجاع جانب من ميراثه الضائع فذهبت محاولاته أدراج الرياح . واشعاره مليئة بالحقد والبغيضة لبني لخم . ثم انه قصد قيصر الروم يوستنيانوس في القسطنطينية أملاً ان يظفر بعطفه وعونه وهو معروف بعدائه للحيرة . واثناء عودته ــ على ما روته الاخبار ــ مات مسموماً (نحو ٥٤٠) عند انكرا (انقرة) . وقيل ان يوستنيانوس وجه الى امرئ القيس بحلة قد نضح فيها السم فلما لبسها تقطع جلده فمات [٢] .

ولقد نبغ في صدر الاسلام عدد من ابناء كندة فيهم النبي الكذاب المعروف باسم المقنّع الذي ظهر في خراسان والزعيم الحضرمي الاشعث ابن قيس الذي اشتهر في

١) الاصفهاني ، تاريخ ، ص ١٤٠ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٠٨

٢) اليعقوبي ، تاريخ ، نشر هوتسما (ليدن ، ١٨٨٣) ، ج ١ ص ٢٥١

فتوح الشام والعراق ومن ذريته من خدم الامويين فتولى رفيع المناصب في الدولة . اما الفيلسوف الذائع الصيت يعقوب ابن اسحاق الكندي فليس من كندة بل من مواليها .

ولا تنحصر اهمية كندة فيما اتى به ابناؤها من الاعمال وما حازوه من مجد وسؤدد بل بما لها من الفخار العائد الى كونها تمثل اول محاولة قام بها عرب الجزيرة الوسطى لجمع شمل القبائل تحت زعامة واحدة مركزية يتولاها سيد واحد . فكانت محاولتها من هذه الناحية سابقةً افاد منها اهل الحجاز والنبي محمد .

الفصل السابع

الحجاز عشية ظهور الاسلام

يقع تاريخ العرب حسب تقسيمه العمومي في ادوار رئيسية ثلاثة :

١ . دور سبأ وحمير وينتهي في اول القرن السادس للميلاد .

٢ . دور الجاهلية وهو وان شمل عصور التاريخ باسرها من « خلق آدم » الى الرسالة المحمدية فانه بالمعنى الاخص يتناول القرن السابق لظهور الدعوة الاسلامية .

٣ . دور الاسلام ويمتد الى الوقت الحاضر .

العصر الجاهلي

ذهب اكثر الباحثين الى القول بان الجاهلية (١) هي « عصر الجهل والهمجية » بيد ان الحقيقة خلاف ذلك . فالجاهلية في المعنى الصحيح هي ذلك العصر الذي لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع ، ولا نبي ملهم ولا كتاب منزل . فمن الخطأ ان نصف بالجهل والهمجية هيئة اجتماعية امتازت بما امتاز به عرب الجنوب من ثقافة وحضارة قطعت في ميدان التجارة والاشغال شوطاً بعيداً وذلك قبل الاسلام بقرون متطاولة . وقد وردت لفظة الجاهلية عدة مرات في القرآن (سورة آل عمران: ١٤٨ ، المائدة : ٥٥ ، الاحزاب : ٣٣ ، الحجرات : ٢٦) .

ولما كان النبي محمد شديد الرغبة في ان ينزع من عقول شعبه الآراء الدينية لعصر ما قبل الاسلام ، وخاصة الشرك والوثنية ، فانه لتعلقه الشديد بمبدأ التوحيد أعلن ان الدين الجديد يمحو كل ما كان قبله . فحسب المفسرون ذلك ايعازاً لمحو

١) راجع بحثاً في الجاهلية لأحمد امين ، فجر الاسلام ، (القاهرة ، ١٩٢٨) ص ٦-٨٥

كل ما تحدر اليهم عن العصور الماضية من آراء وافكار . ولكن انى لهم ذلك ؟ ان للفكر حياة مستمرة لا يستطيع الانسان ان يميتها تماماً . وليس في مقدرر شخص واحد مهما كان قوياً ان ينقض الماضي بكلمة واحدة .

يختلف السواد الاعظم من سكان شمالي الجزيرة بما في ذلك نجد والحجاز عن عرب الجنوب في انهم اهل بداوة . وتاريخ البدو في غالبه سجل للغارات والمناوشات المعروفة بايام العرب . وكان يكثر في هذه الايام الغزو والنهب ولكن لم يسفك فيها كثير من الدماء . ولسنا نعرف لمتحضري الحجاز ونجد ثقافة قديمة ، فلم يساهموا في شيء من المدنية التي اقامها جيرانهم واقرباؤهم الانباط والتدمريون والغساسنة واللخميون . وكان الانباط ، والى حد اكبر اهل تدمر ، قد اصطبغوا بصبغة التمدن الآرامي . وكان الغساسنة واللخميون الذين نزحوا من الجنوب قد استعمروا ارضاً غمرتهم فيها الحضارة السورية البيزنطية والحضارة السورية الفارسية . اذاً فدراستنا للجاهلية ستنحصر في العرض للوقائع التي خاضت غمارها قبائل البدو الشمالية في القرن السابق للهجرة وتتبع مجاري الثقافة الاجنبية التي تسربت الى مواطن الحضارة في الحجاز عشية ظهور الاسلام .

ليس للباحث في ظلمات الجاهلية الا نور ضئيل من الحقائق المثبوتة يهتدي به . والمصادر التي نتوخاها في دراسة هذه الحقبة التي لم يك لعرب الشمال فيها لغة مكتوبة مقصورة على الروايات والاساطير والامثال وفوق ذلك على الاشعار . ولم يدوّن من هذه الآثار شيء قبل القرن الثاني او الثالث من العهد الهجري – اي بعد انقضاء ما بين مئتين واربع مئة سنة على الحوادث التي عرضت لذكرها . غير ان لهذه المعلومات قيمة وشاناً لا يطعن فيها اصطباغها بصبغة التقاليد والاساطير لان ما تعتقده امة صواباً وان كان خطأ له في نفوس ابنائها التأثير نفسه الذي ينجم عن الاعتقاد بما هو حقاً صواب . ولم تنشأ عند عرب الشمال طريقة للكتابة الا في العهد القريب من عصر محمد . ولم يعثر المنقبون على شيء من آثار الجاهلية (باستثناء

نقش امرئ القيس في النمارة ٣٢٨ م وهو في لغة عربية نموذجية) الا على نقش زبد في الجنوب الشرقي من حلب (٥١٢ م) ونقش حران في اللجا (٥٦٨ م) .

وتقدم القول بان لفظة « العرب » تتضمن بمعناها الواسع سكان الجزيرة على الاطلاق ، اما معناها الخاص فمقصور على عرب الشمال الذين لم يظهروا في الشؤون الدولية حتى عصور الاسلام . وكذلك « اللغة العربية » فانها تدل بمعناها الواسع على لغة سبأ ولغة الحجاز الشمالية . ولكن عندما اصبحت لغة الحجاز لغة الاسلام وخلفت لهجات الجنوب في اليمن غدت اللغة العربية الفصحى بلا نزاع . وعلى ذلك فاننا سنخص فيما سيتلو من بحثنا بلفظة « العرب » اهل الشمال ، وباللغة العربية لغة القرآن .

ايام العرب

كانت ايام العرب مناوشات قبلية تنشأ في الغالب بين القبائل بسبب النزاع على الماشية او المراعي او المياه . وكانت تتوفر فيها فرص للغزو والنهب واظهار أعمال البطولة الفردية والفروسية التي كان يبديها زعماء القبائل المتخاصمة وما يصحب ذلك من قاذع الهجاء الذي كان يترامى به الشعراء ، لسان حال الفرق المتحاربة . ومهما يكن في سجية البدوي من الاستعداد والميل للقتال فانه لم يكن راغباً في الموت . فغمرات الوغى التي خاضها ابطال الجاهلية لم تكن تجري الدماء فيها بغزارة كما اوهمتنا الاخبار . غير ان هذه الايام كانت في الوقت نفسه منفذاً تتخلص به البلاد احياناً من شر ازدحام السكان . وكان هؤلاء السكان عموماً في حالة من العدم اشبه بالمجاعة . وكان حب القتال فيهم داءاً متأصلاً مزمناً . وبفضل هذه الايام اصبح الثأر من اقوى الانظمة الدينية الاجتماعية في حياة البدو .

ويؤخذ مما وصلنا من الاخبار ان ايام العرب هذه كانت تتشابه بما وقع فيها من حوادث . ففي اول الأمر يحتدم النزاع بين بضعة رجال على اثر خلاف على

الحدود او اهانة لحقت أحد الفريقين ، فما تلبث خصومة الافراد حتى تستحيل الى نزاع عام بين الجماعتين وتلتظي نار الحرب مراراً بين المتناوئين الى ان يخمدها توسط قبيلة محايدة فيوضع السلم في نصابه . ولتسوية الخلاف يدفع من كانوا اقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . اما ذكرى النزاع فـلا تموت بانتهاء المعامع بل تبقى بسالة الابطال في مخيلة القوم على مر الايام والاجيال .

كذلك كان يوم بعاث [١] الذي اشتبكت فيـه الأوس والخزرج من قبائـل المدينة وهما مرتبطتان باواصر القربى ، ووقعت معاركه الدامية قبيل هجرة النبي وصحبه الى يثرب بسنين قليلة . اما يوم الفجار الذي عرف بذلك الاسم لوقوعه في الاشهر الحرم فلقد جرت وقائعه بـين قريش واحلافهم من بني كنانـة في جانب والهوازن في الجانب الآخر . واستعرت هذه الحرب ومحمد فتى ويحكى انه شهد بعض وقائعها الاربع [٢] .

حرب البسوس

ومن اقدم الحروب البدوية واشهرها حرب البسوس بـين قبيلتي بكر وتغلب المرتبطتين بصلة القرابة ، وقد حدثت في اواخر القرن الخامس الميلادي في الشمال الشرقي من الجزيرة . وكانت القبيلتان تدينان بالنصرانية وتحسبان ان وائلاً جدهما الاعلى . وكان مصدر الخلاف بينهما ان كليباً سيد بني تغلب جرح ناقـة للبسوس عمة جساس ابن مرة سيد بكر [٣] فدارت رحى الحرب اربعين سنة ـ كما يقول الرواة [٤] ـ وراجت سوق العـداء والغزو والغارات بين الفريقين تستفزهما اقوال الشعراء الحماسية الى ان وضعت الحرب اوزارها حوالي سنة ٥٢٥ بوساطة المنذر الثالث ، ملك الحيرة ؛ فعقد الصلح بين القومين بعد نفاد القوى وكلال السواعد

---

١) الاغاني ج ٢ ص ١٦٢

١) ابن هشام ، السيرة ، ص ١١٧ـ١٩ وعنه نقل ياقوت ، بلدان ، ج ٣ ص ٥٧٩

٢) لا يزال اسم هذه القبيلة مخلداً في « ديار بكر » .

٣) الاغاني ج ٤ ص ١٤٠ـ٥٢ ؛ ابو تمام ، الحماسة ، ص ٤٢٠ـ٢٣ ، العقد ، ج ٣ ص ٩٥

اما ابطال ذلك المعترك الشهير فلا تزال اسماؤهم معروفة عند الخاص والعام من ابناء الشرق العربي . فمن بني تغلب اشتهر كليب ابن ربيعة واخوه البطل الشاعر المهلهل (المتوفى نحو ٥٣١ م) . ومن بني بكر قام جساس ابن مرة . والمهلهل المذكور يعرف عند العامة بالزير بطل سيرة بني هلال الشائقة .

ولقد تركت حرب البسوس أثراً في الآداب العربية لا تمحوه الايام بما حاكه الشعراء من القصائد والاغاني في وصفها . و« أشأم من البسوس » اصبح من الامثال السائرة . والحق ان اقدم شعراء العربية ممن اتصلت بنا آثارهم الادبية كانوا من معاصري تلك الحرب الضروس ، فلا عجب اذا كان لها ولشؤونها هذا الأثر العميق فيما نظموا وتغنوا به .

يوم داحس

وليوم داحس والغبراء قدر لا ينقص عن قدر الايام السابقة بل هو اوضح الفصول المدونة من اخبار الجاهلية . وقد دارت رحى هذه الحرب بين قبيلة عَبس واختها ذبيان في اواسط الجزيرة . وكان للقبيلتين فيما يزعم الرواة جدٌ واحد تقليدي هو غطفان . اما سبب نشوب الفتنة بينهما فهو ان ذبيان أساءت الى بني عبس في اثناء سباق بين جواد لقيس سيد عبس اسمه داحس وفرس لحذيفة سيد ذبيان اسمها الغبراء . وذلك انه لما لاح الفوز لداحس اعترضه قبل وصوله آخر الشوط رجل من ذبيان فسبقته الغبراء . وطالب قيس حذيفة بالرهن فأبى وادعى السبق للغبراء . فثار غضب عبس واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في الشطر الثاني من القرن السادس بعد سلم البسوس بزمن يسير وظلت تظهر في فترات الى ايام الاسلام فتخطت العشرات من سنيه الاولى [١] ثم عقد السلم بين القبيلتين بتدخل الوسطاء . واشتهر في هذه الحرب عنتر (عنترة) ابن شداد العبسي (نحو ٥٢٥ ـ ٦١٥ م) شاعراً ومحارباً [٢] . ولعنترة مكانة في الفروسية عند العرب كمكانة أخيل عند

١) الاغاني ج ٩ ص ١٥٠ ٢) الاغاني ج ٧ ص ١٥٠

الاغريق . وانتجت هـذه الحرب شاعراً آخر مشهوراً هو زهـير ابن ابي سلمى ولقصيدته البديعة ما لقصيدة عنترة من منزلة بين المعلقات .

وتظهر هذه الحروب القبلية مميزات الروح العربية في الجاهلية من عصبية وحمية نهضت بعقلية البدوي تارة الى الفضيلة وهبطت به تارة اخرى الى الرذيلة. وانكشفت فيها بواطن الخلق العربي فاذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردي ، عنيد ، صعب المراس ، تسوّغ له انفته وكبرياؤه القتال دفاعاً عن قبيلته سواء اكانت محقّـة أم مخطئة . فهو يعمد الى مناوأة القبائل الاخرى قريبة كانت ام بعيدة . الا انـه يأبى الانقياد الى النظام ولا يمتثل للأوامر العسكرية بل يطيب له ذلك النوع من الحرب القائم على المناوشات والغارات الفجائية ويستنكر مجابهة العدو في معارك فاصلة.

لغة الشمال العربية وأثرها الكبير

وقل أن نجد بين امم الارض شعباً كالعرب في شدة اعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الانيق الذي يلقى في مجالس الخطابة . ولهم شغف وهيام كبيران بجمال اللغة سواء رأوها مكتوبة ام سمعوها بآذانهم . حتى تمتعت اللغة العربيـة بما لم تتمتع به لغة اخرى من الاستيلاء على عقول الناس والسيطرة على افئدتهم . ومـا اكثر المجالس اليوم في بغداد ودمشق والقاهرة وسواها من العواصم العربية يقوم الخطيب فيها متكلماً في القوم فيحرك نفوسهم ويستفز هممهم بحيث يرتفع بهم الى اعلى درجات الانفعال والتأثر او يلقي عليهم ابياتاً من الشعر تهزهم هزاً او يسمعهم من النثر ما يثير كوامن اشجانهم ويخلب البابهم بالرغم من ان هذا الأدب يرد احياناً في لغة منمقة معقدة يفهمون بعضها ويغلق عليهم البعض الآخر . وللكلام عند العرب رنة يجلوها الاتساق وتبدعها موسيقى الالفاظ فتأتي بما يسمونه السحر الحلال .

والعرب وهم ساميون اقحاح لم يبدعوا او ينشئوا فناً عظيماً خاصاً بهم من الفنون المعروفـة ، لكنهم عبروا عـما تكنه صدورهم من الغريزة الفنية بصورة واحدة : الكلام . فان فاخر الاغريقي بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت هندسة البناء ،

فالعربي يرى قصيدته افضل ما يعبر عن خوالج نفسه الداخلية ، والعبراني يحسب زبوره ابدع ما يفصح عن عقليته . وفي امثال العرب « جمال المرء في فصاحة لسانه » . ولقد قالت العرب ايضاً ان الحكمة وقعت على ثلاث : عقل الافرنج وايدي اهل الصين ولسان العرب [1] . وكانت مزايا الانسان الكامل الاصلية في الجاهلية تشمل الفصاحة اي المقدرة على الكلام والاجادة فيه نثراً وشعراً والرماية والفروسية . ولقد انقادت اللغة العربية بطبيعتها الفذة لاحتباك الكلام واناقته وروعته والنكتة وجوامع الكلم . ثم نزل القرآن في لسان عربي مبين فجمع ما في اللغة من بيان رائع وما في العقلية العربية من ذكاء المخيلة والصفات السيكولوجية التي ذكرنا . ولذا كان اعجاز القرآن اقوى حجة يتمسك بها المسلمون في الدفاع عن صحة كتابهم ودينهم . ولا ريب ان انتصار الاسلام كان الى حد ما انتصار لغة او بالأحرى انتصار كتاب .

ولانقاد مخيلة العربي ونبوغه في اساليب الكلام واصول الفصاحة وتوخّيه الانيق الجيد المتوازن من القول اثر بيّنٌ يعود اليه السبب في بلوغ العرب تلك القمة الشامخة من اتقان الفيلولوجيا (طبعاً لا نعني علم مقابلة الفيلولوجيا الحديث) . ولم يكن لابداعه في هذا العلم مثيل في العلوم الاخرى وللعربي نزعة لحب لغته ورعاية لحرمتها وميل للخطابة والكلام اقتضت حفظ المدونات المكتوبة والاقرار بقداسة القرآن . ولقد قضت هذه الدوافع الثلاثة ان يعنى عناية خاصة بالخط ويلتفت الى الاجادة فيه بحيث رفع مقام الخط الى حيز الفنون الجميلة .

عصر البطولة والفروسية

تحدرت الينا عن عصر البطولة والفروسية في الأدب العربي (وهو يشمل عصر الجاهلية من حوالي ٥٢٥ الى ٦٢٢ م) بضعة امثال واساطير واهم من ذلك طائفة كبيرة من الشعر ـ وقد جمعت هذه الآثار ودونت في ايام الاسلام المتأخرة .

١) قابل الجاحظ ، مجموعة رسائل ، (القاهرة ، ١٣٢٤) ص ٤١ـ٤٣ ؛ العقد ج ١ ص ١٢٥

ولم يكن للعرب في هذا العصر من علوم القدماء شيء يذكر خلا بعض الاصول في السحر وعلم الجوّ (المترولوجيا) والطب . اما الامثال فهي تعبر بصورة دقيقة عن عقلية القوم وخبرتهم في شؤون الحياة وهي غنية بالحكم وجوامع الكلم واللغة العربية حافلة بها . وكان لقمان الحكيم الذي تنسب اليه طائفة كبيرة من حكم الاقدمين واقوالهم حبشياً او عبرانياً . ولقد نقلت الاخبار اسماء عدد من حكماء الجاهلية وحكيماتها منهم اكثم ابن صيفي وحاجب ابن زرارة وهند بنت الخص . وفي « مجمع الامثال » للميداني [١] (المتوفى ١١٢٤ م) وفي « امثال العرب » للمفضل الضبي [٢] (المتوفى ٧٨٦ م) نخبة من ذلك الأدب الجاهلي الحكمي .

ولم يتسن للنثر ان يبرز في الأدب الجاهلي لان طريقة الكتابة لذلك الحين لم تكن قد نشأت او ارتقت بعد . ولكن قد اتصلت بنا بعض الشذرات النثرية واكثرها من نوع الروايات والاساطير التقليدية التي صُنّفت في العصر الاسلامي وادعى مؤلفوها انها اتصلت بهم عن الاجيال السابقة . ومعظم هذه الحكايات يتعلق بالانساب والمعارك القبلية وهي ايام العرب التي تقدم ذكرها . وكان علماء الانساب من العرب كزملائهم من علماء التاريخ يمقتون الفراغ في سياق الحوادث التي يسردون فلم يصعب على مخيلاتهم ان توصل ما انقطع او تملأ ما فيه فراغ مما يدونون . فاذا اخذوا بالانساب يؤرخونها اوصلوها في اغلب الاحيان الى آدم غير منقطعة او على الاقل ربطوها باسماعيل وابراهيم . وفي « كتاب الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني (او الاصبهاني المتوفى ٩٦٧ م) وهو اشبه بموسوعة طريفة ، مادة غزيرة مفيدة في موضوع الانساب . وكذلك وصلت الينا ايضاً نماذج النثر من السجع المنسوب الى كهان الجاهلية .

---

١) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤ في مجلدين ؛ وراجع ايضاً G. Freytag, *Arabum Proverbia* (Bonn, 1838-43) .

٢) طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٠ في مجلدين ؛ ولدينا ايضاً كتاب للمفضل ابن سلمة المتوفى نحو ٩٢٠م اسمه كتاب الفاخر ، نشر ستوري (ليدن ، ١٩١٥) .

الشعر

لم يتفوق العربي في العصر الجاهلي الا في ميدان القريض ، ففي هـذا الميدان نالت مواهبه الرفيعة فوزهـا العظيم . وحب البـدوي للشعر كان الظاهرة الوحيدة في حياته الثقافية .

والأدب العربي شأن معظم الآداب الأخرى برز الى الوجـود بانفجار شعري . غير انه اختلف عن الآداب الاخرى في ان الشعر الذي ظهر فيه يكاد يكون تام النمو منذ اول ظهوره . ويبدو أن اقدم القطع الشعرية التي تحدرت الينا نظمت قبل الهجرة بما يقارب المئة والثلاثين حولا وذلك في اثناء حرب البسوس . الا ان لهذه القصائد الاولى سنناً واساليب متعارفة تنمّ عن زمن نشوء طويل قطعت فيـه صناعة الأداء اشواط التطور والتحسن الاولى حتى نمت قوى اللغة فيها وبرزت في حلة راقية . وللشعراء الذين نبغوا حوالي منتصف القرن السادس آثار لم يستطع احد بعدهم نظم اجود منها . حتى ان شعراء العربية من المتقدمين والمتأخرين الى يومنا الحاضر يعتبرون تلك القصائد القديمة امثلة عليا من الجودة والبراعة لا يمكن الاتيان بمثلها . ولقد حفظ الرواة هذه القصائد الاولى في صدورهم وتناقلوها بطريقة السماع والتقليد الى ان انتهى الامر بها ان دونت في خلال القرن الثاني والثالث الهجري . ولقد اظهر البحث العلمي الحديث أن هذه القصائد قد مرت بتطورات نقحت وهذبت وعدلت فيها بحيث اصبحت تتفق مع روح الاسلام [١] .

ويمكن ان يعتبر النثر المسجع الذي ابتكره الكهان والعرافون خطوة اولى في سبيل ابتداع الفن الشعري . وفي القرآن نماذج لهذا الاسلوب ولعل الخطوة الثانية في هذا السبيل هي الحداء اي انشاد حداة العيس . ولا يستبعد ما افترضته تقاليد العرب من ان اصل الشعر هو محاولة حادي العيس الانشاد على وقع خطى ناقتـه . والواقع ان لفظة حادٍ تودي معنى سائق . ومن هنا اعتقاد العرب ان الابل تشعر

١) راجع طه حسين ، الادب الجاهلي ، (القاهرة ، ١٩٢٧) .

برنة الموسيقى وتسترخم التوقيع الرقيق العذب .

وقد نشأ الرجز وتقطيعه مستفعلن مكررة ست مرات من النثر المسجع وهو اقدم بحور الشعر وابسطها . ولقد قيل بهذا المعنى ان « الرجز بكر الشعر السجع ابوه والحداء امه » .

القصيدة

كان الشعر في عصر البطولة الواسطة الوحيدة للتعبير الادبي عن الافكار . وكانت القصيدة تعتبر الطراز الامثل والاوحد في الفن الشعري ويحكى ان المهلهل (المتوفى حوالي ٥٣١ م) وهو بطل تغلب في حرب البسوس كان اول من نظم القصائد الطوال . ومن المحتمل ان القصيدة أخذت ترتقي بمناسبة ايام العرب وخاصة بسبب الوقائع بين قبيلتي تغلب وكندة . ومن رجال القصيد امرؤ القيس (المتوفى نحو ٥٤٠ م) وهو قحطاني الاصل من الجنوب وينتمي الى كندة . ومع انه من اقدم الشعراء فانه يعد امير الشعر في نظر الاكثرين . اما عمرو ابن كلثوم (المتوفى نحو ٦٠٠ م) فلقد كان تغلبياً من ربيعة في ارض الشمال . والذي يسترعي انتباهنا من امر هؤلاء أنه على تفاوت لهجاتهم كانت القصائد التي نظموها ذات اسلوب ادبي واحد وصيغ ادبية متشابهة .

ولقد ظهرت القصيدة في الأدب العربي فجأة كظهور اشعار هوميروس . الا ان القصيدة العربية تفوق الالياذة والأدسا في تعقيدها واتقان صناعتها . فلم تظهر على صفحات التاريخ الا وهي خاضعة لاحكام وسنن ثابتة من مطلع لا تتعداه ووصف للدار واستعانة بضروب من المجاز والاستعارات ومواضيع مألوفة لا تتغير . وهذه امور تدل على ان القصيدة مرت بأدوار من التطور .

وتشابهت قصائد الجاهلية في انها تبدأ بالوقوف على الطلل واستيقاف الصحب ثم تعرض لوصف اطلال الدار حيث اقامت محبوبة الشاعر وحيث اتسع المجال لكثير من مشاهد الغرام بينها وبين المحب . وبعد أبيات من هذا الفن الغزلي الذي يسمى

النسيب ، وهو بمثابة فاتحة ، يأتي الشاعر على ذكر الرحلة التي قطعها على ناقته وما عاناه فيها من اهوال الليل وكيف كان يضرب في بطون البوادي تتبعاً للفتاة المحبوبة . و بينا الشاعر يجول اذا به يسلم نفسه لجاذب الصيد فيطارد الظبي والمها وقد يصف مشهداً فيه حلقة شرب او لعب ميسر ، ثم تتناوب الصور والرؤى سراعاً فاذا بالشاعر يذكر فروسيته واقدامه وفعاله وكرم محتده وعراقة نسبه ومآتي قبيلته ومفاخرها . واطول القصائد متوسط يبلغ الخمسة والثمانين بيتاً يذكر الشاعر في ختامها غرضه من نظمها . وقد يكون ذلك الغرض محصوراً اما في الاشادة بقبيلة ما يريد ان يمدحها او وصف لقتال او هجاء لخصم او مديح لعظيم يطلب رفده . ولما كانت البادية لا يعتور فضاءها شيء من السحاب ولا تترصع ارضها بالانهر والبحيرات ولا يتعاقب فيها ضوء الشمس والخيال اصبحت الحياة فيها ضيقة برغم تيقظ المشاعر الانسانية . اما العقل فلا تساوره مواضيع التفكير الحي المنعش . وان جميع هذه المظاهر بادية في قصائد العصر الجاهلي الذي نبحث فيه . فالقصيدة غنية بالعاطفة التي تخرجها لغة محبوكة متينة الرصف الا انها فقيرة في الافكار المبتكرة الطلية وعليه فهي قليلة الغناء من حيث انها ادب عام مشترك يتذوقه الناس في كل صقع . ومن هنا تفقد هذه الاشعار الجاهلية قيمتها حين تترجم الى لغة أجنبية لان العنصر الشخصي فيها قوي والمهم فيها هو الناظم لا المنظوم والفكرة الرئيسية واقعية والافق محدود والنظرة اقليمية بحتة . فاذا تغنى الشاعر بجمال المرأة فانما هو يعني فتاته الخاصة واذا وصف فرساً او ناقة فمن خيله وابله . ومن هذه الناحية فالشعر العربي يحاكي الاغنية البلدية القروية من الشعر الوصفي عند الاغريق (ايدل) . والعرب لم يحسنوا نظم أشعار البطولة في وصف الملاحم (ايبك) ولاهم انتجوا ما يعتد به من « الدرامة » الرفيعة القدر . ومهما يكن من امر فالآثار الشعرية التي اوجدها العصر الذهبي للأدب العربي في القرن السابق للاسلام تنم عن متانة وجمال في السبك عظيمين .

وتحتل المعلقات السبع المقام الاول بين قصائد الجاهلية كلها ولا تزال لها الحظوة الكبرى في كل العالم العربي ويعتبرها الادباء ابدع ما اخرجت صناعة الشعر. وقد ورد في الاساطير ان كلا من هذه المعلقات أستجيدت ونالت قصب السبق في سوق عكاظ السنوية وانها راقت الناس فكتبت بماء الذهب وعلقت على استار الكعبة [١] فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت اجود شعره. ويفهم من الاخبار أن نشأة المعلقات مقرونة بسوق عكاظ التي اقيمت بين نخلة والطائف في الحجاز سنة تلو اخرى فجاءت كناية عن مجمع أدبي امته فحول الشعراء تتبارى باشعارها للفوز. ولم يكن للشاعر من مجد اعلى من الفوز في هذه السوق. واذاً فسوق عكاظ في جاهلية التاريخ العربي كانت اشبه شيء «بأكادمية افرنسية» في بلاد العرب. ولقد باهى الفائز فيها مباهاة البطل المجلي من ابطال الاغريق في العابهم الاولمبية. وليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيد فخره عن فخر احد اولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية.

وكانت سوق عكاظ - فيما رووا - تقام في الاشهر الحرم التي كان القتال محظوراً فيها. والتقويم السنوي في عهود الوثنية عند العرب قمري مثل التقويم الاسلامي الذي تلاه. وكانت اشهر السنة الثلاثة الاولى، اى فصل الربيع - ذو القعدة وذو الحجة ومحرم - توافق فترة السلم. وتوفرت الفرص في هذه السوق لبيع الحاصلات والسلع المحلية فانفتحت ابواب التجارة على مصاريعها وجرى التبادل والمقايضة. وجلس القوم للسمر والشراب يرتشفون النبيذ وغيره من المشروبات. ومن السهل ان نتخيل ابناء الصحراء يتوافدون الى هذه الحلقات السنوية زرافات ووحدانا فينتابون الحانات ويطلقون لشهواتهم اعنتها فيجدون في نشوة الشراب نعيماً وطرباً ويجدون في انغام القيان متعاً تسلب البابهم حتى يخال لهم انه قد اتيح لهم

١) السيوطي، المزهر، (القاهرة، ١٢٨٢) ج ٢ ص ٢٤٠

من الرخاء والترف اوسع ما في الامكان .

وقد ذهب الرواة الى ان اول قصيدة نالت اعجاب المحكمين في عكاظ هي معلقة امرىء القيس (المتوفى نحو ٥٤٠ م) الا ان المعلقات لم تجمع حتى أواخر العصر الاموي حين قام حمّاد الراوية في منتصف القرن الثامن الميلادي وهو من المرتزقين برواية الشعر فجمع المعلقات السبع المذهبات من بين الكثير من اخواتها ووضعها في مجموعة واحدة . ولقد ترجمت المجموعة الى معظم اللغات الاوربية .

وقد وصل الينا من الشعر الجاهلي فضلاً عن المعلقات السبع مجموعة اخرى سميت « المفضليات »[1] نسبة الى جامعها المفضل الضبي (المتوفى حوالي ٧٨٦ م) وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة لشعراء اقل شأناً من اصحاب المعلقات . اضف الى ذلك عدة دواوين منها ديوان النابغة وديوان علقمة وديوان الاعشى وكلها تعزى الى العصر الجاهلي ، وطائفة وافرة العدد من المقطعات والمختارات تجدها في « ديوان الحماسة » الذي جمعه ابو تمام (المتوفى نحو ٨٥٠ م) . وفي كتاب الاغاني للاصفهاني (المتوفى ٩٦٧ م) . وكأن قصائد الجاهلية باقة من الازهار الارجة القيت الينا من فوق جدار عظيم الارتفاع لا يدري الرائي ما خلفه من آيات ومشاهد . الا ان هذه الباقة تكفي للدلالة على وجود روضة زاهية .

الشاعر الجاهلي

والشاعر كما تدل هذه الكلمة في العربية هو في الاصل رجل وهب معرفة ما ستر عن العامة وذلك بواسطة شعور خفي يوحيه اليه شيطان خاص . اذا فالشاعر من احلاف قوى غير مرئية تؤثر في هناء الانسان وشقائه . وفي امكانه ان ينزل البلايا على خصمه . ولذا كان للهجاء منزلة قديمة في الشعر العربي .
ثم تطور مقام الشاعر وعمله وصار يقوم بوظائف متنوعة ففي ايام القتال كان للسانه

١) انظر المفضليات ، في ثلاث مجلدات نشر ليال (اكسفورد وليدن ، ١٩٢١ـ٤) .

اهمية لا تقل خطراً عن بسالة بني قومه . وفي زمن السلم كان لخطبه الحماسية وقع في نفوس الجمهور كاف لتهديد النظام العام وكثيراً ما كانت قصائده تدفع بقبيلته الى الغزو واخذ الثأر واثارة نار العصبية ، شأنه في ذلك شأن المهيجين المشاغبين في الكيان السياسي الحاضر حين يتصاولون مع خصومهم السياسيين ويدفعون طبقات الامة الى التناحر . فكان الشاعر في ذلك العهد اذا بمثابة الصحفي اليوم فالتمس الملأ رضاه ، وتزلف اليه الامراء والاعيان كما تدل على ذلك مدونات البلاط عند ملوك الحيرة وغسان . اما سبيل شهرته فواسع اذ ان نفثات شعره وبدائعه الادبية كانت تحفظ في الذاكرة وتتناقلها الالسن . وكان للشاعر مزية اخرى هي انه كان في وقت واحد يعبر عن الرأي العام ويكونه . وقولهم « قطع اللسان » هو كناية عن مد الشاعر بالمال اتقاء لهجائه .

والشاعر فوق كونه حكيم القوم ومرشدهم وخطيبهم ونائبهم المتكلم باسمهم كان يعتبر ايضاً مؤرخهم وعالمهم اذا صح القول ان فيهم عالماً . ويقيس العرب الذكاء بالشعر . جاء في « الاغاني »[1] ان شاعراً عليه مقطعات خز وهو على نجيب مهري قال : « من يفاخرني من ينافرني ببني صعصعة فرساناً وشعراء وعدداً وفعالا ؟ » اذاً فشرف القبيلة وتفوقها يقومان على اربعة امور : القوة الحربية – وهي الفرسان ، وقوة العقل – وهي الشعراء ، والكثرة ، والفعال . ومن حيث ان الشاعر كان مؤرخ القبيلة وعالمها فانه كان يعرف انسابها واخبارها القديمة ويقف على مآثر عظائها ويعرف ما لها من الحقوق في المراعي وخطوط تخومها . وكان عليه فوق ذلك بصفته مدركاً لمواطن الضعف النفسي في القبائل التي تنازع قبيلته ولنقائصهم التاريخية ان يشهر هذه المثالب ويفضح هذه القبائل ويجعلها موضوع هزء وسخرية . فللشعر الجاهلي اذن اهمية تتجاوز قيمته الفنية وما فيه من رشاقة وأناقة وتتعداها الى الوقائع التاريخية فهو مصدر لدراسة العصر الذي نظم فيه . والحق ان هذا الشعر يكاد ان يكون كل ما لدينا من المصادر المعاصرة للقرن السابق للاسلام . فهو يضيء

١) ج ٨ ص ٧٧

جادة الباحث في الحقبة التي تلاها الاسلام . وحقاً ان « الشعر ديوان العرب » (١) ففيه مرآة صافية لاختباراتهم الدينية ولنضالهم وملاحمهم وتطور عقليتهم واصول تفكيرهم . والشعر العربي الى ذلك مقياس نستوعب به طبيعة الخلق القومي وميزان نزن به اهواء العرب وميزاتهم السيكولوجية .

ما يكشفه الشعر الجاهلي من مكنونات الطبع البدوي

يكشف هذا الشعر الجاهلي (٢) عن المثل الاعلى لفضيلة العربي التي تعبر عنها لفظة المروءة . وللمروءة عناصر تتكون منها هي الشجاعة والوفاء والكرم . فالشجاعة تقاس بعدد ما يقوم به البطل من الغزوات ومقدار بلائه في الذب عن قبيله ونبله في معاملة الاعداء . والوفاء يقاس بولاء الفرد لسيد العشيرة وبتفانيه وتضحيته في معاشرة الانداد والقرناء . ويظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعداده لنحر ناقته وتقديمها طعاماً للضيف او لاطعام الفقراء والمساكين .

وذكر حاتم الطائي (المتوفى ٦٠٥ م) حيّ الى اليوم وقد تجسدت في شخصيته المثل العليا للضيافة البدوية . وقد رووا انه كانت له قدور عظام بفنائه لا تنزل عن الأثافي . وزعموا ان اباه جعله في ابل له وهو غلام فمر به عبيد ابن الابرص وبشر ابن ابي خازم والنابغة الذبياني فنحر لهم ثلاثة من ابله وهو لا يعرفهم ثم سألهم عن اسمائهم فتسموا له ففرق فيهم الابل كلها . ولما سأله ابوه ما فعل قال « طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة » واخبره بما صنع فطرده والده (٣) .

اما عنترة ابن شداد العبسي (نحو ٥٢٥ ـ ٦١٥ م) ـ ويظهر انه انتمى الى النصرانية ـ فلقد بقي ذكره ابد الدهر نموذجاً للبطولة والفروسية عند العرب . ولقد أطلت من حياته مظاهر الفارس والشاعر والمحارب والمحب وسطعت باوضح صورة من

---

١) السيوطي ، المزهر ، ج ٢ ص ٢٣٥

٢) انظر القرشي ، جمهرة اشعار العرب (مصر ، ١٣٣٠) .

٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٩٠٤) ص ١٢٤

صور شمائل الرجولة التي اطنب بها العرب . ولقد اصبح بنخوته وفعاله وغرامه بعبلة (التي خلد اسمها في مذهبته المشهورة) جزءاً من التراث الادبي في العالم العربي . وكانت امه واسمها زبيبة امة سوداء فكان احد أغربة العرب (اي غربانها لسواد لونه) وهم ثلاثة هو وخفاف ابن عمير الشريدي من بني سُليم والسليك ابن عميرا السعدي . وقد ولد عبداً ومع ذلك فقد اعتقه ابوه حين اغارت بعض احياء القبائل على عبس فضايقتها وابى عنترة ان يشترك في القتال فقال له ابوه : « كر يا عنترة » فأجاب عنترة : « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر » فصاح ابوه : « كر وأنت حر » [١].

وقد عزوا الى تأبّط شراً ـ وهو من فرسان الجاهلية واشتهر بمنازلته الغول وبطشه بها ـ مرثاة قالها في خاله [٢] وهي مليئة بالاوصاف التي كان البدو يباهون بها من النخوة والسخاء والولاء والبغيضة للعدو والحب لابناء الجلدة ، ومن ابياتها :

غيثٌ مزنٍ غامرٌ حيث يجدي واذا يسطو فليث أبلَ [٣]

ورووا عن الشنفرى وهو صاحب تابط شراً أنه وقع في يد قبيلة معادية فأقسم حين نجا ان يقتل مئة منها وبعد ان قتل تسعة وتسعين تمكنوا منه وصلبوه فعلق عاماً او عامين مصلوباً الى أن مر به احد ابناء القبيلة المعادية فرفس رأسه برجله فدخل فيها عظم من رأسه فبغت عليه فمات . وكان ذلك الرجل هو تمام المئة [٤].

ولاولئك الشعراء القدماء خدمة ثقافية اسدوها الى الامة العربية وهي انهم توصلوا بهذه القصائد والمقطعات التي نشرها القوم من بعدهم في سائر قبائل الجزيرة الى تخطي الحدود الفاصلة بين القبائل وتوسيع افق البدوي وجعل الفرق واضحاً بين العرب وسواهم من الاعاجم وبذلك خلقوا فكرة جديدة ساندت الشعور بالوطنية

١) الاغاني ج ٨ ص ١٤٩ـ١٥٠؛ ابن قتيبة ، الشعر، ص ١٣٠
٢) المسعودي ج ٣ ص ٣١٠ حيث ذكر ان الشنفرى خال تأبط شراً .
٣) ابو تمام ، الحماسة ص ٣٨٢ـ٨٤
٤) الاغاني ج ٢١ ص ١٣٤ـ١٣٥ ، ١٤٣

العربية التي كان فجرها قيد الانبثاق فما بدت طلائع الاسلام حتى ادرك فجرها الكمال .

البدو والوثنية

لم يكن للبدوي الوثني كما يستدل من الشعر الجاهلي حظ وافر من امور الدين . فقد كان عديم التنبه للدوافع الروحية بل كان قليل الاكتراث بالدين وكان في ممارسته لبعض الطقوس الدينية انما ينساق بقوة الاستمرار ويجري امتثالا لاحكام العرف والتقليد . وليس في مجمل الشعر الجاهلي ما يدل على شعور ديني عميق او عاطفة روحية شديدة ويمكن الاستشهاد بحادثة امرىء القيس : قيل خرج بعد قتل ابيه يريد الانتقام فمر بتبالة وبها صنم للاعراب يقال له ذو الخَلَصَة [١] فاستقسم عنده بقداحة [٢] وهي ثلاثة الآمر والناهي والمتربص فأجالها فخرج الناهي ثم اجالها فخرج الناهي ثم اجالها فخرج الناهي فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : كذا وكذا لامك « لو ابوك قتل ما عقتني ! » [٣] .

وفيما عدا الاشارات الشعرية فاهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة الوثنية الجاهلية هي بقايا الوثنية في العرب بعد الاسلام ، وبعض القصص والاخبار المبثوثة في الادب الاسلامي . وكتاب الاصنام لهشام ابن محمد الكلبي (المتوفى ٨١٩-٢٠ م) على انه لم يكن للوثنيين العرب في جاهليتهم ميثولوجيا كالتي نعهدها عند الشعوب الغربية ولا لاهوت ولا علم بتكوين الارض كالذي كان عند البابليين .

ويمثل الدينُ البدويُّ اول اشكال المعتقدات السامية وابسطها واكثرها سذاجة . ويرجع ما بينه وبين العقائد العبرانية القديمة المحفوظة في التوراة من وجوه الشبه العديدة الى ان الدينين هما من جذر واحد .

١) على مسيرة سبع ليال جنوباً من مكة وكان الصنم مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، الكلبي ، الاصنام ، نشر احمد زكي (القاهرة ، ١٩١٤) ص ٣٤

٢) لقد حرم القرآن « الاستقسام بالازلام » سورة المائدة : ٤:٣ و٩٣

٣) الاغاني ج ٨ ص ٧٠

اما عبادات عرب الجنوب بما فيها من المظاهر الفلكية والهيا كل المزخرفة والشعائر الدينية الخلابة وتقديم الذبائح والقرابين فانها تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة ادت اليها حـالة الاستقرار والتحضر في المجتمع . وان تعلق الجماعات المثقفة في البتراء وتدمر بعبادة الشمس لدليل ساطع على بلوغهم في مضمار الحياة الزراعية درجة من الرقي مكنتهم من استكشاف العلاقة بين اشعة الشمس المحيية ونمو المزروعات والنباتات .

والديانة البدوية كسواها من انواع الديانات الساذجة هي في قرارتها مبنية على الايمان بوجود ارواح في الاشياء المادية مما يرى الانسان حوله كالاشجار والرمال والحجارة او مما في مظاهر الطبيعة كالرياح والامطار والنجوم والشمس والقمر . فقد تأثرت نفس الأنسان الأول بهذه جميعها فحسب ان لكل منها روحاً تحركها وبالتدرج اصبحت القوى الطبيعية الهامة آلهة اما القوى السفلى فاحيلت الى مراتب الجن والعفاريت . وكأن التباين بين الواحات والبوادي خلق في عقل البدوي اول صورة واضحة لاله ذي اختصاص فروح الارض الصالحة للزرع هي الاله الرحيم الذي يجمل بالناس التقرب اليه . اما روح الارض الجدبية فرب شرير يجب ان يتقى [١] .

ثم تكاملت صورة الالوهية في مخيلة الجاهلي الا أن المحسوسات الطبيعية كالاشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعتبر وسائط يتقرب العابد بها الى المعبود. فالبئر مثلاً في البرية على ما اختصت به من تنظيف جسد الانسان وشفائه وشفاء غليله اصبحت في اقدم العصور موضوع عبادة عنده . ويرجع تقديس زمزم – كما ذكر المؤلفون العرب – الى ما قبل الاسلام فمن هذه البئر استقت هاجر واسماعيل. قيل التمست هاجر [٢] لابنها ماء فلم تجده فدعت الله واستغاثت بـه فبعث الله جبريل فهمز به بعقبه فظهر الماء . ولقد ذكر ياقوت [٣] واخذ عنه القزويني [٤]

١) والتقوى في اللغة من باب وقاه اي حذره وخافه .

٢) ابن هشام ص ٧١ ٣) بلدان ج ١ ص ٤٣٤

٤) القزويني ، عجائب المخلوقات ، نشر وستنفلد (غوتنغن ١٨٤٩) ، ص ٢٠٠

ان بئر عروة بعقيق المدينة كانت من خرج من المدينة وغيرها اذا مر بها تزود من مائها وكانوا يهدونه الى اهاليهم وهو يغلى ويجعل احياناً في القوارير. اما الاغوار (جمع غار أي كهف) فانها اعتبرت مقدسة لما كان يأوي اليها من الآلهة والارواح التي تسكن بطن الارض . هذا شأن الغبغب بنخله حيث كان العرب ينحرون للعزى (١) . اما بعل فهو روح الينابيع والمياه الجارية تحت الارض ويظن انه جيء به الى الجزيرة في الوقت نفسه الذي دخلت فيه زراعة النخيل الذي لم يكن يروى بماء المطر . ولقد احتفظت العربية بأثر من اسم هذا الاله وذلك في نظام الضرائب الاسلامي الذي يميز بين الارض البعل والارض السقي (٢) .

مركز الشمس في نظام آلهتهم

كان القمر محور الاعتقادات الفلكية الدينية الاولى عند البدوي لذ كان يرعى قطعانه على ضوئه . وعبادة القمر لاحقة بحياة المراعي والبداوة اما عبادة الشمس فرحلة ارقى وهي عالقة بحياة الزراعة . وفي يومنا هذا نرى ان البدو من الروله يعتقدون ان القمر قوام حياتهم ومدير شؤونها - فهو يكثف البخار والندى على الربوع فيسهل نموّ النباتات . اما الشمس فانهم يرون فيها عدواً يطمع في افنائهم وافناء الحيوان والنبات (٣) .

واذا استقصينا عناصر العقائد الدينية على الاطلاق عند البدو لاحظنا ميلها للاستمرار بشكل ما بالرغم من تقدم اصحابها في مدارج التطور والرقي . وما يتسنى له البقاء من هذه العقائد القديمة يكون عادة نتاج التوفيق بين النزعة الاولى القديمة والنزعة الثانية الحديثة . وهذا المبدأ يفسر لنا معضلة الاله وَدّ (سورة نوح الاية ٢٢) فهو القمر ولكنه بقي على رأس الآلهة عند سبأ وهم زراعيون . ولقد

---

١) الكلبي ، الاصنام ، ص ١٨ ، ٢٠ ؛ ياقوت ، بلدان ، ج ٣ ، ص ٧٧٢-٣

٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٠

٣) Alois Musil, *The Manners and Customs* .. p. 1.

ذكر ابن هشام (١) والطبري (٢) نخلة طويلة في نجران كان العرب يعبدونها ويعلقون عليها الاثواب وحليّ النساء وانواع السلاح . اما ذات انواط (٣) (وقد دعيت كذلك لانهم كانوا يعلقون عليها عطاياهم) فكان المكيون من قريش يزورونها كل سنة ولعلها شجرة العزّى في نخلة (٤) . وكانت اللات بالطائف تمثل على شكل حجر مربع (٥) وذو الشرى في البتراء على شكل صخرة كبيرة مربعة الجوانب لم تنحت حنياتها وتبلغ اربعة اقدام علواً وقدمين اتساعاً . وكان لكل من هذه الاصنام وقف خاص به من ارض المراعي يسمى الحمى .

الجن

ولقد تخيل البدوي الصحراء آهلة باحياء ذات طبائع وحشية سماها الجن والعفاريت . ولا تختلف هذه الاحياء عن الآلهة في طبيعتها بل في كنه علاقتها بالانسان فالآلهة على العموم تشفق على الانسان وترحمه اما الجن فتخاصمه وتؤذيه . وما هذه الأخيرة الا اشباح توهمها ابن الصحراء مشخصاً فيها اهوال البادية وآفاتها وحيواناتها البرية المخيفة . فالغول سبع من سباع الجن (٦) تراوغ المرء عن جادته وتتزيّى له بازياء مختلفة حتى تقع به فتأكله . قيل ان تأبط شراً وهو من نماذج الفروسية في الجاهلية بات ليلة ظلمة وبرق ورعد في قاع فلقيته الغول فما زال يقاتلها الى ان اصبح وهي تطلبه الى ان قتلها وتأبطها وسار ، وفيها يقول :

فلم انفكّ متكئاً عليها ... لا نظر مُصبحاً ماذا اتاني
اذا عينان في رأس قبيح ... كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج وشواة كلب ... وثوب من عباء او شنان

---

١) السيرة ، ص ٢٢
٢) تاريخ ج ١ ص ٩٢٢
٣) السيرة ص ٨٤٤
٤) الكلبي ص ٢٤-٧
٥) المصدر نفسه ، ص ١٦
٦) الاغاني ج ١٨ ص ٢١٢

وكانت الآلهة في نظر البدو تهيمن على الاراضي الآهلة بالسكان اما الجن فتسيطر على البراري والقفار . والمعتوه الذي يسمى في اللغة مجنوناً هو من سكنه الجن . وبمجيء الاسلام ازداد عدد الجن لان اصنام الجاهلية واوثانها ومعبوداتها حشرت في صعيد واحد هي والجن [1] .

بنات الله

تغلغلت من قديم الزمان عبادة الاجرام الفلكية في نفوس حضر الحجاز (واهل الحضر في الحجاز لم يتجاوزوا سبعة عشر في المئة من سكان ذلك القطر) . فقامت في هذه البلاد ، التي اصبحت فيما بعد مهداً للاسلام ، محارم للعزّى واللات ومناة — وهن بنات الله يعبدونهن زلفى اليه . وفي حديث الغرانيق الذي اورده المفسرون وكتاب السيرة واخذ به جماعة من المستشرقين ان محمداً لما رأى من تجنب قريش اياه قرأ بعد « افرأيتم اللاّت والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى » — « تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى » [2] . اما بعض علماء الاسلام فسروا الحادثة وفق مبدأ « الناسخ والمنسوخ » [3] الذي يبدل الله تعالى بموجبه اللفظ لفظاً آخر ويغير مقتضيات ارادته بالنظر الى علم العبد . وينتج من هذا ان تلغى بعض الآيات وتحل محلها أخرى (البقرة : ١٠٠) . وكان للات حمى وحرم في جوار الطائف يقصده حجيج مكة وسواها ويقدمون لها الذبائح . ولقد حرم قطع الاشجار والصيد والقتل في مثل هذا المكان فكأنّ الحيوان والنبات استمدا من تلك البقعة مناعة الحرم . وهكذا كان لبني اسرائيل من قبل مدن ملجأ يهرب اليها القاتل [4] ولقد ذكر هيرودتس [5] هذه الآلهة العربية بين معبودات الانباط فسماها آليلة . ولقد تقدم معنا ان ابن

---

١) سورة الصافات : ١٥٨ ؛ الانعام : ١٠٠

٢) راجع حسين هيكل ، حياة محمد (القاهرة ، ١٣٥٤) ص ١٢٣—٣١ ففيه بحث عن قصة الغرانيق .

٣) انظر سورة الحج : ٥١—٥٢ ؛ البيضاوي ، انوار التنزيل ، نشر فليشر ج ١ (ليبزغ ، ١٨٤٦) ص ٦٣٦—٧ ؛ الطبري ، تفسير ، ج ٢٧ ص ٣٤ وما يلي ، ج ١٧ ص ١٣١

٤) سفر العدد ٦:٣٥

٥) Bk. III, ch. 8.

زنوبيا وشريكها على عرش تدمر كان وهب اللات.

والعزّى (تأنيث الاعز بمعنى الاقوى تقابلها فينس، كوكب الصبح، او الزهرة ـ الهة العشق) وكان مقرها بوادي نخلة الى الشرق من مكة، ويقول الكلبي [١] انها كانت اعظم الاصنام عند قريش فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح. وروى أن رسول الله ذكرها يوماً فقال: «لقد أهديت للعزى شاة عفراء» وكان ذلك في ايام حداثته. وكانت قريش قد حمت لها شعباً في وادي حُراض يقال له، سُعَام فيه ثلاث اشجار باسقات. والعزّى هي الآلهة عُزيان التي قدم لها احد عرب الجنوب ـ حسبما ذكرت الرقم ـ تمثالا من الذهب رجاء ان تشفي اخته العليلة واسمها امة عزيان [٢]. وكان اسم عبد العزى كثير الشيوع في مطلع الاسلام.

والى اي شيء كانوا يرمون بتقديم الذبائح للآلهة؟ انما الفكرة الاساسية فيها ان يشارك المعبود العابد في المآكل. فالذبيحة في الدرجة الاولى شركة روحية وكانت عظيمة الشأن لدى العربي الذي اعتاد حسبان الغريب عدواً ما لم يرتبط به بصلة «الخبز والملح». فالتقدمة اصبحت اواسطة لنقل الصلاة والامنية من الانسان الى الاله. ولما كان العرب لا يحرقون ذبائحهم فانهم لم يعرفوا المذبح بل اكتفوا بكومة من الحجارة يقال لها الغري او النّصبْ.

ومناة (من المنية جمعها المنايا، اى ما يقدر للمرء، الموت) هي الهة القضاء والقدر [٣] فهي اذن تمثل حالا من احوال الحياة الدينية الاولى [٤]. وكان صنمها حجراً اسود منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد بين يثرب ومكة. وكانت عظيمة القدر عند الاوس والخزرج وهما القبيلتان اللتان ناصرتا النبي يوم هجرته الى يثرب من مكة. ولقد ورد اسمها كمعبود قائم بذاته مشاركاً لذي شرى في رقم

١) الاصنام، ص ١٨ـ١٩

٢) Nielsen, *Handbuch*, vol. i, p. 236.

٣) قابل في العبرانية لفظة مني، اشعيا ٦٥:١١

٤) الكلبي، ص ١٣

الانباط بحجر [١] . والى هـذا اليوم نسمع من شعراء العربية نسبة الآلام والمحن لـ « المنايا » و « الدهر » و « الزمان » .

وقد اقتضت صلة الارحام ان يكون دم المرأة اهم من دم الرجل في حلقات القرابة بين الناس ذلـك عند الشعوب السامية على الاطـلاق . وكانت السيادة في الاسرة بادىء الامر في يد الامهات لا الآباء ، اذن فالالهة العربية سبقت الاله زمناً وفاقته قدراً .

الكعبة في مكة

وكان لقريش اله في جوف الكعبة يدعى هُبَل (من الارامية بمعنى البخار ، الروح) جعلوه على صورة انسان واقاموا قدامه سبعة اقدح وكانت العرب كلما اشتدت بها الحيرة في أمر تلجأ الى الكاهن (كلمة أرامية الأصل) وهو صاحب القداح كي يستفتي لها هبل كبير الآلهة عن طريق القداح يضرب بها عند هبل فمن خرج قِدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . ونقل ابن هشام [٢] ان عمراً ابن لُحيّ خرج من مكة الى الشام في بعض اموره فلما قدم مؤاب من ارض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الاصنام فسألهم عنها فأجابوه « هذه اصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا » وبناء على طلبه اعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه . ولعل في هـذا التقليد شيئاً من الحقيقة التي تقر ان الصنم العربي اجنبي الأصل وبعبارة اخص ارامي [٣] .

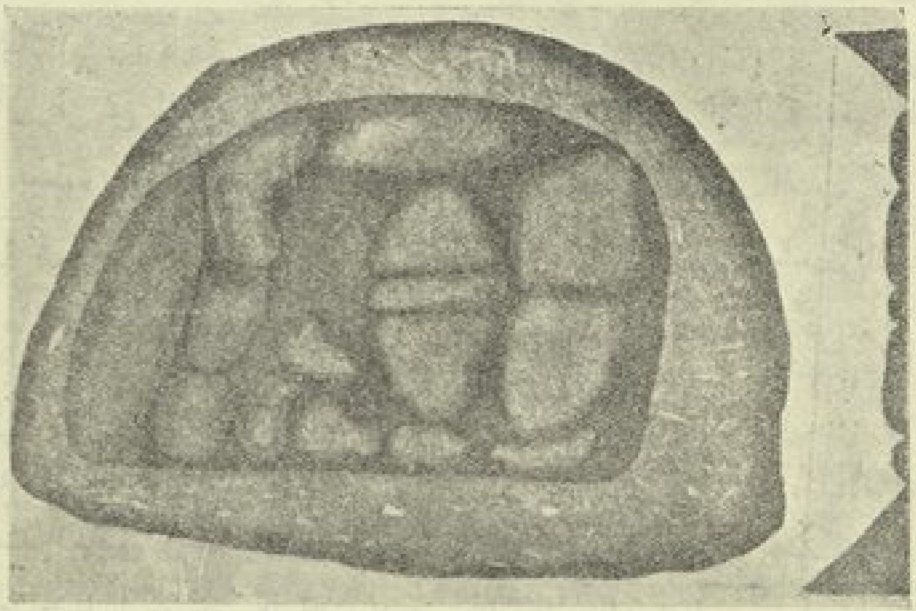
وغدت كعبة مكة مثابة للناس في الجاهلية اقاموا فيها الاوثان وتوجهوا اليها كل عام من كل صوب وحدب . وهي بناءٌ مكعب الشكل بسيط الصنعة ساذجها ، لم يكن له سقف اول العهد . وفي وسطها قام نصب هو عبارة عن قطعة من الحجر

١) انظر Cooke , pp. 217 , 219; وقابل Lidzbarski , *Ephemeris* , vol. iii, 1909 - 15 (Giessen, 1915) p. 85

٢) السيرة ، ص ٥٠ وما يلي .

٣) لفظة صنم العربية مأخوذة من صلم الارامية ، ولقد حطم النبي محمد هبل عند فتحه مكة كما حطم سواه من اصنامها

البركاني الاسود يعبدونه . والبناء الذي كان قائماً حين مجيء الاسلام انما هو من بناء الوليد ابن المغيرة الذي تهدمت الكعبة في ايامه فأعاد بناءها من حطام سفن للاغريق كانت قادمة الى الحبشة وحطمتها الامواج وقذفت قطعها على شاطىء البحر الاحمر [١] . وتحيط بالكعبة ارض الحرم المقدسة وقد تولى شؤونها رجال ذوو مناصب منها سدانة البيت أي تولي مفاتيحه . وكان يقصد الحجاج الكعبة مرة في السنة . ويقدمون لها الذبائح والقرابين .



الحجر الاسود

وفي التقليد الاسلامي ان الكعبة بناها آدم وفقاً لنموذج سماوي ثم جاء الطوفان فتهدمت اركانها واعاد بناءها بعد الطوفان ابراهيم واسماعيل [٢] . وظلت سدانتها في ايدي سلالة اسماعيل حتى مقدم بني جرهم و بني خزاعة من بعدهم الذين ادخلوا اليها عبادة الاصنام ثم وليتها قريش فعادت الامرة فيها للاسرة الاسماعيلية القديمة . ويضيف التقليد ان اسماعيل اذ قام يبني جدرانها أتاه جبريل بالحجر الاسود

---

١) الازرقي ، اخبار مكة ، نشر وستنفلد (ليبزغ ، ١٨٥٨) ص ١٠٤-٧ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ١٧-١٨

٢) سورة البقرة : ١١٨-٢١

الذي لا يزال محفوظاً في الزاوية الجنوبية الشرقية منها وان اسماعيل اول من تلقن مراسيم الحج .

الله

وكان المقدم على المعبودات التي حوتها الكعبة اذ ذاك الله (الاله) على انه لم يكن الوحيد عندهم بل لعله نشأ عن تجريد معنى الالوهية او حصرها في واحد من آلهة الكعبة المتعددة . واسم « الله » عريق في القدم اعتقد المستشرق درنبورغ انه رآه في رقيم معيني قديم [١] . وفي نقوش صفا ورد الاسم هكذا « هلاه » وذلك قبل بزوغ الاسلام بخمسة قرون [٢] .

ولقد ورد ايضاً في رقيم نصراني يرجع الى القرن السادس الميلادي [٣] عثرت عليه بعثة جامعة برنستون الى سورية . وكان اسم والد محمد هو عبد الله ، وهو اسم مركب من عبد اي خادم او عابد ، والله وهو الاسم الذي نعرض له . ويدلك على منزلة الله عند اهل مكة في الجاهلية ، ما في القرآن من آيات تشعر بذلك منها سورة لقمان ، الآية ٢٤ ، ٣١ ؛ والانعام ، الآية ١٣٧ ، ١٠٩ ؛ يونس ، الآية ٢٣ . فهو الخالق الحميد واذا حلت بهم مصيبة دعوه مخلصين له الدين . ويسوغ الاستنتاج من ذلك ان الله كان المعبود القبلي لقريش قبل الاسلام .

وراجت منزلة مكة لعلو شأن البيت الحرام فيها بالرغم من انها بواد غير ذي زرع رديء الهواء ، وبفضلها اصبح الحجاز اعظم مركز ديني في شمال الجزيرة .

ومن آلهتهم نَسْرٌ [٤] وَعَوفٌ [٥] وهما اسما طائرين يرجعان الى اصل

---

١) *Journal Asiatiques*, vol. XX (1892) pp. 157-66

٢) Dussaud, *Les Arabes en Syrie*, pp. 141-42

٣) Enno Littmann, *Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete*, vol. vii (1929), pp. 197-204

٤) سورة نوح : ٢٣

٥) عبد عوف اسم مألوف عند العرب القدماء .

طوطمي. اما فكرة الآخرة فاننا لا نجد في الادب الجاهلي اشارة واضحة اليها. والعبارات القليلة الغامضة التي تحمل مسحة من التفكير بالآخرة جاءت على اثر التعاليم النصرانية. واخلاق العربي قائمة على فلسفة اللذة الحالية فكان ابداً دائباً في مهام الحياة التي تحتاطه ولم يكرس من الفكر كثيراً لامور الآخرة. وفي هذين البيتين لشاعر قديم سرّ الفلسفة العربية في الحياة:

نُطَوِّفُ ما نُطَوِّفُ ثم يأوي ذوو الاموال منا والعديمُ
الى حُفَرٍ اسافلهن جُوفٌ واعلاهن صفاحٌ مقيمُ (١)

ولما كان البدو يترددون على مراكز الحضارة في الحجاز لتبادل البضائع وبخاصة في الاشهر الحرم الاربعة فأنهم قد تأثروا بطابع الافكار المدنية التي كانت ارقى من افكارهم درجة وتعلموا بعض الشعائر الدينية مثل الطواف بالكعبة ونحر الذبائح. وكانوا يقدمون الابل والاغنام ذبائح في مكة وعند مختلف الانصاب التي كانت تعتبر اصناماً او مذابح. وكان الحج الى مزار مشهور في احدى مدن الحضريين اعظم الفرائض الدينية عند البدوي. وكانت الاشهر الحرم الاربعة تتضمن ما أصبح في التقويم الاسلامي الشهر الحادي عشر والثاني عشر والاول من كل عام (ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم) يضاف اليها شهر آخر في منتصف السنة وهو رجب. وكانوا قبل الاسلام يفرزون الاشهر الثلاثة الاولى للفرائض الدينية اما الشهر الاخير فلتعاطي التجارة. وامتاز قطر الحجاز بخصائص فريدة منها وقوعه في نقطة مركزية وسهولة الوصول اليه وقيامه على طريق القوافل السائرة بين الشمال والجنوب. فانفتحت فيه ابواب واسعة للحركة الدينية والتجارية. وبفضل هذه نشأت سوق عكاظ والكعبة.

مدن الحجاز الثلاث: الطائف

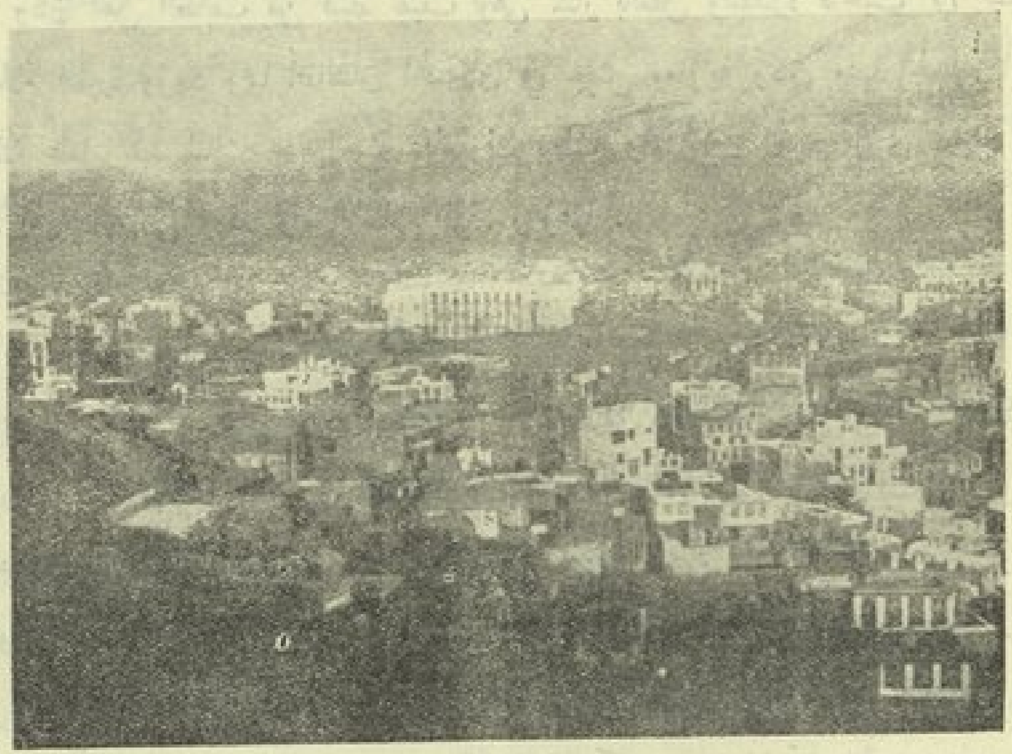
الحجاز بلاد في الجزيرة تحجز بين مرتفعات نجد وبين السهول المنخفضة الواقعة

---

١) ابو تمام، الحماسة ص ٥٦٢

على الساحل المسمى تهامة . وليس فيها مدن جديرة بالذكر الا ثلاثاً : الطائف ومكة والمدينة .

وتقع الطائف في أكناف الجنائن الغناء على ارتفاع نحو ستة آلاف قدم وهي طيبة الهواء وقيل في وصفها انها قطعة من ارض الشام . وكانت ولا تزال مصيفاً لاستقراطية مكة . وقد زارها الرحالة السويسري بركهاردت في آب سنة ١٨١٤ قادماً



مكة من جهة الشمال الشرقي

من جدة فاعرب عن انشراح صدره للمناظر الطبيعية التي عاينها في طريقه اليها وقال انه لم ير مثلها من بعد مغادرته لبنان [١] . وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب والزيتون والدراقن والسفرجل [٢] . واشتهرت ورودها بالعطر الذي كان يمد اهل مكة بما يحتاجون اليه من طيب . وقد أدخلت الكرمة الى

١) John L. Burckhardt, *Travels in Arabia*, (London, 1829) vol. i, p. 122 .

٢) قابل ابن بطوطة ، تحفة النظار، نشر دفريمري وسانغوينتي (باريس ، ١٨٩٣) ج ١ ص ٣٠٤-٥

الطائف كما نقل صاحب الاغاني [١] على يد امرأة يهودية وقد اهدت بعض قضبان الكرم لبعض الزعماء هناك . اما خمر [٢] الطائف فقد كان برغم كثرة الطلب عليه اقل ثمناً من النوع الاجنبي الذي كانوا يستقدمونه من الشام والعراق ويشهرونه في الشعر العربي . والطائف اقرب بلدان الجزيرة مطابقة للوصف الذي جاء به الوحي في سورة محمد الآية ١٦ : ١٧ من ذكر الجنة التي وعد بها المتقون .

وكان اهل الطائف من قبيلة ثقيف وهي تمتاز بالعقل والمقدرة فانجبت في صدر الاسلام المغيرة وزياد وهما القائدان المحنكان في جيش معاوية وكان منها الحجاج ابن يوسف عامل عبد الملك على العراق المعروف ببطشه ومحمد ابن القاسم الذي تغلغل في قلب آسية الوسطى ورفع لواء الاسلام فوق ربوعها .

مكة:

واسم مكة [٣] الذي اورده بطليموس [٤] بصيغة مكورَبا مشتق من الاسم السبئي مكورابا ومعناه مقدس او حرم . ويستفاد من هذا الاصل ان مكة كانت في اول عهدها مقاماً دينياً اذاً فهي مركز للعبادة يرجع عهده الى ما يسبق محمداً بازمان متطاولة . وهي واقعة في تهامة الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية واربعين ميلاً من البحر الاحمر وذلك في واد قفر صخري وصفه القرآن بانه « واد غير ذي زرع » (سورة ابراهيم الآية ٤٠) . ويسجل ميزان الحرارة في مكة درجة لا تحتمل . ولقد زارها الرحالة العربي الطنجي ابن بطوطة [٥] فاراد الطواف بالكعبة حافي القدمين فوصل المطاف وارد استلام الحجر الاسود فلحقه لهب الحجارة وشاء الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصله الا بعد جهد عظيم ورجع وهو لم يطف حتى بلغ الرواق .

---

١) ج ٤ ص ٧٥

٢) لفظة خمر مستعارة من الآرامية وكانوا يطلقون لفظة نبيذ على الخمر المستقطرة من العنب والتمر

٣) انظر الازرقي ، اخبار مكة .

٤) *Geographia*, ed. Nobbe, Bk. VI, ch. 7 § 32.

٥) ج ١ ص ٢٨١

وقد وقعت مكة في وسط طريق القوافل ما بين مأرب وغزة وهي طريق تجارة الطيوب في عصور دول الجنوب فكانت « محطة » للآتين من جنوب الجزيرة وللمتحدرين من شمالها . وكانت الاسواق تنصب فيها للبيع والشراء فمهر اهلها في شؤون التجارة وما يتعلق بها من مرافق ووظائف . وجعلوا مدينتهم مكة مركز عمران وثروة . وفي غزوة بدر (١٦ آذار سنة ٦٢٤ م) كانت قافلة للمكيين راجعة من غزة فيها الف بعير ومعها من المال خمسون الف دينار على ما رواه الواقدي [١]. ولما عاد المسلمون بعد غزوة بدر بالاسرى الذين وقعوا في يد النبي من المكيين افتدتهم مكة باربعة آلاف درهم للرجل الى الف الا من كان معدماً فقد مَنّ عليه محمد بحريته . وكان تجار مكة يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . فاصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية [٢] يرأسها الموسرون من اكابر قريش ومقدميها الذين اتاحت لهم موارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاهاً ووسائل للترف على اوسع نطاق .

وراجت تجارة مكة فقامت قريش توطد مركزها في البلد الحرام فسنت رحلتي الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام ، فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة واعتبرت العاصمة المعترف بها وسمت منزلة سوق عكاظ فاصبح ملتقى الخطباء وقطب الدائرة الفكرية في الجزيرة ، وهو امر لم يسبق له مثيل في ثقافة اليمن القديمة او في مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة في بلاط الحيرة والغساسنة . وكان قُصَيّ مؤسس مجد قريش فابتنى في الشطر الاخير من القرن السادس دار النَدوة ليجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت امرته ليتشاوروا في مهام بلدتهم . وما ان اخذ نجم الاسرة يتألق حتى ظهر فيها كبير آخر هو عبد المطلب - جد النبي - الذي يروى انه كان حامي حوض مكة حين وجه ابرهة جيشه لهدم البيت الحرام وامتهان مكة وقريش في عام الفيل .

١) كتاب المغازي ، نشر فون كريمر (كلكتا ، ١٨٥٥-٦) ص ١٩٨

٢) الملأ في سورة المؤمنين الآية ٣٤ ، الشعراء : ٣٣

المدينة

تقع يثرب (ي ث ر ب في نقوش سبأ ويثربا في جغرافية بطليموس [١]) على بعد نحو ٣٠٠ ميل من مكة وقد حبتها الطبيعة بمزايا لم تعرفها مكة من طيب الهواء وجودة التربة. ولم تكن يثرب على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل وهو كثير فيها وقد اصبحت المدينة من امهات المراكز الزراعية على ايدي يهودها بني النضير وبني قريظة . واذا اعتبرنا الاسماء العلمية التي تسمى بها يهود يثرب والألفاظ الأرامية التي كانوا يستعملونها في حياتهم الزراعية فاننا نحكم انهم كانوا بالاكثر من القبائل العربية والأرامية التي تهودت [٢] . مع انه ربما كانت نواة هذه الجماعة اسرائيلية صرفة هجرت فلسطين في القرن الاول للميلاد على اثر الفتح الروماني . ولعل هؤلاء اليهود الناطقين بالآرامية هم الذين استبدلوا « يثرب » اسمها القديم باسم جديد «مدينتا» وهو آرامي . اما الاعتقاد بانها سميت المدينة لصيرورتها مدينة الرسول فهو رأي متأخر. واذا استثنينا الجالية اليهودية فالمكانة بين القبائل العربية كانت للأوس والخزرج وهما من اليمن اصلاً .

المؤثرات الثقافية في الحجاز : ١ . سبا

ان بلاد الحجاز لم تساهم ايام الجاهلية في مجرى الحوادث العالمية ولكنها في الواقع لم تكن مجهولة تمام الجهل وقد بدأ انعزالها بعد الاسلام منذ السنة الثامنة للهجرة حين جهز المسلمون عشرة آلاف رجل الى مكة فتمت امنية محمد في ان يفتح ام القرى من غير اراقة دماء . فدخلها ثم عفا عن خصومه جميعاً وطهر الكعبة من الاصنام ودخل اهل مكة في الاسلام . اذ ذاك نزلت الآية : « يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... » [٣] . الا

١) Bk. VI, ch. 7, § 31, ووردت ايضاً لثربا

٢) اليعقوبي تاريخ ، ج ٢ ص ٤٩ حيث اورد المؤلف اسماء القبائل العربية التي تحدروا منها .

٣) التوبة : ٢٨

ان هذا النهي جاء في باب تحريم مكة على الوثنيين والمشركين وطردهم منها. ونقل عن النبي انه قال: « يا ايها الناس ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دماً ... » [١] الا ان المولدين ساروا في التفسير شوطاً بعيداً فحرموا على اهل الذمة دخول مكة والمدينة واستباحوا دم غير المسلم اذا وطئها [٢]. ومن الراهن انه في القرن الاول بعد وفاة النبي كان يقيم في مسقط رأسه عدد لا يستهان به من النصارى واليهود يحترفون الطب والموسيقى ويتعاطون التجارة.

وفي العهد الذي ولد فيه محمد كانت جزيرة العرب قد فقدت مدنيتها القديمة الوحيدة التي ازدهرت حقبة من الدهر في زاوية الجزيرة الجنوبية الغربية وكان ابناء تلك المدنية قد شتتوا في سائر انحاء البلاد وفي الشام والعراق. فالحجاز لم يرث مخلفات الثقافة الجنوبية التي سبقته لأنه بعيد عنها من حيث الزمن والمكان. والادب الاسلامي لم يحفظ من بقايا تلك العصور البهية شيئاً يؤخذ به ذلك لان الاسلام ينسخ ما قبله.

ولكنه لم يكن طبيعياً ان تمر مدنية الجنوب العربية دون ان تترك بعض الآثار في اختها الشمالية وهذه نقوش حمير تشير الى ذلك. فهناك رقيم (٥٤٢ ـ ٣ م) لابرهة يعرض لانهيار سد مارب كشف عنه المستشرق غلازر ونشره فاذا في مطلعه هذه الكلمات: « بقوة ونعمة ورحمة الرحمنان ومسيحه وروح قدسه) [٣]. ولفظة « رحمنان » في الاصل تسترعي اهتمام الباحث لانها اصبحت فيما بعد الرحمان في لغة قريش ولهذه اللفظة شأن واضح في القرآن كأحد أسماء الله الحسنى العامة في جميع المصنفات العربية واخصها كتب الفقه وعلم الكلام والشرع. وهي كثيرة الورود في سورة مريم. واللفظة الواردة في الرقيم المذكور وان دلت على

١) قابل البخاري، صحيح، (بولاق، ١٢٩٦) علم، ٣٧؛ الترمذي، حج، ١

٢) قابل البيضاوي، انوار التنزيل ج ١ ص ٣٨٣؛ والطبري، تفسير ج ١٠ ص ٧٤

٣) E. Glaser, *Mitteilungen der vorderasiatischen Gesellschaft* (Berlin, 1897), pp. 390, 401; *Corpus inscriptionum Semiticarum*, Pars iv, t. i, pp. 15-19.

الاله الحي عند النصارى فالظاهر انها مأخوذة من اسم احد المعبودات القديمة في الجنوب . ومما يذكر في هذه المناسبة ان الاسود العنسي الذي قام فتكهن في اليمن في بدء الاسلام كان يسمي نفسه « رحمان اليمن » كما تسمى مسيلمة من قبل « رحمان اليمامة » [١] . اما لفظة « الرحيم » فواردة ايضاً اسماً لاله (رح م) في رقم سبأ وحمير [٢] . ولقد شوهدت في رقيم جنوبي آخر لفظة « شرك » بمعنى عبادة آلهة متعددة والشرك هو ما حمل عليه محمد منذ بعثه وشروعه بتبليغ رسالة التوحيد . والشرك في الاصل أن يعبد اله من الآلهة عظيم الشأن يشرك معه آلهة صغرى . وفي الرقيم نفسه لفظة « كفر » [٣] وهي الكلمة التي استعملت في لغة الضاد للتعبير عن معنى الشك والالحاد .

٢ . الحبشة

ولقد كان يحل ساحل الجنوب الغربي من البحر الاحمر قوم من الساميين تسربوا اليه كما رأينا ـ من ساحل الجزيرة المقابل فسمّوا فيما بعد بالاحباش . ونشأت بين هؤلاء الاحباش واقربائهم في الجزيرة وبين المكيين صلات تجارية ما لبثت ان توثقت عراها فاندمجوا في تلك الكتلة التجاريـة الواسعة النطاق التي تولت زعامتها سبأ وحمير وتم لهم مجتمعين احتكار خطوط الطيوب القديمة التي كان يمر اهم فروعها بالحجاز . وقد استطاع الاحباش ان يوطدوا حكمهم في ارجاء اليمن مدة خمسين سنة قبل ولادة النبي . وفي عام مولده رأيناهم وقوفاً على ابواب مكة يتهددون كعبتها بالخراب . ومكة اذ ذاك مقام جالية حبشية لعلها نصرانية يدعى افرادها « الاحابيش » . وكان بـلال [٤] ذو الصوت الرائع الذي رقّاه النبي الى

---

١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٠٥

٢) Dussaud and Macler, *Voyage archéologique*, p. 95; Dussaud, *Arabes*, pp. 152-3

٣) J. H. Mordtmann and D. H. Müller, *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, vol. X (1896), pp. 285-92

٤) و لايزال قبره معروفاً في دمشق .

وظيفة مؤذن عبداً زنجياً من الاحباش . واذا تأملت الآيات القرآنية التي نزلت في وصف البحر وعواصفه [١] هذه الآيات التي تتميز بصفائها ووضوح صورها ادركت انها صدى لهذا النشاط والاتصال البحري بين الحجاز وبلاد الحبشة . ولما اعلن الرسول رسالته وقامت قريش تضطهده وتسرف في ايذاء المسلمين اشار عليهم ان يذهبوا الى بلاد الحبشة [٢] « فان بها ملكاً لا يظلم عنده احد وهي ارض صدق » [٣] .

٣ . فارس

وفي القرن السابق لمجيء الاسلام كانت فارس الزردتشية تنازع الحبشة السيادة على اليمن . فتسربت فنون الحرب الفارسية الى العرب من الجنوب وكذلك من الشمال عن طريق بلاد العرب الفارسية وعاصمتها الحيرة . وفي الحديث أن سلمان الفارسي كان اعرف بأساليب الحرب من غيره فأشار على النبي بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها [٤] وسارع المسلمون الى تنفيذ نصيحته فحفر الخندق وعمل فيه النبي بيديه .

تحكم الفرس في شؤون الحيرة فانتقلت منها مؤثرات ثقافتهم ومؤثرات الثقافة الارامية النسطورية الى الجزيرة في العصور السابقة للنبي . وكما اصبح النساطرة بعدئذ

١) « الفلك مواخر فيه » « وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » . « من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض » . (سورة النحل : ١٤ ؛ سورة يونس : ٢٣ـ٤ ؛ سورة النور: ٤٠) .

٢) وفي العربية كلمات حبشية الأصل مثل برهان وحواريون وجهنم (واصلها قبلاً عبراني) ومائدة ومحراب وملاك (عبراني) ومنبر ومصحف وشيطان . وهي تدل على ما كان لبلاد الحبشة النصرانية من أثر في الحجاز الاسلامي ، ولقد أفرد السيوطي في الاتقان ، فصلاً (ج ١ ص ١٣٥ـ١٤١) للالفاظ الاعجمية الواردة في القرآن . وله رسالة « المتوكلي » طبعت في نيوهيفن سنة ١٩٢٤ لدراسة ١٠٨ كلمات قرآنية اصلها اعجمي .

٣) قابل ابن سعد ج ١ القسم ١ ص ١٣٦

٤) ومن الالفاظ الفارسية في اللغة العربية فرند (سيف) وفردوس (سورة الكهف : ١٠٧ والمؤمنين : ١١) وسجيل اي حجر (سورة الفيل : ٤) وبرزخ اي عقبة (سورة المؤمنين : ١٠٢ ، الرحمن : ٢٠ ، الفرقان : ٥٥) وزنجبيل (سورة الانسان : ١٧) الخ .

حلقة الاتصال بين الثقافة الهلينية و بين الثقافة الاسلامية الفتية هكذا نشطوا في هذا العصر الى نقل افكار بني الشمال من آرامية وفارسية وهلينية الى قلب بلاد العرب الوثنية . ولعل تنصر تغلب القاطنة ربوع الشمال الشرقية وجيرانها من بني بكر ابن وائل كان من اثر هذا الاتصال .

٤ . ارض غسان

وكما كان لنساطرة الحيرة اثر على العرب المقيمين في تخوم فارس كذلك كان للمونوفيزيين القائلين بطبيعة المسيح الواحدة ، وهم يقيمون في ارض غسان ، أثر ظاهر على عرب الحجاز . وتسنى لهؤلاء الغسانيين في القرون الاربعة التي سبقت الاسلام، وهم شعب سوري ، أن يجعلوا العالم العربي على اتصال لا بسورية فحسب بل ببيزنطة ايضاً . ولا يندر وجود اسماء علمية كداود وسليمان وعيسى بين اسماء العرب في الجاهلية .

ومع ذلك فيجب الا يبالغ في اهمية هذه المؤثرات الشمالية او تقدر فوق ما تستحق لان كلتا الكنيستين المونوفيزية والنسطورية لم تكن لهما الحيوية ما يكفل لعقائدهما الدينية انتشاراً وشيوعاً ، وليست المعلومات التي جمعها الأب لويس شيخو (١) كافية لاثبات ان النصرانية كانت موطدة في شمال الجزيرة . ولكنها تعكس صورة صافية لما كان يعيه شعراء الجاهلية من الآراء المسيحية الشائعة والتعابير النصرانية . والاشارات لبائعي الخمر من النصارى والاديرة والصوامع والصنوج والنواقيس التي يضرب بها اذا جاء موعد الصلاة ليست مألوفة كثيراً في الشعر الجاهلي . والمألوف هو ورود وصف الناسك المسيحي يأوي الى صومعته في عزلة القفر يرى القادم سراجه من بعيد او تشبيه نور ، بضوء مصباح الراهب كقول امرىء القيس (٢) :

يضيء سناه او مصابيح راهبٍ أمالَ السليطَ بالذُبال المفتلِ

---

١) النصرانية وآدابها ـ جزءان ـ (بيروت ، ١٩١٢ و ١٩١٩ و ١٩٢٣) وشعراء النصرانية ، مجلدان ، (بيروت ، ١٨٩٠) .

٢) انظر معلقته في الزوزني البيت ٤٠ و ٧١ وقابل سورة المائدة : ٨٥ والنور: ٣٥ ولعل امرىء القيس نصراني ، انظر مقالا لمحمد صالح سمك في المقتطف ج ٧٨ سنة ١٩٣١ ص ٤٨١-٨

ولا شك في ان رؤية المتعبد المتقشف دائباً على زهده في خلوته تركت أثراً عميقاً في التاجر العربي المتنقل بين مراكز القوافل في ربوع الشمال اذكت عاطفته الشعرية وخياله الواسع .

ونذكر من شعراء الجاهلية عدّياً ابن زيد (نحو ٦٠٤ م) الذي عاش في الحيرة وساهم بحظ وافر في بلاط اللخميين . وقسّ ابن ساعدة (المتوفى نحو ٦٠٠ م) الذي سمي خطأ « أسقف نجران » وهو مشهور بفصاحته وحكمه وعنترة ابن شداد (٥٢٥ـ ٦١٥ م) الذي اصبح اسمه في الادب العربي مرادفاً للشعر والفروسية . هؤلاء وامثالهم من شعراء الجاهلية يقال انهم كانوا نصارى . وتسربت الى اللغة العربية اذ ذاك طائفة من الألفاظ الآرامية منها كنيسة و بيعة ودمية وصورة وقسيس وصدقة (١) . ولم تنحصر هذه الالفاظ في ميدان الفكر والدين بل جاوزته الى ميادين الاقتصاد والاجتماع وسواهما من نواحي المدنية المادية كلفظة ناطور ونير وفدان . وكأن العرب ، وقد تغنى شاعرهم في ان ما يكسب المرء المجد والفخار هو رمي النبال وطعان الرماح لا الزراعة والحراثة ، لم يخلوا بالمفردات الزراعية . ولفظة قنديل في الاصل لاتينية ـ كاندلا ـ انتقلت الى الاغريقية ثم الآرامية فالعربية . ولفظة كاستروم اللاتينية صارت في السريانية ـ قسطرا ـ وفي الآرامية الغربية قصرا ومنها قصر في اللغة العربية وهذه هي اللفظة التي اعادتها لغتنا الى اوروبا في صورة كاسرو الايطالية والكازار الاسبانية .

٥ . اليهود

لم يكن التوحيد الذي تأثرت به بلاد العرب من النوع النصراني فقط بل كانت هناك مستعمرات يهودية زاهرة في المدينة وفي واحات كثيرة من اعمال الحجاز الشمالي . وبواسطة هذه المراكز وسواها تطرقت الى مفردات اللغة العربية الفاظ عبرانية مثل جبريل وسورة وجبار . وفي « طبقات الشعراء » (٢) . تأليف

---

١) راجع شيخو ، النصرانية ، ج ٢ ص ١٥٧ـ٢٢٦

٢) نشر هل (ليدن ، ١٩١٦) ص ٧٠ـ٧٤

محمد ابن سلاّم الجمحي (المتوفى ٨٤٥ م) باب خاص باليهود من شعراء المدينة وارباضها. وجاء في « الاغاني » عرض لعدد من شعراء بلاد العرب واليهود . ولكن لم يخلف احد منهم ديواناً الا السموأل (صموئيل [1]) ابن عادياء صاحب الابلق الفرد قرب تيماء ، زعموا انه يهودي معاصر لامرئ القيس ، على ان شعره لا يمتاز بشيء يخرجه عن مستوى الشعر الذي صاغه سواه من شعراء الجاهلية . هذا ما حدا بالبعض حقاً الى الريبة في يهوديته . وقد ذهبوا الى ان اليهودية اصبحت في ربوع اليمن دين الحكومة ابان حكم ذي نواس . ومهما يكن امر تلك الدولة التي قامت في الجنوب فلم يتحقق انها أثرت في حضارة الشمال الى حد يؤبه له .

والخلاصة التي نختم بها هذا البحث ان الحجاز في القرن السابق لرسالة محمد كان محاطاً بمؤثرات ثقافية ـ فكرية ودينية ومادية ـ منبعثة من مصادر بيزنطية وسورية (آرامية) وفارسية وحبشية . وقد اتيح له بواسطة علاقته بالغساسنة واللخميين واليمنيين ان يأخذ ما أخذ من هذه الثقافات الخارجية . ولكن ذلك لا يعني ان الحجاز تأثر بمدنية الشمال ، التي فاقت ما عنده مرتبة ، تأثراً عميقاً قلب جوهر ثقافته الخاصة . ومع ان النصرانية كانت قد علقت اصولها بنجران واليهودية باليمن والحجاز ، فلم يتمّ لهما شيء من الهيمنة على العقلية العربية في الشمال . على ان وثنية الجزيرة البالية كانت تضعضعت وتدنت الى حيث اضاعت مكانتها ولم يبق لها فاعلية في احياء نفوس الامة الخاملة وايقاظها فخرج عليها فئة اعتنقوا نزعة توحيدية غامضة . هؤلاء هم الحنفاء [2] ومنهم أمية ابن ابي الصلت (المتوفى ٦٢٤م) وكانت تربطه بالرسول قرابة عن طريق امه . ومنهم ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة ولو أن بعض المصادر جعلت ورقة نصرانياً . اما من ناحية النظم السياسية فان الحياة القومية المنظمة التي نشأت قديماً بين عرب الجنوب كانت اذ ذاك متهدمة متضعضعة . وقد تهيأت الاسباب ودنت الساعة لظهور زعيم ديني وقومي عظيم .

١) ديوان السموأل ، الطبعة الثانية ، نشر شيخو ، (بيروت ، ١٩٢٠)

٢) مفردها حنيف وهي مستعارة من الآرامية عن طريق النبطية .

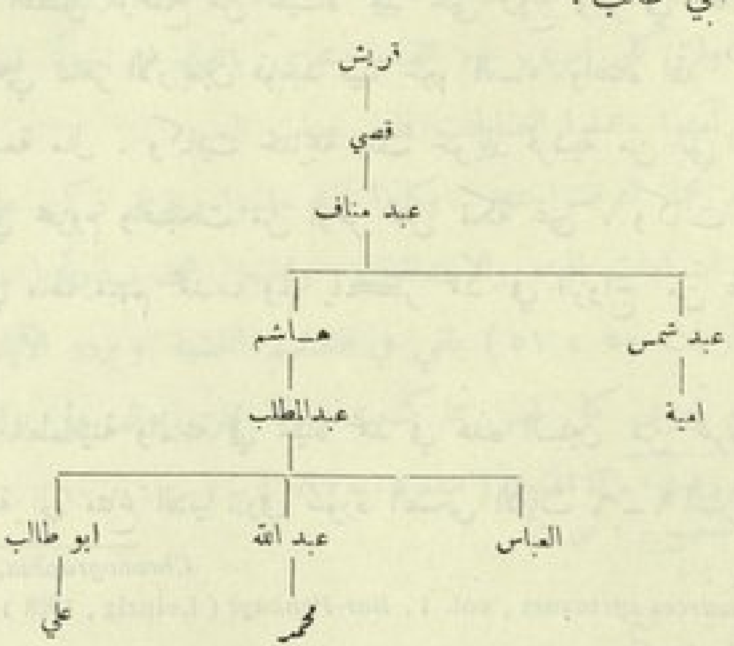
القسم الثاني

ظهور الإسلام ودولة الخلافة

الفصل الثامن

محمد رسول الله

في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمئة او ما يقاربها ولد في قبيلة قريش بمكة صبي دعته امه باسم قد يظل مجهولا ، وبعد أن شب اطلق عليه قومه لقب « الامين » [1] فلزمه . اما في القرآن فاسمه محمد (سورة آل عمران ، الآية ١٣٨؛ الاحزاب ، الآية ٤٠ ؛ الفتح ، الآية ٢٩ ؛ محمد ، الآية ٢) واحمد (مرة واحدة في صورة الصف ، الآية ٦) . وقد كثر تداول هذا الاسم محمد حتى ان عدد الذكور الذين يعرفون به يفوق عدد كل من تسمى باسم آخر . وكان عبد الله والد محمد قد توفي قبل ولادة الطفل فما أن بلغ السادسة من عمره حتى ماتت امه آمنة ايضاً . فتعهد أمره جده عبد المطلب الى أن ادركته الوفاة فآلت كفالة الغلام الى عمه أبي طالب .



١) ابن هشام ص ١٢٥ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨ ؛ المسعودي ج ٤ ص ١٢٤

ولما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره فيما يروى رافق عمه ابا طالب في رحلة الى الشام زعموا أنه قابل في اثنائها راهباً مسيحياً يعرف بالراهب بحيرا .

ومع أنه ليس بين انبياء العالم من ولد في ضوء التاريخ الا محمداً فان نشأته محاطة بالغموض فليس لدينا عن سعيه في طلب الرزق ومحاولاته لبلوغ آماله وادراك الغرض الذي كان يرمي اليه وما قاساه من المشقة والألم في سبيل تحقيقه سوى قليل من الاخبار الموثوقة . وكان اول من كتب عن حياة النبي هو ابن اسحاق المتوفى في بغداد سنة ١٥٠ / ٧٦٧ وقد وصلت الينا هذه السيرة التي كتبها ابن اسحاق من رواية ابن هشام المتوفى في مصر نحو ٢١٨ / ٨٣٤ . ومهما يكن من أمر فانه ليس لدينا غير المصادر العربية لدرس حياة النبي وللبحث في تاريخ فجر الاسلام . وهناك مؤرخ بيزنطي اسمه ثيوفنس [١] زها في مطلع القرن التاسع الميلادي وكان اول مؤرخ بيزنطي ذكر شيئاً عن محمد ولكنه كان متحاملا عليه فسماه حاكم الشرقيين ونبيهم المزعوم . واول اشارة الى محمد في اللغة السريانية هي تلك التي وردت في مؤلف يرجع الى القرن السابع [٢] .

ولم يبدأ الفصل الواضح من حياة محمد حتى تزوج وهو في الخامسة والعشرين من خديجة وهي تناهز الاربعين فوجد فيها خير النساء واغناه الله [٣] بما لها من جاه ومقام وسعة مال . وكانت خديجة بنت خويلد قرشية من بني اسد وقد تزوجت مرتين من بني مخزوم واصبحت من اوفر اهل مكة غنى . وكانت تستخدم رجالا من قريش في مالها منهم محمد . ولم ينكر محمد في الزواج من غيرها وهي في قيد الحياة .

وحسبك الطمأنينة والدعة في حياة محمد في هذه السنين من عمره التي كفاه الله فيها الحاجة الى متاع الدنيا . وفي سورة الضحى الآيات ٦ ـ ٩ اشارة الى ما اعطاه

١) *Chronographia*, p. 333.

٢) A. Mingana, *Sources syriaques*, vol. i, *Bar-Penkayé* (Leipzig, 1908) p. 146 (text) = p. 175 (tr.)

٣) سورة الضحى : ٦ـ٩

الله من مال وراحة بال فتوفرت له السبل لكي يترك نفسه لسجيتها من التفكير والتأمل . واعتاد محمد أن يذهب الى غار بأعلى جبل حراء [١] ـ على فرسخين من شمال مكة ـ ممعناً في التأمل والاستلهام . وفيما هو نائم يوماً في هذا الغار [٢] . سمع صوتاً يأمره قائلاً : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » الخ .. (سورة العلق) فكان هذا اول الوحي وبدء الرسالة (وعرفت ليلة ذلك اليوم من بعد بليلة القدر [٣] وعينت في انها ليلة السابع والعشرين من رمضان « ٦١٠ م ») .

ومرت به فترة من الزمن ثم سمع صوتاً يناديه للمرة الثانية فرجع محمد وقلبه يضطرب خوفاً حتى دخل على خديجة وهو يقول « زملوني » فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى فنزلت « يا ايها المدثر قم فأنذر » الخ [٤] (سورة المدثر) وكانت الاصوات التي سمعها النبي تختلف عليه وتشكل ومنها ما يأتي احياناً مثل « صلصلة الاجراس » [٥] الى ان جاءت السور المدنية فاذا الصوت واحد واضح واذا بمحمد يتحقق أن هذا الصوت هو صوت جبريل .

دُعي محمد الى تأدية رسالة الله كما دعي انبياء الله الغابرون . وتتلخص دعوته في أن الله واحد فرد علي عظيم وهو مبدع الكون وخالق الموجودات وان الآخرة خير من الأولى وان كل امرىء يوم القيامة مجزيّ باعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر وان الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات النعيم .

الا ان قوم محمد اعرضوا عنه . وكانوا اذا جلسوا وجرى ذكره على لسانهم لم يثر اكثر من ابتسامات الهزء والاستخفاف . واضحى محمد نذيراً (سورة الملك ، الآية ٢٦ ؛ الذاريات ٥٠ ، ٥١) يلقي في افئدتهم الخشية ويردد الآيات في وصف يوم الدين ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود

١) انظر ابراهيم رفعت ، مرآة الحرمين (القاهرة ، ١٩٢٥) ج ١ ص ٥٦ـ٦٠
٢) البخاري ، صحيح ج ١ ص ٣
٣) سورة القدر : ١
٤) سورة المدثر : ١ الخ
٥) البخاري ج ١ ص ٣

هو جاز عن والده شيئاً . وجاءت الآيات في وصف جهنم النار وتصوير آلام المعذبين فيها وسعادة الصالحين في فردوس النعيم .

ولكن القوم أمعنوا في ضلالهم واسرفوا في الاساءة اليه الا زوجته خديجة ، وكانت قد تأثرت بتعاليم ابن عمها ورقة ابن نوفل وهو حنيف [١] فكانت اول امرأة اسلمت ثم تلاها علي ابن ابي طالب ابن عم الرسول وابو بكر فهما اول من اسلم من الرجال . اما ابو سفيان زعيم بني امية وهم اشراف قريش فظل على خصومته للنبي . وتساءل بنو امية فيما لو اتيح لهذا الرجل ان يؤلب عليهم اهل مكة ويصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول اليه تجارة قريش ؟ وماذا يكون مقام معبوداتهم الكثيرة ومكة مثابة الحج واليها تشد الرحال من انحاء الجزيرة ؟

ازداد الاسلام انتشاراً بين العبيد والمستضعفين حتى ضاقت قريش ذرعاً بمحمد واصحابه ورأت ان الاستخفاف به لا يجدي فعولت على سلاح اشد فعلاً من ذلك فانصرفت الى الأذى والسعي الى صرف المسلمين عن ايمانهم بالعذاب والتشنيع . فنصح محمد لأتباعه ان يذهبوا الى ارض الحبشة فخرجوا في هجرتين . كانوا في الاولى احدى عشرة اسرة مكية ثم لحقت بهم في سنة ٦١٥ ثلاث وثمانون اسرة اخرى وفي مقدمتها اسرة عثمان ابن عفان . ووجد المسلمون في جوار النجاشي النصراني امناً ودعة . وبعثت قريش لتردهم اليها وبعد ان سألهم النجاشي عن امرهم قال : « ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، فوالله لا اسلمهم الى ايدي الاضطهاد » [٢] وجابه به محمد الاضطهاد وخسران المناصرين الموقت بلا خوف ولا وجل واستمر يعلم الناس ويعظهم ويسعى الى جذبهم الى الاسلام عن سبيل العقل والاقناع ليتركوا عبادة الآلهة ويقبلوا الايمان باله واحد حق هو الله . وكانت الآيات تنزل عليه وهمه ان يرى لقومه كتاباً كالذي بايدي اليهود والنصارى .

وما لبث الأمر بعمر ابن الخطاب وهو من اشد قريش وقيعة في المسلمين ، حتى

---

١) قابل ابن هشام ص ١٢١ ، ١٤٣

٢) المصدر نفسه ص ٢١٧–٢٢٠ ؛ وقابل ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٦–٩

قصد الى محمد فأعلن اسلامه فوجد الاسلام فيه منعة وقيض لعمر أن يلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية الفتية كما سترى بعد . وقبل الهجرة بثلاث سنوات توفيت خديجة زوجة الرسول وتوفي ابو طالب عمه الذي كان على تمنعه من قبول الاسلام خير ملاذ لمحمد من خصومه . وفي هذه الفترة كان الاسراء [١] والمعراج . وكان محمد ليلة الاسراء في بيت ابنة عمه هند ابنة ابي طالب وكنيتها ام هانىء فلما صلى الصبح قال : « يا ام هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه » . هذا هو الاسراء . ثم حملته دابة عجيبة هي البراق لها وجه المرأة واجنحة النسر وذنب الطاووس الى السماء السابعة ـ هذا هو المعراج . وكانت المحطة في هذه الرحلة صخرة يعقوب في بيت المقدس ومن هنا اصبحت مدينة القدس المقدسة عند اليهود والنصارى جميعاً حرماً عند المسلمين ايضاً .

واعتبرت وما زالت تعتبر الحرم الثالث بعد مكة والمدينة في نظر العالم الاسلامي . واخذت كتب السيرة والتفسير الاسراء والمعراج ووقفت عندهما طويلاً تارة تطلب في هذه الحادثة معجزة رائعة واخرى تنصرف الى تصويرها والاستغراق في وصف ما رواه محمد في اسرائه [٢] . وما زالت حلقات التصوف في ايران وتركية تقيم لحديث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد عالم اسباني [٣] ان الاسراء والمعراج مصدر « الرواية الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي دانتي . ومما يدل على ان ذكرى الاسراء لا تزال حية وذات اثر في الاسلام تلك الاضطرابات الخطيرة التي وقعت في آب من سنة ١٩٢٩ في فلسطين بشأن حائط المبكى في بيت المقدس وهو الذي يعتبره المسلمون الصخرة التي ربط اليها محمد البراق [٤] قبل تعريجه الى السماء .

---

١) سورة الاسراء : ١ ؛ البخاري ج ٤ ص ١٥٦ ، ٢٣٠ ؛ البغوي ، مصابيح السنة (القاهرة، ١٣١٨) ج ٢ ص ١٦٩ـ٧٢ ؛ الخطيب ، مشكاة المصابيح ، (سانت بترزبرغ ١٨٩٨ـ٩) ج ٢ ص ١٢٤ـ٩
٢) هيكل ص ١٥٧ـ٦٠
٣) Miguel Asin , *Islam and the Divine Comedy*, tr. H. Sunderland (London,1926)
٤) من البرق عند النحاة ويرى بلوشة ان لفظة براق مستعارة من البهلوية: باره = حصان ، واك للنسبة *Histoire de Religion*, (Paris,1899) vol. iv. ويطلق الاسم اليوم على حائط المبكى .

وفي سنة ٦٢٠ ميلادية قدم سوق عكاظ نفر من يثرب معظمهم من بني الخزرج فعرض عليهم محمد الاسلام فطابت نفوسهم بما سمعوا . ولم يطل بمحمد الانتظار حتى بدت له في الافق تباشير الفوز آتية من ناحية يثرب . ففي سنة ٦٢٢ وفد منها اليه وفد من خمسة وسبعين شخصاً بينهم امرأتــان فبايعوه واحتكموا اليه في الخلاف الناشب بين الأوس والخزرج ودعوه الى اتخاذ يثرب (المدينة) مسكناً . ولجوار اليهود والعرب في يثرب أثر أبعد من هذا النزاع على الزعامة . فاليهود يحسبون انفسهم شعب الله المختار ويترقبون ظهور المسيح . فنشأ عن اتصالهم بالعرب في يثرب ان الأوس والخزرج اصبحوا اكثر استعداداً من غيرهم من وثـني العرب لاستماع الحديث في الشؤون الروحية ولتوقع زعيم ديني . واشتدت اساءة قريش لمحمد فخرج الى الطائف يطلب النصرة والمنعة باهلها من قومه ويرجو اسلامها ولكنه عاد خائباً . فأمر بعد رجوعه مئتين من اصحابه ان يلحقوا باخوانهم الانصار بيثرب وهي مسقط رأس امه على ان يبارحوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . اما الرسول فشخص الى يثرب فوصلها في ٢٤ ايلول سنة ٦٢٢ . فلم تكن الهجرة اذن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة استغرقت سنتين . واصبحت السنة الهجرية التي هاجر فيها الرسول الى يثرب (ابتداء من ١٦ تموز) اول العهد الاسلامي [١] وذلك امر اقره الخليفة عمر بعد وقوع الهجرة بسبع عشرة سنة .

وجاءت الهجرة فاتحة دور جديد من ادوار حياة النبي فهي آخر الحقبة المكية واول الحقبة المدنية . هجر محمد بلدته التي نشأ فيها مهاناً مرفوضاً وقدم يثرب زعيماً مكرماً وهنا أخذ يصرف عنايته الى الوصول بيثرب الى وحدة سياسية نظامية وأخذ يلتفت الى امور السياسة وما تقتضيه من توحيد صفوف المسلمين .

انتهز الانصار (وهو الاسم الذي عرف به اذ ذاك مسلمو المدينة) فرصة الاشهر الحرم وهم بحاجة الى ان يعيلوا المهاجرين بين ظهرانيهم فاعترضوا قافلة تجارية لقريش

---

١) الطبري ج ١ ص ١٢٥٦ ، ٢٤٨٠ ؛ المسعودي ج ٩ ص ٥٣

كانت عائدة من رحلتها الى الشام في الصيف وبهذا وجهوا ضربتهم الى اعظم نقطة حيوية في حياة مكة العاصمة التجارية وهددوا خط التجارة الساحلي بين مكة والشام. وكان ابو سفيان نفسه يرأس قافلة قريش فاتصل به خروج محمد لاعتراضها فخاف عاقبة الامر فارسل رجلاً مسرعاً الى مكة ليستنفر قريشاً . فانطلق قوم من مكة ليمنعوا مالهم واخوانهم . والتقى الجمعان في بدر وهي على بعد عشرين ميلاً الى الجنوب الغربي من المدينة وكان ذلك في رمضان من سنة ٦٢٤ . وبفضل النبي وقيادته التي توحي الحماسة والشجاعة استطاع ثلاث مئة من المسلمين ان يغلبوا الفاً من اهل مكة . وغزوة بدر هذه وان لم تكن بنفسها الا وقعة حربية بسيطة [١] فانها قد غدت مقدمة لانتشار سلطان النبي الزمني وبادرة لوحدة الجزيرة . وهي اول انتصارات الاسلام الحاسمة . وجاء الوحي « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ـ (سورة آل عمران ، الآية ١١٩) « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الخ . (سورة الانفال ، الآية ٤٢ ـ ٣) . وقد اعتبر هذا النصر معجزة وتعضيداً من الله لهذا الدين الجديد [٢] . وظلت روح النظام والبأس وازدراء الموت التي تجلت في هذه المعركة الاولى في الاسلام ملازمة له في معاركه الكبرى ابان عصر الفتوحات . ولم تصبر قريش على عار بدر بل جمعت جموعها برئاسة ابي سفيان ونازلت المسلمين (٦٢٥) في أُحد [٣] ودارت الدائرة على المسلمين واصابت الحجارة التي قذفتها قريش النبي فوقع وشجّ وجهه . الا ان فوز قريش لم يدم فما لبث الاسلام ان استرجع قواه وتحول من دور الدفاع الى دور الهجوم . ولم يبق شيء يحول دون

١) افرز الواقدي (المتوفى ٢٠٧/٨٢٣) اكثر من ثلث « كتاب المغازي » ص ١١ـ٧٥ لذكر واقعة بدر وابطالها .

٢) القرآن ٣ : ١١٩ ، ٨ : ٤٢ـ٣ .

٣) جبل صغير في ظاهر المدينة .

انتشاره وامتداده . وقد كان الاسلام الى ذلك الوقت عبارة عن دين في دولة ، اما في المدينة بعد بدر فقد اصبح اكثر من دين دولة ، انه أصبح الدولة نفسها . ومن هناك منذ ذلك الوقت خرج الى العالم قوة حربية سياسية .

واقبلت سنة ٦٢٧ فاذا الاحزاب وهي تتألف من المكيين واعوانهم من البدو ومرتزقة الاحباش قد عسكرت بمقربة من المسلمين تريد اقتحام مواطنهم وخرجت الوثنية لحرب الله . فعمل محمد بنصيحة سلمان الفارسي [١] . وكان هذا فيما يقال قد اشار عليه بحفر خندق [٢] حول المدينة . وايقنت قريش ومن معها انها مقيمة امام يثرب وخندقها طويلاً دون ان تستطيع اقتحامها وأسقط في يد شراذم البدو التي لم تكن تتوقع نوعاً كهذا من الدفاع المجهول واعتبرت الاحتماء وراء الخندق جبناً لا عهد للعرب به . فانسحب الاحزاب وعادوا ادراجهم من بعد حصار شهر. وكانت قتلى الطرفين لا تتعدى العشرين نفساً . وعاد محمد بعد رحيل الاحزاب فحمل على اليهود يريد الاقتصاص منهم لمعاونتهم للاحزاب يوم كانوا على ابواب المدينة ومؤازرتهم في الفتك بالمسلمين . ففرض عليهم أن يسلموا فيأمنوا على دمائهم واموالهم وابنائهم فابى بنو قريظة وهم في مقدمة قبائل اليهود فحكم الرسول بقتلهم فضربت اعناق ست مئة مقاتل منهم واجلي الباقون عن مساكنهم . واقتسم المهاجرون اموالهم واحتلوا ما لهم من جنائن النخيل [٣] . وكان بنو قريظة اول خصوم الاسلام الذين خيروا بين الاسلام او الموت . وكان النبي في السنة السابقة قد امر بني النضير [٤] وهم قبيلة من يهود المدينة ايضاً بالجلاء ، اما يهود خيبر فاخرجهم من واحتهم الخصيبة في الشمال من المدينة سنة ٦٢٩ (٧ هـ) .

وفي هذا العهد المدني تم تنظيم الاسلام وحدة عربية قومية . وقطع النبي الجديد

---

١) قابل Josef Horovitz, *Der Islam*, vol. XII (1922), pp. 178-83

٢) لفظة خندق العربية مأخوذة من كندك البهلوية الفارسية عن طريق الآرامية .

٣) سورة الأحزاب : ٢٦ـ٢٧

٤) البلاذري ص ١٧ـ١٨ ؛ الواقدي ص ٣٥٣ـ٦

صلته باليهودية والنصرانية . وعين يوم الجمعة للصلاة الجامعة واعتيض بالاذان عن النفخ بالبوق وقرع الاجراس وجعل رمضان شهراً للصوم وحولت القبلة من بيت المقدس الى مكة وأقر الحج الى الكعبة ولثم الحجر الاسود فيها وهما من فروض الدين المرعية في الجاهلية .

وفي سنة ٦٢٨ سار محمد بصحبة الف واربع مئة من المومنين الى مكة مسقط رأسه فجرت بينه وبين قريش مفاوضات انتهت بتوقيع صلح الحُدَيبية الذي وضع المسلمين على قدم المساواة مع المكيين (١) . وقد انهى هذا الصلح بالفعل ما كان بين محمد وبين قومه قريش من حرب . وكان بين الذين دخلوا في الاسلام اذ ذاك خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص اللذان قدر لهما فيما بعد ان يرفعا لواء الاسلام عالياً ويحملا سيفه ظافراً الى شتى البلدان . وتم فتح مكة بعد انقضاء سنتين على صلح الحديبية (في اواخر كانون الثاني سنة ٦٣٠/٨هـ) فدخل محمد الكعبة وامر باصنامها فحطمت وطهر البيت الحرام منها وكان عددها على ما قيل يبلغ ثلاث مئة وستين . وجعل محمد يشير الى هذه الاصنام بقضيب في يده وهو يقول : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » (٢) . وامكنه الله من قريش التي كانت تأتمر عليه . الا ان محمداً قدر فعفا (٣) . وقلما تجد في التاريخ القديم مثالاً للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال .

والراجح ان محمداً في هذه المدة (٤) اقرّ المسجد الحرام اي الكعبة وما يحيط بها من ارض حرماً لا يجوز للمشركين ان يقربوه . ونزلت الآية ٢٨ من سورة التوبة . « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم »

١) البلاذري ص ٣٥–٦
٢) البلاذري ص ٤٠ وقابل سورة الاسرى : ٨٣
٣) الواقدي ص ٤١٦
٤) ابن سعد ج ٢ قسم ١ ص ٩٩ وقابل البيضاوي ج ١ ص ٣٨٣ .

فانتهج المفسرون منها طريقاً للقول في أن الله قد حرّم على غير المسلمين الاقتراب منها . والظاهر ان المراد من هذه الاية هو منع عبدة الاوثان من المجيء الى الكعبة في موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مرعياً الى يومنا هذا [١] . ولا يزيد عدد النصارى الاوروبيين الذين افلحوا في الوصول الى الحرمين الشريفين ونجوا بانفسهم على الخمسة عشر رجلاً اولهم لودفيكو دي فارتما من اهالي بولونية [٢] . في سنة ١٥٠٣ وآخرهم الدن رتر الانكليزي [٣] . اما اكثرهم فضلا على العلم فهو بلا ريب السر رتشرد برتن (١٨٥٣) [٤] .

واقام محمد في السنة التاسعة للهجرة حامية في تَبوك على حدود غسان . ولمّا لم يلق كيداً صالح صاحب أيلة (العقبة) وهو نصراني كما انه صالح قبائل اليهود المقيمين في واحات أذرُح ومقْنا والجرباء [٥] الى الجنوب . واقام محمد عند الحدود يتحدى من شاء ان ينازله او يقاومه . فاقبل النصارى يصالحونه فاعطوه الجزية فكتب لهم رسول الله كتب أمن واحاطهم بكل صنوف الرعاية . وكانت الجزية تشمل الخراج والضريبة فاصبحت هذه الجزية سابقة لها شأن بعيد في تطورات السياسة الاسلامية من بعد .

وتسمى السنة التاسعة (٦٣٠-٣١) « سنة الوفود » لان الوفود كانت فيها ترد تترى الى المدينة لتنضم الى الدين الجديد ولتعلن الطاعة للنبي الامير . ودخلت كثير

---

١) محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، (القاهرة ، ١٣٢٩) ص ٤٧ وفيه : « ترى الآن أهل الحرمين انفسهم يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالا احد من الاجانب بالمرة وان فعل فما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد . »

٢) انضم لودفيكو الى جماعة الحجاج في دمشق وهو متنكر في زي مماليك مصر ، ووصف رحلته الى الحجاز في كتاب بالايطالية (سنة ١٥١٠) نقل الى سواها من لغات اوربا ودحض افتراء بعض الاوربيين الشائع في اقطار الغرب آنئذ والقائل ان جسم محمد بعد وفاته ظل معلقاً في الفضاء فوق مكة . انظر *The Travels of Ludovico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Arabia Felix*, tr. J. W. Jones (Hakluyt Society, vol. xxxii, London, 1863), pp. 25 *seq.*

٣) Rutter, *The Holy cities of Arabia*, 2 vols. (London, 1928)

٤) Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to el Medinah and Meccah*, 3 vols.

٥) البلاذري ص ٥٩ ومايلي .

من القبائل في الدين الجديد اذعاناً لمقتضيات الظروف ان لم يكن عن عقيدة وايمان. ولم يكن الاسلام يطالب المنضوين فيه الا بالشهادة الشفهية وتأدية الزكاة. ويستدل على كثرة الداخلين في الاسلام من البدو بقول يعزى الى عمر: « البدو مادة الاسلام ». وكانت القبائل والانحاء التي لم ترسل ممثليها قبلاً تسرع الآن في ارسال وفودها من اقاصي عُمان وحضرموت واليمن وبينهم ممثلو طيء وهمذان وكندة على قول الروايات. واقبل عدد من القبائل التي لم تكن قد أذعنت لرجل واحد من قبل تقدم الطاعة لمحمد وتعلن له الاسلام.

وفي السنة العاشرة للهجرة دخل محمد ظافراً على رأس موكب الحج السنوي الى مكة عاصمته الدينية الجديدة. وكانت هذه آخر مرة يحج فيها النبي فسميت « حجة الوداع » [١]. وبعد ثلاثة اشهر مرض النبي فجأة فمات وهو يشكو من صداع شديد وذلك في الثامن من حزيران سنة ٦٣٢.

وفي الدور المدني انزلت سور القرآن الطويلة وهي على العموم غزيرة المادة وقد ورد الكثير منها في اسلوب جدلي او تشريعي. ويلاحظ في هذه السور تنظيم امور الصوم والزكاة والصلاة وقوانين اجتماعية وسياسية وترتيب مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد واسرى الحرب والاعداء ولقد اوصى القرآن خيراً وبراً بالعبد واليتيم والمسكين وابن السبيل والبائس. أولم يجد الله الرسول يتيماً معدماً فآواه؟ « فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر » [٢]

ولم ينس محمد وهو في ذروة المجد ايام فقره وخمول ذكره بل بقي زاهداً في الطعام واللباس يسكن بيتاً من الطين كأكثر المنازل الحقيرة في الجزيرة وفي الشام اليوم، بضع غرف حول بهو ينفذ الداخل اليها منه. وكثيراً ما كان يُرى يصلح ملابسه بيديه ويشارك اهل مكة في حياتهم العامة. وكان عند محمد اول ما اشتد

---

١) الواقدي ص ٣٢؛

٢) سورة البقرة: ٢١٨،١٧٢؛ سورة النساء: ٤٠؛ سورة التوبة: ٦٠؛ سورة النور: ٣٣؛ سورة الضحى: ٩. وقابل Robert Roberts, *The Social Laws of the Qorân* (London, 1925).

المرض به سبعة دنانير تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين . ولقد تزوج النبي من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوج منها بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسي او اجتماعي . وولدت له خديجة عدداً من البنين والبنات فمات البنون ولم يعش بعده من البنات الا فاطمة زوج علي . وحز موت ابنائه في نفسه ولكنه تعزى حين ولد له من مارية القبطية ولد اسماه ابراهيم . ولم يعش ابراهيم طويلاً فمرض ومات وحزن النبي عليه حزناً مريراً . وتركت اعمال محمد اليومية وسلوكه في الامور الخطيرة والتافهة أبعد الاثر في النفوس بحيث اصبحت قدوة يقتدي بها الملايين الى يومنا الحاضر . ولم يحدث ان اعتبر شخص واحد عند أي طائفة من طوائف الجنس البشري المثل الكامل للانسان فقلدت افعاله بمنتهى الدقة كما حدث لمحمد .[1]

ومن هذا المجتمع الديني في المدينة نشأت فيما بعد دولة الاسلام وبقي الدين أس اجتماعها كما كان للمهاجرين والانصار . وهذه اول محاولة في تاريخ الجزيرة لتنظيم الجماعة العربية تنظيماً غير مألوف من قبل قائماً على أساس الدين لا اساس الدم كما كان في الماضي ومرتبطاً بالله الواحد الفرد ممثل الوحدة السياسية . وكان الرسول ما دام على قيد الحياة هو المنفذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامة المدنية . وعلى هذا كان محمد علاوة على مقامه الروحي يمارس السلطة الزمنية نفسها التي يمكن ان يمارسها رئيس الدولة ومن هنا اصبح جميع افراد الجماعة الاسلامية بقطع النظر عن نزعاتهم القبلية وولائهم القديم اخواناً في العقيدة واعضاء في اخوية واحدة يجمعهم حب الله والخضوع لرسوله . وهذه كلمات الرسول في خطبته الجامعة في حجة الوداع :

« ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه ! تعلمنّ ان كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرء من أخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه » .[2]

وهكذا فقد قضى الاسلام دفعة واحدة على قرابة الدم وهي اوثق صلة تربط بين

---

١) D. G. Hogarth, *Arabia* (Oxford, 1922), p. 52

٢) ابن هشام ص ٩٦٩ وقابل الواقدي ص ٤٣٣—٤

القبائل واستعاض عنها بقرابة جديدة هي قرابة الايمان بحيث نشأ شبه جامعة اسلامية لبلاد العرب . ولم يكن لهذا المجتمع الجديد كهنوت او زعامة دينية ذات رتب او بلاط مركزي للدين كالمجلس البابوي في النصرانية . وكان للمسجد في هذا المجتمع قيمة خاصة فهو بمثابة دار الندوة وساحة التدريب العسكري كما انه كان مكان التقرب والعبادة . وكان الامام في الصلاة هو ايضاً الامير الاكبر لجيش المؤمنين الذين كانت تجمع بينهم روابط قوية متآزرين للدفاع عن انفسهم متحدين ضد العالم اجمعين . اما العرب الذين ظلوا على وثنيتهم فهم خارج الجامعة الروحية فى نظر الامة . ومحا الاسلام ما قبله فالخمر والميسر ـ وهما من بعد النساء اعز ما كان يتوق اليه العرب ـ حرمهما في آية واحدة [١] . ونبذ الغناء وهو ايضاً مما تستطيبه نفس العربي .

ويبدو الاختلاف بين العهد الجاهلي والعهد الاسلامي في كلمات نسبتها الرواة الى جعفر ابن ابي طالب قيل كلم بها النجاشي يوم أحضر هذا المهاجرين وسألهم في دينهم فقال جعفر :

أيها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة [٢] ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا في ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والاوثان . وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام [٣] ... فصدقناه وآمنا به واتبعناه [٤] ...

---

١) سورة المائدة : ٩٢

٢) قابل سورة البقرة : ١٦٨

٣) الواقع ان فريضة الصوم لم تحدد حتى انتقل الرسول الى المدينة اى بعد الهجرة الى الحبشة بزمن طويل، سورة البقرة : ١٧٩ ، ١٨٣

٤) ابن هشام ص ٢١٩

ومن المدينة امتدت اصول الحكم الاسلامي الى كل نواحي الجزيرة وانتشرت من بعد في معظم اقطار آسية الغربية وافريقية الشمالية . وكانت الجماعة المدنية اذاً مثالاً مصغراً لما وصلت اليه الدول الاسلامية بعدئذ من اتساع الرقعة وترامي الأمصار .

ولقد استطاع محمد في سحابة عمره وهو غير طويل ان يهيء الوسائل لنشوء أمة فتية لم تكن قد نهضت من قبل تتألف من قبائل تأبى الاتحاد في بلاد كانت حتى ذلك الوقت « تعبيراً جغرافياً » قليلة الشأن ، وأن يؤسس ديناً دحر النصرانية واليهودية في الشرق الادنى وحل محلهما وهو لا يزال دين جزء كبير من الجنس البشري . واستطاع فوق ذلك ان يضع حجر الاساس لامبراطورية ما لبثت ان حوت بين أطرافها المترامية أجمل مقاطعات العالم المتمدن في ذلك العصر . وكان محمد امياً [١] ومع ذلك فقد انزل على يديه كتاب لا يزال ثمن سكان العالم يحسبونه آية العلم والحكمة والدين .

---

١) ان لفظة « امي » في القرآن (آل عمران : ١٩) تطلق في رأي اهل السنة على من لا يقرأ أو يكتب إلا أن الطبري ، تفسير : ج ٣ ص ١٤٣ يقول ان الاميين هم « الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب » . والنقادة من العلماء يرون ان لفظة امي في القرآن (سورة الاعراف : ١٥٦ ؛ آل عمران : ٦٨-٦٩ ؛ الجمعة : ٢) ترمز الى غير أهل الكتاب ويجب ان تفسر بمعنى الذي لا يقرأ الاسفار المقدسة مما عند اليهود والنصارى .

الفصل التاسع

القرآن كتاب الله

في السنة التي تلت وفاة النبي عهد ابو بكر ، فيما تذهب اليه التقاليد الاسلامية ، الى زيد ابن ثابت كاتب النبي ان يجمع اجزاء القرآن المبعثرة من المخطوطات المختلفة . ويقال ان عمر هو الذي أشار بذلك على ابي بكر لما لاحظ ان القتل قد استحرّ في القرّاء (حفظة القرآن) في حروب الردة وخشي على القرآن من الضياع ولقد تم جمع المصحف الكريم من قطع العسب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) والواح اللخاف (حجارة بيض رقاق) ومن صدور الرجال [1] فجيء بهذه المقطعات وعورض بعضها ببعض ثم اثبت النص القرآني . وفي خلافة عثمان (٦٤٤ ـ ٥٦) راجت قرآآت شتى في المتداول من مخطوطات القرآن المكتوبة بالخط الكوفي فانتدب الخليفة في سنة ٦٥١ لجنة للمراجعة رئيسها زيد ابن ثابت نفسه ايضاً . وكانت نسخة ابي بكر اذ ذاك في حيازة حفصة بنت عمر ـ احدى زوجات النبي ـ فاحضرت وعُوّل عليها فصارت اساساً لمصحف عثمان هذا . ثم حفظت المخطوطة الاصلية من صورة المصحف الجديد في المدينة [2] بعد أن كتب ثلاث نسخ منها بعث بها الى جيوش الاسلام المرابطة في دمشق والبصرة والكوفة وامر بكل نسخ القرآن الاخرى ان تباد .

اما في رأي العلم الحديث فان المصحف الذي كتبه زيد ابن ثابت لابي بكر

---

١) الخطيب ، مشكاة ، ج ١ ص ٣٤٣

٢) يقال ان ولاة الامر الترك قدموا هذه النسخة هدية الى الامبراطور وليم الثاني . انظر معاهدة فرساي ، القسم الثامن ، الباب الثاني ، المادة ٢٤٦

الصديق كان مصحفاً خاصاً لا رسمياً . وان عثمان وجد بضعة مصاحف في الجزيرة وسورية والعراق بدت فيها قراآت مختلفة ، فأخذ مصحف المدينة وجعل كتابته مصحفاً رسمياً وامر باحراق مـا عداهـا من صحف ومصاحف . واخيراً ثبت النص القرآني على يد الوزيرين ابن مقلة وابن عيسى في سنة ٩٣٣/٣٢٢ بمساعدة العلامة ابن مجاهد الذي اجاز قراآت سبعاً كانت قد نشأت لخلو مصحف عثمان من النقط والشكل . ولقد اتفق دارسو القرآن من نقادة العلم الحديث على صحة الروايـة في نسخه المتداولة اليوم وان هذه النسخ تكاد ان تكون مطابقة للاصل الذي اقره زيد وان نصّ القرآن المعروف اليوم هو كما نزل على لسان محمد [١] .

والقرآن عند المسلمين كلمة الله التي املاها جبريل على محمد من كتاب مكنون في لوح محفوظ في السماء السابعة (سورة الزخرف الآية ٣ ، الواقعة : ٧٦ـ٩ ، البروج :٢١ـ٢) [٢] . وليس معنى السور فقط هو الذي اوحي به من الله بل كل كلمة وكل حرف .

ومن يتحرّ القرآن يجد ان لسوره ترتيباً سطحياً جامعاً لنظام الطول والقصر . فالسور المكية وهي نحو تسعين راجعة لعهد الجهاد في حياة النبي وتمتاز بانها قصيرة حادة حماسية ذات اسلوب ناري مليئة بالمعاني النبوية وتدور السور المكية حول وحدانية الله وصفاتـه وواجبات الانسان الادبية وما ينتظره من ثواب وعقاب . اما السور المدنية فاربع وعشرون (نحو ثلث القرآن حجماً) ولقد انزلت في الدور الذي انتصر فيه النبي . وهـي طويلة مفصلة غنية بالمـادة التشريعية . فيها وردت العقائد والسنن لانظمة الصلاة والصوم والحج والاشهر الحرم . وفيها ايضاً تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر واحكام لتنظيم المال والحرب وتطبيقها على شؤون الزكاة والجهاد ، وشرائع مدنية وجنائية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنى والميراث وتحرير العبيد . ومعظم هذا التشريع وارد في سورة البقرة وسورة النساء

---

١) Arthur Jeffery, *Materials for the History of the Text of the Koran* (Leyden, 1937) , pp. 1-10; وقابل Hartwig Hirschfeld, *New Researches into the Composition and Exegesis of the Koran* (London, 1902), pp. 138 *seq.*

٢) راجع البيضاوي ، ص ٢٣٥ ، ٣٠٩ـ١٠ ، ٣٩٦ .

وسورة المائدة . اما أحكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها (سورة النساء ، الآية ٣)[١] فهي في الحقيقة تحدد عدد الزوجات ولا تقر التعدد الذي كان مألوفاً . ويرى النقاد ان احكام الطلاق (سورة النساء ، الآية ٢٤ والاحزاب : ٤٨ والبقرة : ٢٢٩) هي اكثر الاحكام عنفاً وشدة وان الاحكام التي تعنى بمعاملة العبد واليتيم والغريب (سورة النساء الآية ٢ ، ٣ ، ٤٠ والنحل : ٧٣ ، والنور : ٣٣) هي اكثر التشريع الاسلامي رحمة وانسانية ورفقاً وبراً . ولقد علّم القرآن ان اعتاق العبد نافلة يرضاها الله من الانسان كفارة عن الذنوب . ومن اوقع آيات القرآن في النفس وانبلها الآيتان ٢٥٦ ، ١٧٢ من سورة البقرة .

ولاخبار القرآن التاريخية امثلة تقابلها في التوراة خلا بعض الانباء التي هي عربية محضة كذكر عاد وثمود ولقمان و « اصحاب الفيل » وخلا قصتين ترمزان الى الاسكندر[٢] والى اصحاب الكهف . الا ان هذه الاخبار قد سردت باسلوب مختصر . ومن رجال العهد القديم الذين وردت اسماؤهم في القرآن مراراً : آدم ونوح وابراهيم[٣] (وقد ورد اسم الاخير سبعين مرة في خمس وعشرين سورة وابراهيم اسم السورة الرابعة عشرة ايضاً) واسماعيل ولوط ويوسف (والسورة الثانية عشرة سميت به) وموسى (وقد ورد اسمه في ٢٤ سورة) وطالوت (شاول) وداود وسليمان والياس وايوب ويونس (وسميت السورة العاشرة به) . ولقد وردت الاشارة الى خلق الانسان وسقوط آدم خمس مرات والى قصة الطوفان ثماني مرات والى قصة سدوم ايضاً ثماني مرات . والتوازي ظاهر بين القرآن واسفار موسى

---

١) قابل سورة المعراج : ٢٩ـ٣٠

٢) سورة الكهف : ٨٢ وما يلي ، حيث يظهر ان لذي القرنين وظيفة مقدسة انتدبه الله لها . وفي نبوءة دانيال ٨ : ٥ ، ٢١ إشارة واضحة للاسكندر . اما أصل تلقيب الاسكندر بذي القرنين فغير معلوم ولعله مأخوذ من صورته الظاهرة على بعض النقود المسكوكة ويبدو فيها قرنا كبش كقرني الاله عمون الذي تشبه الاسكندر به .

٣) وفي السور المدنية يصبح ابراهيم حنيفاً ، ومسلماً في آل عمران : ٦٠ وهو سلف محمد الامثل والجد الروحي للاسلام (النساء : ١٢٤ ، آل عمران : ٦١) ومؤسس الكعبة (البقرة ١١٨ وما يلي) وفي التوراة هو خليل الله (اشعيا ٤١ : ٨ ، سفر الاخبار الثاني ٢٠ : ٧) كذلك هو في الانجيل (رسالة يعقوب ٢ : ٢٣) وفي القرآن (النساء : ١٢٤) .

الخمسة [1] اكثر من سواها من اقسام العهد القديم .

ويقصد من عرض هذه القصص التوسل الى عبرة اخلاقية وما المقصد الاسنى مجرد سرد حكاية بل البلوغ بالقارىء والسامع معاً الى مغزى سام او عظة ادبية مثلى كأن يعلن للناس ان الله في القديم كان يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير على شره . اما قصة يوسف فلقد جاءت في قالب واقعي جذاب والاختلافات اليسيرة في هذه وامثالها من القصص الاخرى كقصة استجابة ابراهيم لدعوة الله الواحد الحق (الانبياء ٥٢ وما يلي) عن المعروف في التوراة لها نظائرها التي تقابلها في المشنة والتلمود وسواهما من كتب اليهود القانونية [2] .

ولا يذكر القرآن من اشخاص الانجيل ذكراً واضحاً الا زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ويسوع (عيسى) ومريم . والاسمان الاخيران يغلب ورودهما معاً . ومريم ام عيسى هي بنت عمران واخت هارون [3] في آن واحد . اما هامان الذي تعرفه التوراة كأحد المقربين الى عرش احشويرش [4] فهو في القرآن وزير فرعون [5] ملك مصر . والجدير بالذكر ان اسماء شخصيات التوراة الواردة في القرآن جاءت على ما يظهر عن طريق اللغة السريانية (مثل نوح) واليونانية (مثل الياس ويونس) لا مباشرة عن طريق اللغة العبرانية .

وان دراسة القصص القرآنية السابقة ومعارضة آياتها بما في التوراة لا تثبت ان هنالك اقتباساً صريحاً واليك العبارات التي تتوازى في الكتابين المقدسين : البقرة الآية ٤٤ ـ ٥٨ واعمال الرسل ٣٦:٧ ـ ٥٣ ؛ البقرة : ٢٧٣ وانجيل متى ٦ : ٣ ، ٤ ؛ يونس ٧٢ ورسالة بطرس الثانية ٢ : ٥ ؛ يونس : ٧٣ ، النور : ٥٠ والتثنية ٥:٦ـ٢١ ؛

١) هذه الاسفار الخمسة هي التوراة ، من اللفظة العبرانية : توراه ـ اي الشريعة مع ان الشائع اليوم ان تطلق كلمة التوراة على كل اسفار العهد القديم .

٢) راجع *The Legacy of Israel*, ed. E.R. Bevan and C.Singer(Oxford,1928)pp.129-74

٣) سورة مريم : ١٦ـ٢٩ ؛ آل عمران : ٣١ـ٤٠

٤) سفر استير ٣:١

٥) سورة القصص : ٣٨ ؛ المؤمن : ٣٨

الانبياء ٢٠ ورؤيا يوحنا ٤ : ٨ ؛ المؤمنين : ٣ ومتى ٦ : ٧ ؛ يس : ٥٣ وتسالونيكي الاولى ٤:١٦ ؛ الزمر : ٣٠ ومتى ٢٤:٦ ؛ الشورى : ١٩ وغلاطية ٦ : ٧-٩ ؛ الفتح : ٢٩ ومرقس ٤ : ٢٨ ؛ الليل : ١٨ ولوقا ١١ : ٤١ . وليس في القرآن سوى آية واحدة (١٠٥ من سورة الانبياء) حسبها بعضهم مقتبسة رأساً من التوراة (المزامير ٣٧ : ٩) . والتشابه صريح في الأيات بين الانبياء : ١٠٤ واشعيا ٣٤ : ٤ ؛ النجم ٣٩-٤٢ وحزقيال ١٨ : ٢٠ ؛ النجم : ٤٥ وصموئيل الاول ٢ : ٧ . اما الآيات التي وردت فيها عبارات مثل « العين بالعين » (المائدة : ٤٩ قابل الخروج ٢١ : ٢٣ - ٧ والجمل في « سم الخياط » (الاعراف : ٣٨ قابل متى ١٩ : ٢٤) و« من اسس بنيانه على شفا جرف هار » (سورة التوبة : ١١٠ قابل انجيل متى ٧ : ٢٤ - ٧) و« كل نفس ذائقة الموت » (الانبياء : ٣٦ والعنكبوت : ٥٧ وآل عمران : ١٨٢ قابل العبرانيين ٣٧:٩ ؛ ٢ : ٩ متى ١٦ : ٢٨) فالظاهر انها من الامثال السامية القديمة وجوامع الكلم المألوفة في العبرانية والعربية معاً . واكثر الامثلة على التوازي بين الكتابين هي بين انجيل متى والسور المكية . اما العجائب التي ينسبها القرآن الى عيسى كالقول انه « يكلم الناس في المهد » (آل عمران : ٤٤) وانه خلق من الطين كهيئة الطير (آل عمران : ٤٣) فهي تذكرنا ببعض الخوارق التي نسبت الى عيسى في الاناجيل الابوغرافية (اي غير الموثوق بها) وخصوصاً في انجيل الطفولية ، ولسنا نرى في القرآن شيئاً يتوازى مع ما ورد في اسفار الفرس المقدسة الا صورة السماء والجحيم وهي مرسومة بريشة قد غطست في اصباغ ملونه تغلب فيها المادة على الروح (الواقعة ٨ - ٥٦) . وان لفي كتب الفرس ما يقابل ذلك . ويقال ان صورة النعيم والجحيم التي اخرجها القرآن اوحتها الرسوم الدقيقة او بدائع الفسيفساء التي خلفها النصارى مما يمثل به جنان الفردوس . وفيها صور الملائكة رسمت على اشكال الولدان والحور .

وعلى الرغم من أن القرآن هو احدث الكتب التي غيرت مجرى التاريخ فانه

اوسع الكتب المدونة انتشاراً ويقرأ اكثر من غيره . وليس القرآن كتاب دين فحسب بل هو كتاب درس واطلاع يعتمد عليه كل مسلم ومسلمة في تعلم اللغة العربية . وليس للقرآن ترجمة الى لغة اجنبية يعترف بها المسلمون ولكن هناك ترجمة تركية رسمية وعدة ترجمات لمعاني القرآن قد اصدرها المسلمون في لغات شتى منها الفارسية والبنغالية والاردية والمرثية والجاوية والصينية . وبلغت اللغات التي ترجم اليها القرآن نحو اربعين لغة [1] . وكان المسلمون الى مدة متأخرة يعتمدون في نشر القرآن على طبع الحجر (ليتوغراف) او المخطوطات ولم يحبذوا طبعه على آلات الطباعة . ولقد احصيت آياته وكلماته وحروفه بعناء ودقة فكانت آياته (٦٢٣٦) وكلماته (٧٧٩٣٤) وحروفه (٣٢٣٦٢١) . وبلغ احترام المسلمين للقرآن وتكريمهم له مداه الاقصى اذ شاعت فكرة بعد عصر النبي تقول ان القرآن غير مخلوق « ونرى ان هذه الفكرة صدى لنظرية « الكلمة » على حد قول الانجيل « والكلمة كانت عند الله » . لذلك فالقرآن لا يمسه الا المطهرون » [2] (هذه نظرية اللوغس [3] اليونانية) . وليس نادراً في هذا الزمن ان ترى مسلماً يلتقط ورقة من الارض فيضعها بخشوع في مكان امين من جدار لئلا يكون اسم الله عليها .

ولفظة قرآن معناها الاصلي قراءة او خطبة او محاضرة . وهو كتاب حي فعال

---

١) اول ترجمة للقرآن الى لغة اجنبية كانت الى اللاتينية وقام بها نحو سنة ١١٤١ بطرس راهب كاني الملقب بالمحترم (Venerable) بمساعدة ثلاثة من علماء النصارى وآخر عربي . وكان يحاول في ترجمته الضعيفة هذه ان يدحض المعتقدات الاسلامية . ثم ظهرت اول ترجمة انكليزية سنة ١٦٤٩ في لندن وقام بها اسكندر روس معتمداً على ترجمة افرنسية اصدرها سيور دي زير . اما ترجمة سيل الانكليزية (١٧٣٤) فقد سلك فيها طريق التصرف واعتمد على نسخة لاتينية اصدرها ماراتشي سنة ١٦٩٨ . ثم جاء رودول (١٨٦١) فرتب السور حسب تاريخ نزولها . واصدر بالمر (١٨٨٠) ترجمة جديدة سعى فيها الى الاحتفاظ بالرونق الشرقي ولكن بالمر ورودول تأثرا بترجمة سيل . ومن الترجمات القليلة التي قام بها علماء مسلمون ترجمة مولانا محمد علي (لاهور ، ١٩١٦) الى اللغة الانكليزية . والترجمة الوحيدة التي قام بها مسلم انكليزي هي تلك التي اصدرها مار ماديوك بكثول (لندن ، ١٩٣٠) واول طبعة عربية للقرآن ظهرت بين سنتي ١٤٨٥ و ١٤٩٩ في البندقية وقام بها الساندرو دو باغنيني من أهل برسكيا .

٢) سورة الواقعة : ٧٨ ٣) قابل انجيل يوحنا ١:١ ؛ الامثال ٨:٢٢-٣٠ .

في النفوس خصوصاً اذا رتل ترتيلاً وتلي بلغته الاصلية . وان بعض قوته واثره في النفوس لراجع الى ما يشتمل عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والاناقة . على ان هذه اوصاف للاسلوب الانشائي يتعذر نقلها الى لغة اجنبية . اما طول القرآن فيعادل اربعة أخماس الترجمة العربية من الانجيل . وليست مرتبة القرآن الدينية العائدة الى مقامه السامي كأساس الاسلام والمرجع الاعلى الذي يحتكم اليه في الامور الروحية والادبية الا ناحية واحدة من نواحي عظمته . ولما كان الكلام والفقه والعلم وجوها متفرقة لموضوع واحد عند المسلمين اصبح القرآن عندهم كتاباً مدرسياً يأخذ من مناهله كل من يبتغي التعليم الحر . وفي الازهر (وهو اعظم جامعة اسلامية) وسواه من معاهد العلم في الاسلام تجد القرآن اساساً لمنهاج الدراسة . ويمكن ان يدرك تأثيره الادبي اذا عرفنا ان بفضله وحده اتحدت اللهجات المختلفة للشعوب التي تتكلم العربية فهو الذي حال دون تطورها الى لغات قومية مختلفة كما جرى للغات الرومانسية المتحدرة من اللاتينية . فابن العراق اليوم مثلاً وان لاقى بعض الصعوبة في فهم لغة المراكشي العامية فهو لا يجد شيئاً من الصعوبه في فهم لغة مراكش المكتوبة لان اللغة التي يكتبها القوم سواء في العراق او مراكش - او في الشام والجزيرة ومصر ايضاً - هي اللغة الادبية نفسها التي سنّ طريقها القرآن وسار عليها الكتاب العرب في كل مكان ، ولم يكن للغة العربية على عهد النبي كتاب عالي المقام في الأدب النثري . لذلك صار القرآن اقدم مثال للنثر ولا يزال الى يومنا الحاضر النموذج الذي يحتذى في الكتابة النثرية . ولغة القرآن هي من النثر المسجوع البليغ ولكنها ليست شعراً . اما السجع الذي جاء في عرض الكتاب فهو مثال رفيع يقتفي اثره كل كاتب عربي من المحافظين الى هذا اليوم .

الفصل العاشر

الاسلام دين الخضوع لإرادة الله

من بين الديانات التوحيدية الثلاث التي انشأها الساميون يعتبر الاسلام اقرب الى دين ابراهيم الخليل الذي تمثله التوراة من دين عيسى الذي يبشر به الانجيل. على ان بعض النصارى من اهل اوربا واهل الشرق تكوّن عندهم في العصور الوسطى رأي يستند الى ما بين الاسلام واليهودية والنصرانية من التشابه ومؤداه ان الاسلام بدعة نصرانية اكثر منه ديناً جديداً. وقد وضع دانتي في روايته الالهية محمداً في الجحيم الاسفل مع اولئك « الذين زرعوا بزور العثرة والانشقاق » وقد تطور الاسلام بالتدريج حتى اصبح نظاماً دينياً مستقلا. ولقد كان للكعبة ولقريش الفضل الأول في تقرير هذا التطور.

العقائد

وجرى فقهاء الاسلام في تدارسهم عقائد ديانتهم على التمييز بين الايمان والعبادات والاحسان ـ ويجمعها كلها لفظ دين [١] « ان الدين عند الله الاسلام [٢] »

والايمان هو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخير. واول العقائد واعظمها هي شهادة ان « لا اله الا الله ». واولى ما في الايمان الايقان بمنزلة الله العليا. والواقع أن تسعين بالمائة من اصول الدين الاسلامي يدور حول فكرة « الله »

---

١) راجع المحاورة بين جبريل ومحمد في الشهرستاني، الملل والنحل، نشر كيرتون، (لندن، ١٨٤٢ــ٦) ص ٢٧ وهذه اللفظة « دين » فارسية الأصل ولا علاقة لها بـ « دين » (بمعنى دينونة) الارامية الأصل.

٢) آل عمران : ١٧

ولقد عبرت سورة الاخلاص بآياتها المحكمات عن الاقرار بوحدانية الصمد . فهو الحقيقة العظمى الازلية ، ومبدع الكون ، الخالق (سورة النمل : ٣-١٧ ؛ البقرة ، ٢٧ - ٨) والعليم القدير (الرعد : ٩ - ١٧ الانعام : ٥٩ - ٦٢ ؛ البقرة : ١٠٠ - - ١٠١ ؛ آل عمران : ٢٥ - ٧) والحي القيّوم (البقرة : ٢٥٦ ؛ آل عمران: ١) وله الاسماء الحسنى [1] (الاعراف : ١٧٩) وهي تسعة وتسعون تقابل عدد صفاته لذلك فالسبحة الاسلامية فيها تسع وتسعون حبّة تقابل اسماء الله . وصفات الحب في الله تتضاءل امام صفات القوة والجلال فهو الاله المهيمن العزيز الجبار (سورة الحشر : ٢٣ - ٤) . والاسلام (المائدة : ٥ ؛ الانعام : ١٢٥ ؛ الحجرات : ١٤) دين الطاعة والتسليم لارادة الله . والظاهر ان امتحان ابراهيم يوم امره الله ان يقدم ابنه قرباناً - وهي قصة تمثل التسليم لامر الله (الصافات : ١٠٣)- هي الفكرة التي هيأت للدين الجديد اسمه . وقد عبر القرآن عن خضوع ابراهيم بكلمة « أسلم » . واوثق ما في الاسلام من اسباب المنعة هو هذا الايمان الراسخ بوحدانية الله وذلك الاعتقاد البسيط الخالص بسمو الملك الفعال . ومن هنا ما يتولد في المؤمن من شعور القناعة والاستسلام الذي لا نعرف له مثيلاً عند ابناء الاديان الاخرى . وبعد فلا عجب اذا كانت حوادث الانتحار نادرة في البلدان العربية .

والعقيدة الثانية في باب الايمان هي ان محمداً رسول الله (الاعراف : ١٥٧ ؛ الفتح : ٢٩) ونبيّه (الاعراف : ١٥٦ ، ١٥٨) ونذيره الى أمته (الملائكة : ٢٢) وخاتم النبيين الذين تتابعوا منذ اول الدهر (الاحزاب : ٤٠) واعظمهم . وفي علم الالهيات القرآني ليس محمد الا بشراً لم يتم الله على يده من العجائب غير اعجاز القرآن [2] . الا ان التقاليد والاساطير التي اصطنعتها العامة من بعد نسجت حول

١) الغزالي ، المقصد الأسنى ، الطبعة الثانية (القاهرة ، ١٣٢٤) ص ١٢ وما يليها : البغوي ، مصابيح ج ١ ص ٩٦-٧

٢) هذه السورة المدنية هي الوحيدة التي تعين جبريل كناقل الوحي الى محمد . قابل التكوير : ١٩-٢٠ ؛ النجم: ٥-٧

هامة الرسول هـالة من النور الالهي . ودين محمد دين عملي صريح . وقـلما يشير القرآن الى هدف عال يصعب نواله . ويكاد ان يكون خلواً من العقد اللاهوتية وليس فيه اثر للاسرار الرمزية المقدسة او مراتب الـكهنوت وما رتبته اصول الرسامة والمسح والتـكريس و « الخلافة الرسولية » .

والقرآن كلام الله (التوبة : ٦ ؛ الفتح : ١٥ ؛ قابل الانعام : ١١٤ ـ ١٥) وهو آخر الكتب المنزلة (الاسرى : ١٠٧ ـ ٨ ؛ القدر : ١ ؛ الدخان : ٢ ؛ القصص : ٥١ ؛ الاحقاف : ١١) وهو ازلي « غير مخلوق » . والاقتباس من القرآن يستهل بِ « قال الله » . وكل مـا فى القرآن من حروف وقراآت ومجازات وأساليب لغوية فانه يطابق ام الـكتاب ـ اي اللوح المحفوظ في السماء (الواقعة : ٧٦ ـ ٩ ؛ البروج : ٢١ ـ ٢) . وان تكن عجائب فالقرآن اعظمهن « قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ... » (الاسرى : ٩٠) .

ويقدم الاسلام في نظام الملائـكة مرتبة جبريل على سواه وهو حامل الوحي (البقرة : ٩١) [1] وروح القدس (النحل : ١٠٤ ؛ البقرة : ٨١) والروح الامين (الشعراء : ١٩٣) . وهو كناقل لـكلم الاله الاعلى يماثل هرمس في المثولوجيـة الاغريقيـة .

والخطيئة اما أن تـكون خلقية او شعائرية ، على ان الشرك اعظم الآثام عند الله . والله لا يغفر أن يشرك به آلهة اخرى ويغفر ما دون ذلك (النساء : ٥١ ، ١١٦) . فالزعم بان لله شركاء كان ابغض الامور الى محمد حتى لقد نزلت السور المدنية فاذا هي حافلة بتهديد المشركين وارهابهم بالدينونة الاخيرة (العنكبوت : ٦٢ وما يلي الانبياء : ٩٨ وما يلي) . والراجح أن محمداً لم يشمل اهـل الـكتـاب ـ اليهود

---

١) القرآن معجز من حيث اسلوبه واناقة سبكه ؛ الرعد : ٢٧ـ٣٠ الاسرى : ٨٧ـ٩٦ وانظر ابن حزم الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ج ٣ (القاهرة ، ١٣٤٧) ص ١٠ـ١٤ ، والسيوطي ، الاتقان في علوم القرآن (القاهرة ، ١٩٢٥) ج ٢ ص ١١٦-٢٥

والنصارى - في عداد المشركين مع أن بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك.

واعمق اقسام القرآن اثراً في النفس تلك التي تعنى بمسألة الديئونة والآخرة. وفيه سورة كاملة تسمى «سورة القيامة». ولقد نبه الى حقيقة الآخرة واكدها باشارات متواترة ذكر فيها «يوم الدين» (الحجر: ٣٥-٦؛ الانفطار: ١٧-١٨) و«يوم البعث» (الحج: ٥؛ الروم: ٥٦) و«يوم» او «يوماً» (النور: ٢٤-٥؛ لقمان: ٣٢) و«الساعة» (النحل: ٨٥؛ الكهف: ٢٠ والحاقة (الحاقة: ١-٢). والآخرة التي صورها القرآن تتناول عذاب الجحيم ولذات النعيم الجسديين ومن هنا فهي تستدعي بعث الاجساد.

الاركان الخمسة:

١. الشهادة

تقوم العبادات في الاسلام على خمسة اركان.

الركن الأول الشهادة وصيغتها ان: لا اله الا الله محمد رسول الله. هذه اول كلمة تطرق اذن الطفل المولود في احضان الاسلام وآخر ما يلقى على قبر المؤمن الراحل. وبين الولادة والموت لا يسمع المسلم كلمة تردد اكثر من تلك. فهي جزء من الدعاء الذي يرسله المؤذن اذ يدعو القوم الى الصلاة مراراً كل يوم من اعالي المآذن. وعلى العموم فالاسلام يقبل هذه الشهادة الشفهية علامة للدخول في حظيرته فاذا ما قال المرء الشهادة فهو مسلم.

٢. الصلاة

ويطلب من المسلم ان يصلي خمس مرات [1] كل يوم مولياً وجهه شطر مكة

---

١) الفجر والظهر والعصر والغروب والعشاء.

مردداً الكلام المفروض . والصلاة هي ركن الاسلام الثاني . فاذا نظرت الى العالم الاسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء وقدّر الك ان تستوعب جميع انحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة وتنتشر في مساحة تزداد قدراً وحجماً منتهية من سارا ليونه في الغرب الى كانتون في الشرق ومن توبولسك في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

ولفظة الصلاة العربية مستعارة من الآرامية يدلك على ذلك انها كانت تكتب بواو ـ « الصلوة » . ويرجح ان ما مورس من امر الصلاة في البلاد العربية قبل الاسلام كان غير منظم . والصلاة وان حضت عليها السور الاولى (الاعلى : ١٥) وفرضت مطاليبها واصول اقامتها بعض السور المكية (هود : ١١٦ ، الاسرى : ٨٠ ـ ٨١ ، الروم : ١٦ ـ ١٧) فان فروضها ومنها تعيين اوقاتها الخمسة المتفرقة في ساعات الليل والنهار وما يقتضيه ذلك من القيام لله في حالة القنوت والطهارة الطقسية (البقرة : ٢٣٩ ، النور : ٥٧ ، [1] النساء : ٤٦ ، المائدة : ٨ ـ ٩) لم تنظم الا في الحقبة المدنية . والصلاة الوسطى (البقرة : ٢٣٩) هي آخر ما اوصى به الكتاب . ولقد روى البخاري [2] ان النبي قال « فرض الله على امتي خمسين صلاة » . ثم اخرج ان الخمس هي ما اقامه الله من بعد مراجعة الرسول له بايعاز من موسى يوم زار السماء السابعة وحلق الى سدرة المنتهى (سورة الاسرى : ١) ويجوز الاستدلال بسورة النساء ، الآية ٤٦ على ان استنكار الخمر وتحريمها من بعد قد دفعت اليه الرغبة في حفظ الوقار والسكينة في مواعيد الصلاة والعبادة .

وتمتاز الصلاة الطقسية بكونها عبادة يحددها الشرع ويقوم بها المؤمنون مجموعين وعلى طراز واحد من السجود والركوع مولين وجوههم ناحية مكة وعلى المتعبد ان يحضر الصلاة في حالة الطهارة حسبما ينص الشرع . وعليه ان يصلي باللغة العربية

١) قابل المزامير ٥٥ : ١٧
٢) ج ١ ص ٨٥ وما يلي ؛ قابل سفر التكوين ١٨ : ٢٣ـ٣٣

مهما كان لسانه القومي . فالصلاة على هذه الصورة المنظمة الموحدة ليست طلباً الى الله او دعاءً بل هي ذكر لله كثير (الجمعة : ٩ ـ ١٠ ؛ الانفال : ٤٧) . و « الفاتحة » ذات المعاني العميقة والبساطة المغرية التي تقابل « الصلاة الربانية » عند النصارى يتلوها المسلم الورع نحو عشرين مرة في اليوم بحيث اصبحت من اكثر الصيغ ترديداً . اما الصلاة التي يقوم بها العابد من تلقاء نفسه آناء الليل ـ التهجّد (بني اسرائيل : ٨١ ؛ قاف : ٣٨ ـ ٩) فهي تعد نافلة ويضاعف له بسببها الجزاء .

وصلاة الظهر من كل جمعة هي الصلاة الوحيدة المشتركة العامة (الجمعة : ٩ ؛ المائدة : ٦٣) ، وقد وجبت على كل الذكور من المسلمين . وفي بعض المساجد افرزت اماكن مخصصة للنساء . وتمتاز صلاة الجمعة بالخطبة التي يلقيها الامام . وفيها يطلب من المولى البركة والخير لرئيس الدولة . ولقد نسج الاسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس الا انه تأثر من بعد بطقوس صلاة الاحد التي يمارسها النصارى في البيع . وليس من شكل للصلاة المشتركة يفوق صلاة الجمعة قيمة من حيث الجلال والروعة والبساطة والترتيب . ينتصب فيها العابدون في صفوف ذات اتساق خاص داخل المسجد ممتثلين لقيادة الامام بدقة وخشوع حتى غدت مشاهدة جمع المصلين تحرك اسمى العواطف الروحية في اعماق الصدور . وما لبثت هذه الصلاة العامة حتى اصبحت اداة توحيد لصفوف المسلمين من ابناء البادية ذوي النفوس الفخورة المشبعة بالروح الفردية فغرست فيهم المساواة الاجتماعية وانشأت في افئدتهم فكرة الشعور الموحد وربّتهم على اخوّة الايمان التي ارادها محمد بديلاً لصلة الارحام وعلاقة الدم . هكذا اصبح مقر الصلاة « الساحة الاولى لتدريب جيوش المسلمين » .

٣ . الزكاة

جعلت الزكاة في الاصل كعمل خير وبر يوجه لذوي الحاجة فكانت عملاً اختيارياً (البقرة : ٢١٦ ـ ١٧ ، ٢٦٣ ـ ٩ ، ٢٧٣ ـ ٥) ولكنها ما برحت حتى

انقلبت فريضة تفرض على العقار والمال والانعام والحبوب والاثمار والتجارة . والقرآن (البراءة : ٥ ؛ البقرة : ٤٠ ، ٧٧) اورد الزكاة الى جانب الصلاة في عدد من الآيات . وفي اوائل الدولة الاسلامية كانت جباية الزكاة معقودة لعمال منتدبين وامر توزيعها منوط بخزانة الدولة ومنها كانت الحكومة تتقاضى نفقاتها (البراءة : ٦٠) . ولفظة زكاة من اصل آرامي وهي اخص واكثر تعييناً من لفظة صدقة التي تعتبر عملاً تبرعياً وتدل على العطاء والبذل بنوع عام . والزكاة أمر طائفي محض يشمل اعطية المسلمين التي توزع في المسلمين دون سواهم . وفي حديث نبوي هي « قنطرة الاسلام » . والحق ان المبدأ الاولي الذي تنبعث فكرة الزكاة عنه يوافق مبدأ العشر الذي قال بلينيوس [١] أن التجار من عرب الجنوب كانوا يؤدونه لآلهتهم قبل أن يسمح لهم ببيع طيوبهم . ولقد تغيرت مقادير الزكاة على مر الايام الا انها تتعين دائماً بالرجوع الى الفقه . والزكاة على العموم تبلغ اثنين ونصف بالمائة من الاصل الذي تجبى منه . وهي تضرب على كل انواع المال حتى أن معاشات الجند المتقاعدين لم تكن لتعفى منها . ولدى تضعضع الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى اصلها اي صارت قائمة على وجدان المسلم . والزكاة هي الركن الثالث من اركان الدين.

٤ . الصوم

تعددت الاوامر بالصوم في السور المدنية اما توبة الى الله او نذراً (المجادلة : ٥ ؛ مريم : ٢٧ ؛ النساء : ٩٤ ؛ البقرة : ١٩٢) . ولم يذكر رمضان كشهر صيام الا مرة (البقرة : ١٧٩ ـ ٨١) . الا ان القرآن نزل في رمضان (البقرة : ١٨١) وفيه تم الفوز للمسلمين في وقعة بدر . والصوم فيه يعني الامتناع عن كل مأكل ومشرب من الفجر الى مغرب الشمس (البقرة : ١٨٣) . ولقد غالى بعض المسلمين في تفسير كنه الامتناع عن الطعام الذي يقتضيه الصوم بحيث منع احدهم الطبيب من ادخال ملعقة في فمه مخافة ان يكون عالقاً بها شيء من الطعام يفسد عليه صيامه [٢]

١) Bk. XII, ch. 32

٢) ولكن انظر البقرة : ١٨٠

وتحاول بعض الحكومات في البلاد الاسلامية احياناً تطبيق فرض الصيام بالقوة اذا ما لاحظت في المؤمنين استهتاراً به .

ولا دليل لدينا يثبت وجود الصوم في ايام الجاهلية . الا ان العادة كانت مألوفة ولا ريب عند النصارى واليهود . ولقد ذكر ابن هشام [١] ان قريشاً في جاهليتها كانت تجاوز في حراء من كل سنة شهراً تقبل فيه التحنّث (التبرّر) . وكان محمد قبل فرض رمضان يصوم يوم عاشوراء وهو العاشر من محرم . ولقد اخذ عاشوراء عن اليهود [٢] . ولم ترد لفظة « الصوم » في السور المكية الا في موطن واحد (مريم : ٢٧) وذلك بمعنى السكوت على ما يلوح .



الكعبة

٥ . الحج

والحج (آل عمران : ٩١ ؛ البقرة : ١٩٢ ـ ٦ ؛ المائدة : ١ ـ ٢ ، ٩٦) هو

١) السيرة ، ص ١٥١ ـ ٢

٢) البخاري ج ٢ ص ٢٠٨ ؛ سفر اللاويين ١٦ : ٢٩

الركن الخامس والاخير من اركان الاسلام وقد فرض على كل مسلم ومسلمة يستطيعان اليه سبيلاً وهو يستدعي زيارة البيت الحرام مرة في العمر في حين معين من السنة. والعمرة اقل اهمية من الحج الحقيقي وهي عبارة عن زيارة لمكة يقوم بها المسلم متى شاء وفي الوقت الذي يريد.

يلج الحاج العتبات المقدسة محرماً (لابساً الازار وهو قطعة واحدة من قماش غير مخيط) فيطوف حول الكعبة سبعاً ثم يتم السعي (١) اي يجتاز سبع مرات بين جبل الصفا وجبل المروة. ولا يبدأ الحج الحقيقي الا بالمسير الى عرفة (٢) في اليوم السابع والثامن من ذي الحجة. اما الوقوف في المواقف فعند حرمي عرفة وهما المزدلفة ومنى. ورمي الجمار (الحجارة) يتم على الطريق المؤدية الى وادي منى عند جمرة العقبة. ثم تقدم الذبائح عند منى. وتكون الاضحية من بهيمة الانعام اي بدنة من الابل او الغنم او احدى ذوات القرون (الحج : ٣٤ ـ ٧) يذبحونها في العاشر من ذي الحجة وهذا هو عيد الاضحى الذي يحتفل به المسلمون اينما كانوا في الارض. وبه تنتهي فريضة الحج رسمياً. وعلاوة على بعض الامور التي حظرت على المسلم اثناء صيامه، فانه قد فرض على الحاج، ما دام محرما، ان يراعي شروط الاحرام والمناسك التي تقتضي ان لا يسفك دماً او يقتل صيداً او يقتلع نبتاً (٣) ومن بعد حلق الرأس يخلع الحاج احرامه ويُحلّ.

وكان الحج الى الاماكن المقدسة نظاماً سامياً قديماً (٤) وكان من معالمه ماعرف في زمان العهد القديم (سفر الخروج ٢٣ : ١٤ ، ١٧ ؛ ٣٤ : ٢٢ ـ ٣ ؛

١) يقوم المسلمون بالسعي تذكاراً لما جاء في الاحاديث من ان هاجر سعت سبع مرات بين الصفا والمروة طلباً للماء لارواء غليل ابنها اسماعيل.

٢) عرفة اسم الوادي وعرفات اسم الجبل كما يرى رفعت، مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٤ ولكن اللفظين يترادف استعمالها كثيراً.

٣) لزيادة الايضاح عن شعائر الحج راجع مرآة الحرمين ج ١ ص ٩٩ـ١٤٢ ولقد كان رفعت مؤلف مرآة الحرمين امير الحج المصري سنة ١٩٠١ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٨

٤) W. Robertson Smith, *Lectures on the Religions of the Semites*, 3 ed. by S. A. Cook (London, 1927), pp. 80, 276.

صموئيل الأول ١ : ٣) ونعله فى الاصل ظاهرة من عبادة الشمس كان القوم يحيون عيداً لها فصادف ان وقع هذا العيد في الاعتدال الخريفي - وهو رمز انشراح صدر الانسان فكان العيد بمثابة توديع لقيظ الشمس وسيطرتها الغاشمة واستقبال لقزح ، اله الرعد والخصب . وكانت مواسم الاسواق السنوية في الجاهلية في شمالي الجزيرة تنتهي بالحج في ذي الحجة الى الكعبة وعرفـة . ولقد استنّ محمد في السنة السابعة للهجرة عادة الحج القديمة فأضافها الى الاسلام بما فيها من مراسيم العبادة المتركزة في مكة وعرفة . فتم للاسلام بتلك الفروض اعظم تراث له من جاهلية الجزيرة . ولقد ذكر ابراهيم رفعت [١] بعض مـا يصـدر من العربان من الكلام الساذج الغريب وقت طوافهم بالبيت الحرام كأن يقول الرجل منهم « يا رب البيت ! اشهد اني جيت ! لا تقول ما جيت . اغفرلي ولوالدي والا تغفرلي غصباً ، تراني جيت ! »

وتتوجه جماعات الحجيج من اواسط افريقية بصورة غير منقطعة الى الحجاز من السنغال وليبريا ونيجريا سائرة الى الشرق ويزداد عددها كلما واصلت سيرها . ويسير بعض الحجاج مشياً على الاقـدام ويركب غيرهم الابل . امـا كثرة الذاهبين فمن الرجال والنزر القليل من النساء والأولاد . ومنهم من يعول على الاتجار وغيرهم على الاستعطاء او سواه من الوسائل تمهيداً لانفسهم للوصول الى مكة المكرمة والمدينـة المنورة . ويموت عدد كبير من هؤلاء في طريق الحج فيصبحون في عداد الشهداء . اما الناجون بانفسهم فلقد يتيسر لهم البلوغ الى أحد مرافىء البحر الاحمر الغربيـة ومنه يسافرون في قوارب خاصة بشواطىء جزيرة العرب الى الشاطىء المقـابل . الا ان قوافل الحج العظمى تفـد من اليمن والعراق والشام ومصر . ولقد كانت هـذه البلدان فيما مضى ترسل كل عام على رأس قافـلة حجيجها محملاً عنواناً لمكانتهـا . والمحمل يغطى بنسيج من الحرير وافر الزينة والزخرف يحمل على جمل يقـاد باليد دون ان يركبه أحد . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي جرى اولياء الامر في الاقطار

---

١) ج ١ ص ٣٥

الاسلامية على اشخاص هذه المحامل اعلاناً لاستقلالهم واظهاراً لما لهم من حق حماية الحرمين . وفي الاخبار المنقولة ان شجر الدر زوجة نجم الدين احد سلاطين الدولة الايوبيـة المتأخرين هي التي ابتدعت فكرة المحمل في منتصف القرن الثالث عشر . الا انّ بعض التآليف [١] القديمة تحسب الحجاج ابن يوسف (المتوفى ٧١٤) ، عامل الامويين على العراق ، منشىء هذه العادة . وسواء اصدقت هـذه الرواية ام تلك فالجـلي ان الاحتفال بايفاد المحمل لاقى تشجيعاً خاصاً وعناية فائقـة على دور المماليك في عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠ ـ ٧٧) حتى صارت العادة أثراً [٢] يقتفى من بعده . وفي غضون السنين المتأخرة لم يعادل ركب الحجيج المصري الا الركب الشامي من حيث العظمة والأبهة . ولقد بلغ عـدد الحجاج السنوي من بعد الحرب العالمية معدل ١٧٢٠٠٠ . وجاء في احصاآت الاتراك لسنة ١٩٠٧ أن عددهم كان في تلك السنة نحو ٢٨٠٠٠٠ . واوفر فئة بين الحجاج تأتي من ملقا وعـددهم حوالي ٣٠٠٠٠ على التقريب وليس لبـلاد الحجاز القـاحلة افضل من موسم الحـج مورداً اقتصادياً .

ولا يزال الحج على كر العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عرى التفاهم الاسلامي والتآليف بين مختلف طبقات المسلمين . وبفضله يتسنى لكل مسلم ان يكون رحالة مرة في حياته على الاقل ، وان يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً اخوياً ، ويوحد شعوره مع شعور سواه من القادمين من اطراف الارض . وبفضل هذا النظام يتيسر للزنوج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغـيرهم ـ اغنيـاء كانوا او فقراء عظماء او صعاليك ـ انْ يتآلفوا لغة وايماناً وعقيدة . وقد ادرك الاسلام نجاحاً لم يتفق لدين آخر من اديان العـالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقوميـة ـ

١) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٧٤ ؛ ياقوت ، البلدان ، ج ٤ ص ٨٨٦ ؛ ابن رسته ص ١٩٢ ، وانظر السيوطي ، الكنز المدفون (بولاق ، ١٢٨٨) ص ٦٨

٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٧٤ ؛ وقابل المقريزي ، المواعظ والاعتبار نشر غاستون فييت (القاهرة ، ١٩٢٢) ج ٣ ص ٣٠٠ والسلوك في معرفة دول الملوك ترجمة كاترمير ج ١ قسم ١ ص ١٤٩ ـ ٥٠ ويمكن ان المحمل ومركب (عطفة) الرولة وتابوت العهد ترجع كلها الى اصل سامي واحد .

خاصة بين ابنائه . فهو لا يعترف بفاصل بين افراد البشر الا الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين ..ولا شك ان الاجتماع في مواسم الحج ادى خدمة كبرى في هذا السبيل فضلاً عن تاثيره في نشر الدعاية والافكار المذهبية بين الخلائق القادمة من بلدان لم تربطها وسائل الاتصال الحديثة والتي ليس للصحافة فيها صوت ومن امثلة ذلك الحركة السنوسية في شمالي افريقية التي لولا الحج لما تهيأ لها من وسائل التكون والذيوع ما تهيأ .

الجهاد

وهناك الجهاد [1] (البقرة : ١٨٦ - ٩٠) وترفعه فرقة من فرق الاسلام (الخوارج) الى مصاف الاركان وتجعله ركناً سادساً . واليه يعود الفضل في امتداد الاسلام امتداداً لا قرين له في نهضة الدول العالمية . وتتضمن وظيفة الخليفة توسيع النطاق الجغرافي لدار الاسلام على حساب دار الحرب . وان تقسيم العالم الى منطقة سلم ومنطقة حرب توازيه النظرية الاشتراكية التي تتمسك بها روسية السوفياتية . الا ان فكرة الجهاد لم تحظ في السنين الاخيرة بمناصرة العالم الاسلامي وذلك في الاكثر لان معظم اقطار الاسلام المترامية الاطراف تخضع لسلطات اجنبية لا تستطيع التخلص منها او لا ترغب فيه . وآخر دعوة الى الجهاد وجهت الى العالم الاسلامي هي تلك التي نادى بها محمد رشاد السلطان العثماني في خريف سنة ١٩١٤ الا انها لم تأت بأية نتيجة .

أن ما ذكرناه فيما تقدم من العبادات الواجبة هو اساس الدين الاسلامي . ولكن ليست العبادات كل ما في القرآن من اوامر وفروض . فالاحسان مثلاً يدعمه التشريع القرآني . كذلك قانون السلوك الأدبي سواء اكان فردياً ام اجتماعياً فانه يبنى على اوامر الدين ونواهيه والمقياس الذي به يعرف الحلال من الحرام يرجع ابداً الى ارادة الله كما نزلت على محمد . على ان الاسلام هو اول دين في الجزيرة قال بوجود

١) ليس في الاسلام نظرياً حرب دنيوية ، انما هو جهاد .

العلاقة الفردية بين الخالق والمخلوق وجعل العبد مسؤولا عن نفسه . هذا وقد نسخ الاسلام في ميدان الاجتماع قانون القبائل المبني على علاقة الدم واستعاض عنه باخوة دينية . اما في ميدان الفضائل الانسانية فلقد جعل الاسلام عمل الخير واجباً ووصفه بلفظة الزكاة وشدد عليه جداً . والآيات التي نقرأها في سورة البقرة : ١٧٢ وآل عمران : ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ـ ١١ والنساء ٤٠ : والاعراف : ٣١ تضاهي افضل ما نجده في التوراة (مثلاً سفر عاموس ٥: ٢٣ ـ ٤ يوشع ٦ : ٦ ؛ ميخا ٦ : ٦ ـ ٨) وفيها يتجلى ما في القرآن من مثل اخلاقية عليا .

الفصل الحادي عشر

عصر الفتح والتوسّع والاستعمار

٦٣٢ - ٦٦١ ميلادية

الخلفاء الراشدون

١. ابو بكر ٦٣٢ _ ٦٣٤

٢. عمر ٦٣٤ _ ٦٤٤

٣. عثمان ٦٤٤ _ ٦٥٦

٤. علي ٦٥٦ _ ٦٦١

جمع محمد في شخصه وظائف النبوة والاشتراع والامامة والقضاء وقيادة الجيش والرياسة المدنية في الامة . ولكن محمداً قد مات الآن فمن ذا ترى يخلفه بعد موته؟ على ان وظيفة الرسول من حيث هو خاتم النبيين واعظمهم هي بطبيعتها غير قابلة للانتقال الى خلف يرثها عنه .

لم يترك النبي ذرية من الذكور ولا من الاناث خلا ابنته فاطمة زوجة علي اما الزعامة او المشيخة عند العرب فلم تكن وراثية تماماً بل كانت في الغالب انتخابية تنتقل الى اكبر القبيلة سناً . وعلى هذا فلو ان النبي لم يحتسب بنيه فان المشكلة التي جابهها الاسلام من بعد ممات الرسول تبقى على ما هي من التعقيد . ولم يعين محمد بوضوح خلفاً له فأصبحت الخلافة اقدم المعضلات التي واجهها الاسلام واعصاها ولم يزل يعاني مشقتها حتى اليوم . وفي آذار من سنة ١٩٢٤ الغى الكماليون

الترك الخلافة العثمانية في الاستانة واقصوا عبد المجيد الثاني بعد انقضاء ستة عشر شهراً على ثلهم عرش آل عثمان . ثم عقدت عدة مؤتمرات اسلامية جامعة في القاهرة ومكة لبحث مسألة الخلافة وتعيين من هو أحق الناس بها . ولكنها لم تصل الى نتيجة . وقد صدق الشهرستاني (١) إذ قال : « واعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سُلّ في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان ».

توفي محمد فظهرت احزاب متضاربة ـ وهو ما يحدث في كل مجتمع يفاجأ بشأن خطير . فكان هناك حزب المهاجرين واكثرهم قرشيون من قبيلة النبي وقد ادعوا ان الخلافة حق لقريش وزادوا انهم هم أول من قبل رسالة النبي . وكان ينازعهم على الخلافة حزب الانصار وهم من اهل يثرب ودعواهم ان الخلافة يجب أن تكون فيهم وانه لولا احتضانهم لمحمد وحمايتهم للاسلام في طفولته لضاعت الرسالة والرسول معاً . ثم حدث بعد ذلك أن توحد هذان الحزبان تحت اسم الصحابة . وكان هناك حزب آخر تألف من اصحاب النص والتعيين مبدأه انه لا يجوز التسليم بان الله ورسوله يضعان جماعة المؤمنين تحت رحمة الانتخاب والمبايعة. ولا مجال للشك ـ في رأيهم ـ ان زعامة الاسلام معقودة لمن يستحقها على أساس منصوص معين أي لعلي ابن عم الرسول وزوج فاطمة التي خلفته . فعلي هو خليفة الرسول الشرعي يؤيده النص والتعيين . واستمد هذا الحزب الولاية من الله فكان حق الخلافة عنده مقدساً بينما استمدها الآخرون من الامة واناطوها بالانتخاب والمبايعة . وأخيراً ظهر حزب ارستقراطية قريش يمثله الامويون الذين كانت لهم الزعامة في الجاهلية واستأثروا بالسلطة والثروة الا انهم كانوا آخر من قبل الاسلام ولقد نهضوا الآن يدعون الخلافة وعلى رأسهم ابو سفيان بعد ان كان هذا زعيم المعارضة للنبي حتى فتح مكة .

خلافة الراشدين : عصر الحكم المشيخي

وظفر الحزب الأول ـ حزب المهاجرين ـ فتم انتخاب ابي بكر حمي النبي واحد

١) الملل والنحل ، ص ١٢

الثلاثة او الاربعة الأول الذين آمنوا بالرسول فبايعه رهط الرؤساء المحتشدين . ولعل مبايعة ابي بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر ابن الخطاب وابي عبيدة ابن الجراح - الكتلة الثلاثية التي ادارت شؤون الاسلام وهو بعدُ في مهده .

وابو بكر الصديق (٦٣٢ - ٤ م) هو الخليفة الأول في الاسلام ورأس الخلفاء الراشدين الاربعة وقد تلاه عمر ابن الخطاب (٦٣٤ - ٤٤ م) فعثمان ابن عفان (٦٤٤ - ٥٦ م) فعلي ابن ابي طالب ٦٥٦ - ٦١) وكان عصر هؤلاء الخلفاء الاربعة عصر شظف في العيش وخشونة وتقلل في المطعم والملبس لقرب العهد بسيرة الرسول وما نسجته تلك السيرة للمؤمنين من مثل عليا في البر والتقوى والبساطة التي لم تكن الايام قد درستها بعد . فانطبعت اخلاق الخلفاء الراشدين بطابع الرسول الشخصي وحسبك ان كلا منهم كانت تربطه بالرسول عرى الصداقة والقربى . واستقرت ولايتهم في المدينة وهي حافلة بذكريات ايام الرسول الاخيرة الا علياً فانه اختار الكوفة بالعراق فجعلها عاصمة له .

الجزيرة تتوحد

وكانت خلافة ابي بكر (٦٣٢ - ٤ م) قصيرة الأمد شغلته فيها حروب الردة . ولقد سلكت مدونات العرب التاريخية مسلكاً واحداً في العرض لهذه الحروب فذهبت الى ان الجزيرة باسرها اذعنت للاسلام ودانت للرسول في ايام حياته ، حتى اذا ما ادركته الوفاة قامت قيامة الاعراب وارتدوا فيما خلا الحجاز وتبعوا نفراً من الانبياء الكذبة الذين ظهروا عندئذ . والواقع ان خطوط الاتصال بين انحاء الجزيرة كانت يومئذ صعبة قليلة ووسائل نشر الدين وبث دعوته ضعيفة ولم يكن الزمن لاكتساب الاتباع قد اتسع بحيث لم يكن من المستطاع بالفعل أن يدخل الاسلام في حياة الرسول اكثر من ثلث سكان الجزيرة . ويجب ان لا ننسى ان الحجاز وهو القطر الذي ولد الاسلام فيه لم يعمه هذا الدين الا قبل موت الرسول بسنة او سنتين . اما الوفود التي قيل انها قصدت النبي لتقديم الطاعة

والاقرار بولايته فلا يسوغ البت في انها كانت تنوب عن كل انحاء الجزيرة . واذا اسلمت القبيلة يومئذ فلم يكن في الامر سوى ان زعماءها دخلوا في الدين .

وكانت بعض هذه القبائل المسلمة في اليمن واليمامة وعمان قد تهاونت في مسألة الزكاة واستنكرت بعثها الى المدينة . وجاء موت الرسول حافزاً لها على الخروج . ولا يستبعد أن تشوّف العاصمة الحجازية للسيادة حركت كوامن الغيرة والحسد في أوساط الجزيرة فتجلت النزعات الفردية والعصبيات الاقليمية التي طبع عليها العربي .

ومع ذلك فقد اصر ابو بكر على طلب الاذعان من المرتدين والتسليم بلا قيد او شرط والاّ فالحرب حتى الدمار [١] . ولم يمض الا زهاء ستة اشهر حتى تمكن الاسلام بقيادة خالد ابن الوليد من اخضاع قبائل الجزيرة الوسطى وحملها على تقديم الطاعة . فخالد هو بطل هذه الحروب . وكانت اول قبيلة اخضعها هي طيء ثم اسد وغطفان وكان فيها نبي لقبه المسلمون بطليحة الكذاب . ثم فاز جند المسلمين على بني حنيفة من اهل اليمامة وقد اجتمعوا تحت راية نبي لهم ذكرته الاخبار العربية باسم مُسَيلمة بصيغة التصغير تحقيراً له واستهزاء به . وكان مسيلمة هذا قد ابدى اعظم مقاومة للاسلام فقد وحد صفوفه وعقد حلفاً دينياً دنيوياً مع سَجَاح [٢] وهي امرأة نصرانية فيما رووا ادعت النبوة وتعاطت العرافة فتبعتها تميم ثم تزوج منها وسار فيما يقال باربعين الف مقاتل فانتصر على جيشين من جيوش المسلمين فوافاه خالد وواقعه ولم ينثن الا والنصر في جانبه . بيد ان الغلبة لم تتم للمسلمين دون استشهاد عدد من حفاظ القرآن خُشي بعد موتهم على الكتاب الكريم من الضياع . ولقد سيرت المدينة حملات عسكرية بامرة قواد آخرين تم لهم من النصر حظوظ متفاوتة [٣] منها ما انفذ الى البحرين وعمان وحضرموت واليمن حيث كان الأسود العنسي قد ادعى النبوة ودعا قومه فآمنوا بنبوته . اذن لم تكن حروب الردة في الواقع حروباً

١) البلاذري ص ٩٤
٢) كانت امها تنتسب الى تغلب القبيلة النصرانية .
٣) راجع البلاذري ص ٩٤ـ١٠٧

يقصد بها اخماد ثورة قام بها المرتدّون وكبح جماح الثائرين على الاسلام ممن اتخذه ديناً - كما توهم مؤرخو العرب - بل هي في الحقيقة حملات قصد بها اخضاع اعداء ما عرفوا الاسلام ولا قبلوا رسالته وحملهم على الانضمام اليه .

توحدت الجزيرة في خلافة ابي بكر بسيف خالد . وقبل ان تهبّ الجزيرة الى اخضاع العالم كان عليها ان تخضع نفسها بنفسها . ولقد جعلت هذه الحملات الداخلية من بلاد العرب في الاشهر اللاحقة لوفاة النبي امة مسلحة ما كادت تطفىء نار الثورة الاهلية حتى حاولت الاتجاه الى الخارج والتطلع الى منفذ جديد تستثمر فيه ما خبرته من شؤون القتال . ولما كان الاسلام قد وضع حداً لتطاحن القبائل ضمن دائرته وشمل العرب بنوع من الاخوة والسلام كان لا بد للروح الحربية العربية من ميدان جديد .

كانت الحادثتان الخطيرتان في اواخر العصور القديمة هما الهجرات التوتونية (الجرمانية) التي اسفرت عن تقويض الامبراطورية الرومانية العريقة والفتوحات العربية التي دكت صرح الدولة الفارسية الى الأساس وزعزعت اركان الامبراطورية البيزنطية . فلو قام في الثلث الاول من القرن السابع الميلادي احدٌ وتكهن بان دولة خاملة الذكر وضيعة الجانب تخرج من مجاهل جزيرة العرب ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوّض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر باملاكها ثم تقتطع من ولايات الثانية - بيزنطة - ازهى مقاطعاتها تقول لو صدرت مثل هذه النبوة من فم انسان في ذلك العصر لحكم عليه بالجنون . والواقع ان هذا ما حدث فعلا . فبعد الرسول تغيرت طبيعة بلاد العرب الجدباء واخذت تنشىء رجالا ابطالا يندر وجود من يشاكلهم في اي صقع كان فكأن اعجوبة حلت فيها . فالحملات العسكرية التي قام بها خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص وسعد ابن أبي وقاص فاتحين بها العراق وفارس وسورية ومصر هي من اعظم الحملات التي يرويها تاريخ

الحروب المدوّن وقد كشفت عن نبـوغ قوادها وتفوقهم في اساليب القتال وخلدت اسماءهم مع اسماء نابوليون وهانيبال ويوليوس قيصر والاسكندر .

ولقد يسر الفتح للعرب اسباب منها ان فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب بينها اجيـالا طوالا . فاضطرتهما هذه الحرب الى ارهـاق رعاياهما بضرائب قاسية أدّت الى نفورهم . ناهيك بان استيطان القبائل العربيـة في سورية وارض الفراتين وفي المناطق الواقعـة على حدود الهلال الخصيب وظهور الشقاق في جسم الكنيسة المسيحيـة الشرقية حيث نشأت البدعـة المونوفيزية في سورية ومصر ، والنسطورية في العراق وفارس ، مع ما لابس ذلك من عداوة بيزنطة واضطهادها للمنشقين عن كنيستها ـ جميع هذه الامور سهلت عمل الفاتحين . وكان الروم قد اهملوا تحصين الثغور ، ومن بعد غزوة مؤتة الواقعة الى شمالي البتراء التي انتصر فيها عرب الشام على جيش ارسله الرسول عليهم (ايلول سنة ٦٢٩) ابطل هرقل الجراية التي كان يوزعها في قبائل الشام العربية المقيمة جنوباً من البحر الميت على الخط الواصل بين المدينة وغزة [١] . وكان سكان الشام وفلسطين وهم ساميون وسكان مصر وهم حاميون يعتبرون العرب الفـاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم باولئك الحكام الاجانب الغاصبين . فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقـلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الادنى مجـده السامي الغابر وجاء الاسلام مهيباً بالشرق الى النهوض من كبوته بعد الف سنة اجتاحته فيهـا سطوة الغريب . ولنذكر ان الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على ابناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة كانت اقل مما كان يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة . ولقـد انفتح امام الامم المغلوبة باب الحرية فصاروا يمارسون عقـائد اديانهم دون ازعاج . اما العرب انفسهم فقد كانوا شعباً ممتلئاً حيّة ونشاطاً وقـد الهبتهم حماسة قومية جديدة وتمكنت من نفوسهم ارادة للفتح والظفر وهيأهم دينهم الجديد الى ان

---

١) Theophanes , pp. 335-6.

يسخروا من الموت ويحتقروا الحيـاة . على ان نصيباً وافرا من الفوز الذي حازوه يرجع الى اعتمادهم اساليب حربيـة تلائم فلوات آسية الغربيـة وصحارى افريقية الشمالية – منها استعمال الخيل والابل – ولم تكن الروم تحسن استعمالها .

اسباب اقتصادية

وقد مال بعض الباحثين في الحركة الاسلامية الى النظرية الدينية التي كررتهـا المصادر العربية فسروا التوسع الاسلامي كنتيجة لعامل الدين ولم يعلقوا كبير اهمية على العوامل الاقتصادية . وتمسك بعض كتاب النصرانية بفكرة اخرى خاطئة وهي ان المسلم العربي انما اكتسح البلدان رافعاً القرآن في يد والسيف في الأخرى . ولا صحة لهذا الزعم فان العرب في حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على اهل الكتاب من يهود ونصارى امراً ثالثاً غير القرآن والسيف هو اقرب الى مطامع المحاربين واصلح لهـم من كلا الامرين الأولين – الجزية . « قاتلوا .... من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . » (١) ثم قضت الاوضاع ان يعرض هذا الاختيار الثالث حتى على المجوس اتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فجرى عليهم وهم من غير اهل الكتاب وعوملوا معاملة اهل الكتاب اذ لم يمكن أخذ من لم يؤمن منهم وهم العدد الكثير بالسيف ، فالضرورة قامت اذا ذاك مقام النظرية القرآنية . ولا نزاع في ان الاسلام الف بين المسلمين ووحد اهدافهم وخلق لهم شعاراً جديداً فكان نبراساً لامانيهم القومية . فزالت المشاحنة والبغضاء والتحمت العناصر المتنافرة فنشأت بين العرب قوة محركة فعالة . الا ان هذه الروح الاسلامية العجيبة لا تكفي لتعليل الفتوحات . فليست الأثرة الدينية والتعصب مـا حدا بالعرب الى تدويخ الدول وفتح الامصار انما هي الحاجة المادية التي دفعت بمعاشر البدو ، واكثر جيوش الفتح منهم ، الى مـا وراء تخوم البادية القفراء الى مواطن الخصب في بلدان الشمال . ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض الى بلوغ جنة النعيم

١) البراءة : ٢٩

قد حبب لهم حومة الوغى فان ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في احضان المدنية التي ازدهر بها « الهلال الخصيب » كان الدافع الذي حبب لهم القتال .

ولم يتعامَ مؤرخو العرب القدماء عن الناحية الاقتصادية في تعليل الفتوحات . ولقد توسع في بسط هذه النظرية العالمان كيتاني [١] وبكر [٢] وسواهما من العلماء النقدة . وذكر البلاذري [٣] وهو اعدل مؤرخي الفتوح حكماً ان ابا بكر اذ رأى توجيه الجيوش الى الشام كتب « الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستفزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع واتوا المدينة من كل اوب » . وذكر ايضاً ان رستم القائد الفارسي القائم بالدفاع عن بلاده ضد هجمات العرب ارسل الى سعد ابن ابي وقاص يسأله توجيه بعض اصحابه اليه فوجه المغيرة ابن شعبة فكلمه رستم بكلام كثير ثم قال له : « قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون » [٤] . وفي حماسة ابي تمام [٥] بيت يجمع فيه هذا الرأي :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز احسب والتمر

فاذا تحرينا التوسع الاسلامي واحطنا بالاحوال الحقيقية التي احدقت به اتضح لنا أنه كان الشوط الاخير في عملية النزوح المتواصل على مدى الدهر من البادية القاحلة الى ما يتاخمها من انحاء الهلال الخصيب ـ هو آخر الهجرات السامية العظيمة .

وان مؤرخي العرب وقد نظروا الى وقائع الفتوح على ضوء الحوادث التي تلتها ذهبوا الى ان الحملات الاولى في الاسلام واخصها ما تم في ايام ابي بكر وعمر تولاها الخلفاء بثاقب رأيهم وبعد نظرهم ونفذت بموجب خطة سابقة . على ان

١) *Annali*, vol ii, pp. 831-61.
٢) Becker, *Cambridge Medieval History* (New York, 1913) vol. ii, ch. xi.
٣) فتوح البلدان ، ص ١٠٧
٤) المصدر نفسه ص ٢٥٦ـ٧
٥) الحماسة ، ص ٧٩٢

متصفح التاريخ العالمي قلما يجد القائمين بالامور الجسام يستبقون مجرى الحوادث الخطيرة . كلا ! لم تكن هذه الحملات نتيجة خطة رسمها اولياء الامر من قبل. بل بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول الى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد ان حيل بينها وبين الحرب والخصومات ضمن ذلك النطاق الاخوي الذي حدده الاسلام . وكان الغرض منها في اكثر الاحوال الغنيمة لا الاحتلال او الاستعمار . الا ان هذه الاداة الحربية التي توسل بها الاسلام في بدء امره لم تلبث ان عظم شأنها فأفلتت من يد الذين استخدموها . وتواترت الانتصارات فاذا المحاربون يزدادون دربة وتوغلاً . وهنا بدأت الفتوحات المنظمة ولم يبق بد من نشوء الامبراطورية العربية . فالفكرة الاولى في خلق هذه الامبراطورية لم ترجع الى سابق عزم او تدبير بل الى مجرى الحوادث وسير الامور .

وفي تعليل التوسع الاسلامي تعليلاً دينياً مجاراةً للتعليل الالهي الذي اوردته التوراة في اثناء سردها وقائع التاريخ العبراني وموافقةً لما اصطنعته الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى لتفسير التاريخ المسيحي . ومما سهّل نشر هذه النظرية الخاطئة بين ابناء العربية ان للفظة « اسلام » معاني ثلاثة يسهل الالتباس بينها : بدأ الاسلام ديناً فلم يلبث ان اصبح دولة ثم صار ثقافة . فالاسلام باعتبار انه دين يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة في انه مثل النصرانية ديانة تبشير وجهاد في سبيل الذيوع والانتشار. وما لبث ان اصبح دولة منيعة الجانب . على ان الاسلام الذي فتح اراضي الشمال لم يكن الدين بل الدولة . والعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه انما كانوا مدفوعين بعامل قومي . فالفوز الاول كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي . ولم يدخل السواد الاعظم من سكان سورية والعراق وفارس في دين محمد حتى القرن الثاني والثالث للهجرة . اذن فبين الفتح العسكري والفتح الديني حقبة طويلة من الدهر . واذا كانت الامم المغلوبة قبلت الاسلام بعدئذ فلأنها ارادت الخلاص من الجزية وتاقت لمشاركة الطبقة الحاكمة في ولاية الامور . وبعد الفتح العسكري والفتح الديني

سار العرب والمستعربون في منهاج الثقافة بخطى واسعة فاصبح الاسلام ثقافة وركز اركانه على اساس ما ورثه من حضارة السريان والآراميين والفرس واليونان التي تحدرت اليه . فالاسلام باعتبار انه ثقافة جاء متأخراً ولاحقاً لانتشار اللغة العربية بين الشعوب المغلوبة . وبالاسلام استطاع الشرق الادنى ان يسترجع ماضيه المجيد لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة ايضاً حيث تسنى له ان يعيد سيادته الفكرية .

الفصل الثاني عشر

فتح الشام

حين قدم هرقل الذي كان قد لقبه ابناء رعيته حامي النصرانية ومعيد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية الى بيت المقدس للاحتفال برفع الصليب [١] بعد ان استرده الروم من الفرس بلغه من جنده المرابط وراء الاردن ان عصابة من العرب قد هاجمتهم فردوها على اعقابها بجهد يسير . وقد جرت هذه الواقعة في مؤته وهي تتاخم البلقاء الى الشرق من طرف البحر الميت الجنوبي . وكان النبي قد ارسل جيشاً من المسلمين قوامه ثلاثة الاف مقاتل [٢] يقودهم ابنه الذي تبناه زيد ابن حارثة [٣] فقتل زيد وتسلم خالد ابن الوليد وهو حديث العهد بالاسلام اعباء القيادة وخف عائداً بجيشه الممزق الشمل الى المدينة . وكان الغرض الظاهري من هذه الغارة هو الثأر لرسول كان النبي قد بعثه الى امير الغساسنة في بصرى فقتل . اما الباعث الجوهري فهو رغبة محمد في الحصول على السيوف المشرفية [٤] التي كانت تصنع في مؤته ونواحيها ليسلح بها رجاله يوم الهجوم العتيد على مكة . وكان من الطبيعي ان تفسر هذه الواقعة على انها غزوة عادية من هذه الغزوات التي يدهم بها البدو ابناء الحضارة ابد الدهر . والواقع انها الطلقة الاولى من نزاع مستمر لم ينته امره حتى سقطت العاصمة البيزنطية الفخورة (١٤٥٣) على يد آخر حماة الاسلام آل عثمان وحل اسم محمد محل اسم المسيح المنقوش على جدران سانت

١) في ١٤ ايلول سنة ٦٢٩ وهو عيد يعيده النصارى في لبنان وسوريا الى اليوم .
٢) الطبري ، تاريخ ج ١ ص ١٦١٠ ؛ وقابل Theophanes, p. 336
٣) مولى الرسول سابقاً .
٤) نسبة الى مشارف الشام .

صوفيا - افخم كاتدرائية في العالم المسيحي حين ذاك .

وكانت غزوة مؤته هي الحملة الوحيدة التي جردت على الشام في حياة محمد . اما حملة تبوك [١] التي قادها محمد نفسه في السنة التالية (٩ / ٦٣٠) فلم ترق فيها دماء مع ان المسلمين اخذوا فيها بضع واحات من اليهود والنصارى .

ووضعت حروب الردة اوزارها فجهز المسلمون في خريف سنة ٦٣٣ ثلاث سرايا في كل منها ثلاثة الاف مقاتل يرأس الاولى عمرو ابن العاص والثانية يزيد ابن ابي سفيان والثالثة شرحبيل ابن حسنة وسيروها الى الشمال [٢] . فزحفت الحملة الى الشمال وباشرت الحركات العسكرية في الجنوب والجنوب الشرقي من الشام . وكان حامل اللواء في سرية يزيد اخوه معاوية مؤسس الدولة الأموية فيما بعد . وسلك يزيد وشرحبيل طريق تبوك ومعان المباشر . اما عمرو (الذي عهد اليه بامارة الجيش كله اذا استلزم الامر عملاً متحداً) فقد سلك طريق أيلة (العقبة) الساحلي ، وظل المدد يصل الى السرايا حتى صار مع كل امير نحو سبعة آلاف وخمسمئة رجل وكان ابو عبيدة ابن الجراح الذي صار امير الجيش فيما بعد قد جاء على رأس بعض هذه الامدادات سالكاً بها طريق الحج المعروف وهو طريق النقل القديم الذي يربط المدينة بدمشق .

وكان اول اصطدام في وادي عربة وهو منخفض عظيم جنوبي البحر الميت وانتصر فيه يزيد على سرجيوس بطريق فلسطين الذي كان مقره قيسارية فارتدت الروم نحو غزة ولم يبق من جيشها الا عدة آلاف من الجنود البيزنطيين يقودهم سرجيوس فاتبعهم المسلمون وادركوهم عند قرية يقال لها داثن وكادوا ان يفنوهم (٤ شباط ٦٣٤) . اما في غير هذه الواقعة فلقد ساعد البيزنطيين موقعهم الطبيعي ونكلوا بالفاتحين تنكيلاً . ثم اسرع هرقل ، الذي كان قد تمرس على الحروب وقاتل الفرس في الشام ومصر ست سنوات حتى اجلاهم عنها ، عائداً من الرُها

١) الواقدي ص ٤٢٥ وما يلي ؛ البلاذري ص٥٩

٢) قابل البصري ، فتوح الشام ، نشر ليس (كلكتا ، ١٨٥٣-٤) ص ٨-١١ ، ٤٠-٤٢

« ادسّا » موطن اجداده لتنظيم خطة الدفاع وتجهيز جيش وافر العدد والعدّة يعقد امارته لاخيه ثيودورس .

وبينا خالد ابن الوليد سيف الله [١] يقاتل في العراق ومعه خمسمئة جندي ممن ضرستهم حرب الردة يناصرهم بنو شيبان وهم من بطون بكر ابن وائل المقيمين على حدود فارس اذا بكتاب يأتيه من ابى بكر يأمره فيه بالشخوص فوراً الى جبهة الشام لنجدة جيوش الاسلام فيها . وكانت غزوة العراق قد جاءت في مستهل الفتوحات الاسلامية فلم تهرق فيهـا كثير من الدماء . وليس غريباً ان يكون خالد قد قام بهذه الغزوة مستقلاً حيث ان اصحاب الامر في المدينة والحجاز كانوا يحصرون اكثر اهتمامهم في بلاد الشام المجاورة دون سواها . وقبل ان يصدر ابو بكر امره الى خالد بالمسير الى الشام كانت الحيرة في العراق قد سلمت لخالد وحليفه المثنى ابن حارثة سيد شيبان على ان يدفع اهلها ستين الف درهم. وكانت هذه المدينة التي كان على عرشها امير عربي نصراني اول غنيمة اخذهـا المسلمون خارج الجزيرة او قل هي اللؤلؤة الاولى التي انتزعها العرب من تـاج آل ساسان . وكان خالد قد فتح عين تمر عنوة وهي حصن منيع في البادية الى الشمال الغربي من الكوفة قبل ورود كتاب ابي بكر عليه .

مغامرة خالد في البادية

قطع خالد البادية فسلك طريقاً تختلف الكتب في وصفها الجغرافي كما تختلف آراء المؤرخين في تعيين الزمن الذي استغرقته تلك المغامرة [٢] . ولقـد رجح النقدة الحديثون ان خالداً بدأ سيره من الحيرة (آذار ٦٣٤) واتجه غرباً مخترقاً قلب

---

١) الواقدي ص ٤٠٢ ؛ ابن عساكر ج ٥ ص ٩٢ ، ١٠٢

٢) قابل البلاذري ص ١١٠_١٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٠_٥١ ؛ الطبري ج ١ ص ٢١١١_١٣ ، ٢١٢١_٤ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ١٣٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، نشر تورنبرغ ج ٢ (ليدن ، ١٨٦٧) ص ٣١٢_١٣

الصحراء الى واحة دومة [1] الجندل (الجوف حديثاً) وهي واحة تقع على منتصف الطريق بين العراق والشام وتلك كانت اسهل الطرق المعروفة . وانحاز من دومة الى وادي سرحان (بطن السر قديماً) ثم انحاز عن بصرى وهي اول مداخل الشام لانها منيعة الحصون فتحول الى قراقر [2] ملازماً جانب الشرق من تخوم وادي سرحان . ثم فوّز شمالا الى سوى [3] وهي مدخل الشام الثاني وبين قراقر وسوى مسير خمسة ايام في البادية القاحلة ، وكان دليله رجلاً من قبيلة طيء يدعى رافع ابن عمير . وكان خالد قد استكثر من الماء فحمله معه اما الخيل فكان يسقيها من اكراش الرواحل [4] التي كان ينحرها ويقدمها طعاماً لجنوده وعددهم بين الخمس والثماني مئة . وكانت الخيل تسير جنيبة للجيش فلم تركبها الجنود الا في حومة الوغى. وقد بهر النور بصر رافع ، ولاشعة الشمس في الصحراء بريق تعكسه الرمال يفعل في العيون اسوأ فعل ، فلم تسعه رؤية مواطن الماء ولكنه أشار الى شجرة عوسج على ظهر الطريق فوجدوها واحتفروا فوجدوا عيناً فشربوا منها حتى رووا وأخذوا من الماء حاجتهم .

وظهر خالد بجوار دمشق مفاجئاً مؤخرة جيش الروم مفاجئة مسرحية بعد رحلة دامت ثمانية عشر يوماً . وهنا بدأت حملاته التي ظفر فيها بالغنائم فأتى مرج راهط [5] واغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فغلبهم وغنم منهم . ثم قدم بُصرى (اسكي شام) فاتصل فيها بالجيوش العربية التي كانت قد لقيت الروم في اجنادين [6] في الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ فكشفتهم وهزمتهم وقتلت كثيراً

---

١) وردت في سفر التكوين ٢٥:١٤ واشعيا ٢١:١١

٢) قلبان قراقر حديثاً .

٣) بالقرب من سبع بيار الحديثة الى الشمال الشرقي من دمشق .

٤) قابل اشارة اشور بانيبال ملك اشور الى اعدائه العرب الذين « يشقون بطون رواحلهم من الجمال » اطفاء لعطشهم . Luckenbill, vol. ii, § 827 ولا يزال البدو يعولون على ذلك الى اليوم Musil , *Arabia Deserta* p. 570

٥) من مضارب الغساسنة على بعد ١٥ ميلاً من دمشق بالقرب من عذراء .

٦) او جنابين بين رملة وبيت جبرين (اليوثروبوليس في اليونانية) على طريق غزة واورشليم .

منهم . وبذلك انفتحت ابواب فلسطين امام المسلمين . ولما قدم خالد ابن الوليد على المسلمين في بصرى وهي احدى عواصم غسان اجتمع القواد معاً وأمروا عليهم خالداً وبدأت الحملات النظامية اذ ذاك فسقطت بصرى وطلب اهلها الصلح بلا مقاومة كبرى . ثم تلتها فحل (او فحل بلا في اليونانية) الى الشرق من الاردن وهي حصن يسيطر على معبر الاردن ولقد حاصرها المسلمون حتى طلب اهلها الامان في ٢٣ كانون الثاني سنة ٦٣٥ . وتمهدت امام المسلمين السبيل الى دمشق عاصمة الشام بعد أن هزموا جيوش الروم المجتمعة في مرج الصفر (١) في ٢٥ شباط سنة ٦٣٥ . وتقدم خالد حتى نزل بجيوشه امام باب دمشق الشرقي هذه المدينة التي تذهب الروايات الى انها اقدم مدن الارض والتي من اسوارها دلى التلاميذ بولس الرسول في سل ليلة هربه المشهورة (٢) . ولقد سلمت دمشق في ايلول من سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستة اشهر وكان تسليمها أثر خيانة قام بها بعض ارباب السلطة المدنية والروحية ومنهم الاسقف جد القديس يوحنا الذي سنخصه بالذكر فيما يلي من تاريخ الامويين . ولقد قدر لدمشق ان تغدو من بعد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . وقد صالح اهلها الفاتحين عندما بارحتهم الحامية البيزنطية . واصبح العهد الذي اعطاه خالد لاهل دمشق كما اورده البلاذري (٣) نموذجاً لما اعطاه لسائر المدن السورية :

« بسم الله الرحمان الرحيم هذا ما أعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيئاً من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لايعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية . »

وجعلت الجزية ديناراً وجريباً (عيار حنطة) على الرجل ولقد رفع (٤) عمر

١) سهل على بعد ٢٠ ميلاً الى الجنوب من دمشق .
٢) سفر الاعمال ٩: ٢٥
٣) ص ١٢١
٤) البلاذري ص ١٢٤

ابن الخطاب هذا المبلغ فيما بعد. ثم تساقطت بعد ذلك بعلبك وحمص وحماه (ايفانا) وسواها من المدن كاوراق الخريف. ولم يعترض مسير الفاتح عقبة ما فمضى نحو شيزر (لارسا) فخرج اهلها يكفرون ومعهم المقلسون [١] فأذعنوا له.

يوم اليرموك

وكان هرقل قد حشد جيشاً بلغ زهاء خمسين الفاً وولى عليه اخاه ثيودورس وتحفز للوقوف في وجه العدو وقفة حاسمة. فاسرع خالد الى الجلاء الموقت عن حمص ودمشق وسواهما من مراكز الخطر الحربي وحشد خمسة وعشرين الفاً [٢] من جنوده في وادي اليرموك [٣]. واليرموك رافد يصب في الاردن. ومرت شهور دارت فيها المناوشات بين الفريقين الى ان كانت المعركة الفاصلة في العشرين من آب سنة ٦٣٦ في يوم حار انعقدت فيه سحب من الغبار الذي اذرته الرياح في بقعة من الارض تكاد تلتهب من شدة القيظ - ولا نشك في ان القيادة العربية قد تخيرت ذلك اليوم وتلك البقعة للايقاع بالعدو. ولاحق المسلمون الروم حتى هزموهم ولم تجد جهود البيزنطيين شيئاً ولا خروج كهنتهم اليهم ومعهم الصلبان وهم يرتلون ويصلون [٤]. واستحر القتال في الارمن ومرتزقة العرب ممن واطأ الروم فازال المسلمون من لم يقتلوا منهم عن مواقفهم فتراجعوا حتى التجأوا هم والمدد الذي جاءهم الى خندق ضيق المهرب بين نهر اليرموك ووادي الرقاد. اما الفئة الناجية منهم ممن عبروا النهر الى الضفة الاخرى فلقيهم فيها المسلمون وافنوهم او كادوا. وخرّ ثيودورس أخو هرقل صريعاً ولم يسلم من جيشه الا القليلون وهكذا فان وقعة اليرموك كانت ضربة قاضية على البيزنطيين. ولما بلغ هرقل خبرها رحل عن

---

١) المصدر نفسه ص ١٣١

٢) قدرت الاخبار العربية عدد جيش الروم بين مئة الف ومئتين واربعين الفاً وجعلت جيش المسلمين نحو ربعين . ولا يعتد بالارقام التي وصلتنا سواء منها ما روته المصادر العربية او المصادر اليونانية.

٣) يرموث في سفر يشوع ١٠: ٣ شمال درعا الحديثة.

٤) البصري ص ١٩٧ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ١٦٣

البلاد وادرك ان الامبراطورية قد خسرت احدى مقاطعاتها الفضلى ولما جاوز الدرب في طريقه الى القسطنطينية قال مودعاً ارض الشام : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو ! [١] .

ودعت الحاجة بعد ان تم الفتح الى رجل ادارة وتنظيم يعمد الى المسالمة والسياسة فكان كتاب عمر ابن الخطاب الى ابي عبيدة ابن الجراح بنعي ابي بكر واستعماله اياه وعزله خالداً . وابو عبيدة من ارفع الصحابة قدراً واعزّ رجال الحكومة الدينية بالمدينة الى الناس . وكان قد سار في جيش الفتوح فتولى الامداد وبلغ حدود الشام ثم رافق خالداً الى الشمال ويقال ان عمر ابن الخطاب كان يضمر عداء شخصياً لخالد . ومهما يكن الامر فلقد كان سقوط دمشق عظيما وبسقوطها سقطت جميع البلاد الشامية من ايدي البيزنطيين حتى جبال طورس ـ تخوم سورية الطبيعية في الشمال . وتجلت ميول السوريين فاذا هي في جانب الفاتحين وقد نسب الى اهل حمص مخاطبتهم المسلمين بهذا الكلام : لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم . [٢] وسقطت انطاكية وحلب وسواهما من مدائن الشمال دون مشقة الا قنسرين (كلسس) فانها كلفت العرب بعض العناء . ولم يبق في قبضة الروم من مدن سورية الجنوبية الا بيت المقدس وقيسارية وكان الهلينيون هم العنصر الغالب فيهما . لذلك صدت هاتان المدينتان غارات المسلمين فلم تذعن لهم الاولى حتى سنة ٦٣٨ والثانية حتى تشرين الاول من ٦٤٠ . وأمد الروم قيسارية بحراً فلم يقو العرب على مكافحتهم في البحر . وحاصر المسلمون قيسارية سبع سنين وفتحها معاوية بفضل خيانة يهودي من اهلها . وبين سنة ٦٣٣ و ٦٤٠ تم فتح الشام من الجنوب الى الشمال .

وصدق البلاذري في تسميته هذا الفتح « فتحاً يسيراً » [٣] . فالاسباب التي

---

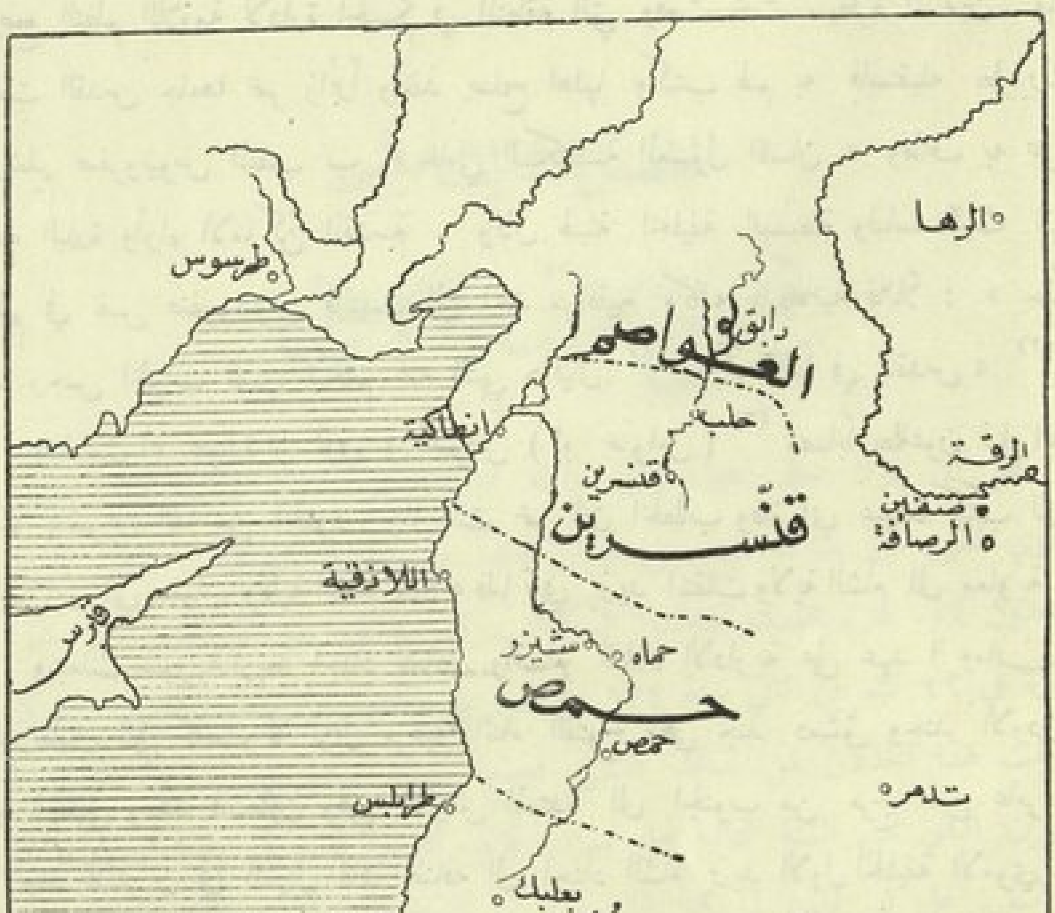
١) البلاذري ص ١٣٧
٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها
٣) المصدر نفسه ص ١١٦ ، ١٢٦

مهدت سبيل الظفر امام المهاجمين هي ان الثقافة الهلينية التي طمت على البلاد مذ فتحها الاسكندر (٣٣٢ ق . م) لم تكن قد غيرت طبيعة السكان بل لعلها لم تتعد في تأثيرها نطاق المظاهر الخارجية . ولم تغش هذه الحضارة اليونانية الا سكان المدن فقد حافظ سكان الارياف على ثقافتهم الوطنية واختلافاتهم الطائفية التي فصلتهم عن اسيادهم الاجانب . وزادت النعرات الطائفية في مدى هذا التنافر بين سكان البلاد وهم ساميون وحكامهم الدخلاء وهم يونان . فالكنيسة السورية المونوفيزية آمنت ان للمسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين (الهية وبشرية) كما ارتأى المجمع الخلقيدوني (٤٥١) الذي اقرته كنيسة بيزنطة اليونانية . وسعى هرقل سنة ٦٣٨ الى تسوية الخلاف الناشب فاصدر صيغة جديدة للايمان كان قد ابتدعها سرجيوس [١] بطريرك القسطنطينيه اراد بها ان يحول الانظار عن مسألة الطبيعة الواحدة والطبيعتين ويوجهها الى ان للمسيح مشيئة واحدة ومن هنا نشأ اسم شيعة مسيحية جديدة هي « المونوثيلية » اي القائلة بمشيئة واحدة للمسيح . ولم يلاق هذا المسعى الا الاخفاق شأن كل مسعى يقصد به التوفيق بين عقائد الايمان المتنافرة فلم يرض به دعاة كنيسة بيزنطة ولا اقره المنشقون بل ادى الى ظهور طغمة جديدة كونت حزباً ثالثاً . الا ان كثرة السكان في سورية احتفظت بعقيدتها المونوفيزية (طبيعة واحدة) . ولا جدال في ان وراء النزعة الدينية التي حسنت لهؤلاء التعلق بكنيسة سورية المستقلة الشعور الوطني القائل بوجوب التميز عن البيزنطيين الاغراب .

ادارة شؤون الشام

وقدم عمر ابن الخطاب الى الشام قبيل سقوط القدس فنزل في معسكر الجابية وهي الى شمال الساحة التي جرت فيها وقعة اليرموك ولا يزال باب دمشق الغربي الى يومنا يسمى بالجابية . وكان القصد من مقدم الخليفة الاحتفال بالفتح وتقرير حالة المغلوبين والتشاور مع امير الجيش ابي عبيدة الذي تولى الامارة بعد يوم اليرموك

١) كان سريانياً ينتمي الى عائلة على مذهب اليعاقبة . واصحاب المونوفيزية من أهل سوريا يعرفون في الغالب باليعاقبة نسبة الى بطريركهم يعقوب البرادعي المتوفى سنة ٥٧٨ .


الرها
طرسوس
دابق
العواصم
حلب
انطاكية
قنسرين
الرقة
صفين
الرصافة
قنسرين
اللاذقية
قبرص
حماه
شيزر
حمص
حمص
تدمر
طرابلس
بعلبك
مرج راهط
سوى
بيروت
صيدا
دمشق
دمشق
صور
مرج الصفر
الرقاد
الجابية
طبرية
حوران
اليرموك
بصرى
الأردن
بيسان
قيسارية
نابلس
فحل
اللد
الرملة
عمواس
القدس
عسقلان
غزه
بيت جبرين
رفح
العريش
مؤته
سوريا
وتقسيمها الى اجناد

ووضع النظم اللازمة لادارة الحكم في المنطقة التي وقعت تحت سيطرة المسلمين. ولما سلمت القدس جاءها عمر زائراً وأنفذ صلح اهلها وكتب لهم به فاستقبله بطريرك اورشليم صفرونيوس الملقب ب «حامي الكنيسة المعسول اللسان» وطاف به على انحاء البلدة وأراه الاماكن المقدسة. وكان لهيئة الخليفة البسيطة ولباسه الرث اثر عظيم في نفس صفرونيوس فالتفت الى احد مرافقيه وكلمه باليونانية قائلاً: «حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال [١] ورآه قائماً في المقدس» [٢].

وما لبث ابو عبيدة ان توفي في عَمواس (او عَمَواس) [٣] مصاباً بطاعون قيل انه فتك بعشرين الفاً من الجنود. ولما اتت عمر ابن الخطاب وفاة ابي عبيدة كتب الى يزيد ابن ابي سفيان بولاية الشام مكانه فلما توفي يزيد انتقلت ولاية الشام الى معاوية.

وجعلت سورية اربعة اجناد تتعادل واقسام البلاد الادارية على عهد الرومان والبيزنطيين التي كانت لا تزال مرعية اثناء الفتوح وهي جند دمشق وجند الاردن وفيه الجليل وجند فلسطين وهي الارض الممتدة الى الجنوب من مرج ابن عامر. اما جند قنسرين في الشمال فانما اضافه الى اجناد الشام يزيد الاول الخليفة الاموي.

وكان للسرعة والسهولة اللتين تم للمسلمين بهما انتزاع مثل هذا الاقليم الستراتيجي الهام من اعظم سلطان في ذلك العصر اثر كبير اكسب دولة الاسلام الجديدة نفوذاً ومهابة في العالم وولد فيها فوق ذلك ثقة بنفسها ومصيرها. ثم زحفت جحافلهم من الشام الى مصر ومنها سلكت طريق النصر الى كل افريقية الشمالية واتخذت الشام قاعدة شنت منها الغزوات متتابعة الى ارمينية وشمال العراق وبلاد الكرج وآذربيجان. كذلك توالت الغارات على آسية الصغرى طيلة السنين ولم تمض مئة سنة على وفاة الرسول حتى تمكن العرب بمناصرة جنود الشام من التغلب على اسبانية في اقاصي اوروبا ووضعها في دائرة الاسلام المطردة الاتساع.

---

١) دانيال ١١: ٣١

٢) Theophanes, p. 339 Constantine Porphyrogenitus, "De administrando imperio" in J. P. Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cxiii (Paris, 1864), col. 109; وكان صفرونيوس ماروني الأصل على الارجح.

٣) في سهل اليهودية.

الفصل الثالث عشر

فتح العراق وفارس

قبل أن يترك خالد الحيرة فيثب وثبته الجريئة غرباً الى الشام خلف حليفه البدوي المثنّى ابن حارثة شيخ بني شيبان قائداً على الجبهة العراقية . وكان الفرس يستعدون لدرء غارة العدو فناضلوا الكتائب العربية في معركة الجسر [1] بجوار الحيرة في ٢٦ تشرين ثاني سنة ٦٣٤ واوقعوا بها وكادوا ان يقضوا عليها . ولكن لم يفت هذا الخذلان من ساعد المثنّى فجمع جيشه وحمل في تشرين الاول او تشرين الثاني من السنة التالية على مهران قائد الفرس فغلبه في وقعة البويب على الفرات . على ان المثنى لم يكن الا سيداً من اسياد البدو لا نفوذ له في المدينة او مكة ولم يسمع بالاسلام او يقبله ديناً الا بعد وفاة الرسول فأمّر الخليفة عمر سعد ابن ابي وقاص ، احد الصحابة العشرة الذين بشرهم محمد بالجنة على اثر وقعة بدر ، على جيش ارسله لامداد المسلمين في العراق . وكانت وقعة اليرموك قد أدت الى سقوط الشام في أيدي المسلمين فخرج سعد ومعه ستة آلاف رجل لمنازلة رستم عامل الفرس فاشتبك الجيشان في القادسية على مقربة من الحيرة . وكان يوم تلك المعركة (آخر آيار او اول حزيران ٦٣٧) شديد الحر حالك الجو من الغبار الذي اثارته الرياح وهو يوم اشبه بيوم اليرموك تخيره العرب كما تخيروا يوم اليرموك واستعانوا بالاساليب الحربية نفسها التي استعانوا بها هناك ووصلوا الى النتيجة نفسها فقتل رستم وتشتت الجيش الساساني وافتتحت

---

١) على الفرات . البلاذري ص ٢٥١–٢ ؛ الطبري ج ١ ص ٢١٩٤–٢٢٠١

أمام الغزاة سهول العراق [١] الخصبة (السواد) الى الغرب من دجلة . وقد رحب الفلاحون الآراميون بالفاتحين ترحيباً لا يقل عن ترحيب الفلاحين السوريين وذلك لاسباب متشابهة اذ كان العراقيون الساميون يحسبون اسيادهم الايرانيين اجانب ممقوتين ويرون الفاتحين اقرباء لهم . ولم يطب العيش لاهل العراق وهم نصارى اذ ذاك في ظل الفرس وهم اتباع زرادشت . اضف الى ذلك ان امارات ودويلات عربية كانت قد نشأت على الحدود بين الجزيرة والعراق قبل الاسلام بقرون عديدة . كذلك سهل للعرب السيطرة على ارض العراق ما بينهم وبين سكان البلاد من علاقات تعود الى اقدم العصور البابلية ، وصلات ثقافية ، واختلاط مستمر بين معاشر البدو واهل البلاد . وكما حدث في الشام بعد اليرموك حدث ايضاً هنا بعد القادسية فاخذ الكثير من القبائل العربية تتدفق الى العراق وقد اغرتهم خيرات البلاد ونعماؤها .

مضى سعد ومن معه الى المدائن [٢] عاصمة الفرس فانتهوا الى دجلة وهو طافح بالماء من سيول الربيع واذا الفرس قد رفعوا المعابر والسفن فلم يجد الغزاة سبيلاً الى العبور . ولم يثبط الامر عزيمة سعد فما زال حتى عبر دجلة ونزل الضفة الشرقية ولم يفقد شيئاً ولم يغرق من جمعه احد فقالت الفرس « والله ما تقاتلون الا جناً » . وحسب اخباريو الاسلام ذلك العبور معجزة . ولم يبق في المدائن احد من اوليائها لأن حاميتها وعاهل الفرس فرّوا عنها فاقتحمتها جيوش العرب ودخلها سعد في حزيران سنة ٦٣٧ . ولقد اطلق مدونو العرب العنان لمخيلتهم في وصف ما جمع من فيء اهل المدائن وما غنمه المسلمون من كنوز « القصر الابيض ومنازل كسرى وسائر المدائن » . قالوا كان في بيوت اموال كسرى تسعة آلاف مليون درهم (ثلاثة

---

١) لفظة « عراق » مستعارة في الراجح من البهلوية ومعناها الارض الواطئة ولقد أطلق العرب على هذا الاقليم اسم « السواد » لخضرة الزرع والنخيل التي فيه وللتمييز بين ارضه وارض الصحراء . ياقوت ، بلدان ج ٣ ص ١٧٤ وقابل Olmstead, *History of Assyria*, (New York, 1923) p.60.

٢) نحو عشرين ميلاً الى الجنوب الشرقي من بغداد وتشمل سلوقية في غربي دجلة وتيسفون في الجانب الشرقي

آلاف الف الف ثلاث مرات) [١] .

احتل عرب الجزيرة الجديبة اعظم العواصم الملكية في آسية الغربية فاحدقت بهم اسباب البذخ والرخاء ونعموا بوسائل الراحة التي عرفتها حياة الترف في ذلك العصر . واديل من سطوة الفرس الى هؤلاء العرب الذين اقتادهم سعد فقهروا وسلبوا ملكهم في العراق وتربع على عرشهم سعد فانفتح له ايوان كسرى ذلك القصر الملكي الفخم وفيه المجالس الرحبة والقناطر البديعة والرياش الفاخر والزينة الطريفة - التي اطنبت بوصفها الاشعار العربية من بعد . ومن الطرف المستملحة التي سجلتها مدونات العرب فجاءت معياراً نوازن به بين ثقافة الفرس المغلوبين وسذاجة العرب الظافرين ان اعرابياً ظفر بجراب فيه كافور فظنه ملحاً وطبخ طعاماً وضعه فيه [٢] وان بعضهم كان يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء [٣] يرى ان الفضة خير من الذهب . ولما أمضى خالد صلح اهل الحيرة دفع الى اعرابي بنت احد كبراء الحيرة فباعها الاعرابي بالف درهم ولما لامه اصحابه على اكتفائه بذلك القدر من المال قال : « ما كنت اظن عدداً يكون اكثر من عشر مئة » [٤] .

فتح المسلمون القادسية والمدائن ثم بدأ بعد ذلك فتح العرب المنظم لبلاد الفرس . وكان لهذا الفتح قوة مركزية يسوسها المولجون بالامور من القاعدة الحربية في البصرة . وورد كتاب عمر الى سعد يأمره فيه ان يتخذ الكوفة دار هجرة للمسلمين ومدينة يسكنونها ومقراً للجند وهي على مقربة من الحيرة القديمة . واستغنى بها الخليفة عن المدائن التي كان سعد قد ابتنى فيها اول مسجد للاسلام في ديار العراق .

---

١) الطبري ج١ص ٢٤٣٦ ؛ قابل ابن الأثير ج ٢ ص ٤٠٠ ؛ Caetani, *Annali*, vol. iii, pp.742-6.
٢) ابن الطقطقي ، الفخري ، نشر ديرنبورغ (باريس ، ١٨٩٥) ص١١٤
٣) المصدر نفسه ص ١١٥ ؛ الدينوري ص ١٣٤
٤) البلاذري ص ٢٤٤

وفي اثناء ذلك كان يزدجرد الثالث الساساني هارباً نحو الشمال يرافقه عظماء بلاطه واهل بيته . وتحصن الاعاجم في جلولاء وخندقوا فيها وهي على حافة المرتفعات الفارسية فعاجلهم العرب فيها (آخر سنة ٦٣٧) وحملوا عليهم حملة اجلوهم بها عن موقفهم فولوا هاربين واستكانت بلاد العراق برمتها لهيبة الغالبين . وفي سنة ٦٤١ تم فتح الموصل وهي على مقربة من انقاض نينوى القديمة على يد عياض ابن غنم الذي سار من شمال الشام . وفي تلك السنة جرت آخر المواقع الكبرى - موقعة نهاوند - بالقرب من همذان (اكباتانا القديمة) وهزم الناجون من جيش يزدجرد وظهر المسلمون وحذيفة يومئذ على الجيش وكان حذيفة قد أخذ الراية من بعد مقتل النعمان ابن مقرّن . وتوجهت حملة من البصرة والكوفة فاحتلت خوزستان (عيلام القديمة وهي شوش من بعد وعربستان اليوم) سنة ٦٤٠ وتوطدت قدم المسلمين في البحرين فاصبحت لهم مقراً ثالثاً من بعد البصرة والكوفة واخذوا يتربصون الفرصة وهم فيها للغارة على ايران ثم ما لبثوا ان جردوا منها حملة على اقليم فارس [1] (بارس اي الوطن الفارسي الصميم) على شاطىء خليج العجم الشرقي . ولم يطل الامر بالعرب حتى حطموا شوكة سكان البلاد وهم غير ساميين فاحتلوا اصطخر (برسبوليس) - اعظم مدن فارس - وكان ذلك سنة ٦٤٩ - ٦٥٠ [2] وكان يقودهم عبدالله ابن عامر عامل البصرة . ومن فارس امتدت سطوة العرب الى خراسان وهو مصر بعيد واسع الارجاء في الشمال الشرقي ومنه نفذوا الى ما وراء النهر (اي نهر جيحون او الاكوس عند الافرنج واسمه امويا او امويا داريا عند سكان البلاد) . ولما تحقق للعرب تدويخ مكران اي مناطق الساحل من بلوخستان نحو سنة ٦٤٣ اصبحوا على قاب قوسين من بلاد الهند .

وكان المسلمون قد زحفوا على ارمينية البيزنطية سنة ٦٤٠ يتقدمهم عياض ثم

---

١) سمى الفرس بلادهم ايران اما فارس وطن السلالتين الشهيرتين الاخيمينية والساسانية في الاقليم الجنوبي من ايران . واخذ الاغريق لفظة « بارسا » الفارسية القديمة فحرفوها الى برسيس واطلقوها على الشعب كله

٢) الطبري ج ١ ص ٢٥٤٥ - ٥١ و Caetani, vol. iv, pp. 151-3, vol. V, pp. 19-27, vol. vii, pp. 219-20, 248-56.

مضت سنوات اربع فوجهوا حملة ثانية على ارمينية يقودها حبيب ابن مسلمة الفهري فنهض اليها واناخ على اهلها . ولكن لم يتم فتح البلاد حتى حوالي سنة ٦٥٢ [1] .

واتخذت الكوفة وهي مقر الجند عاصمة للاقطار المغلوبة في الشرق ونبذ سعد سنّة عمر المألوفة من حب البساطة والزهد فابتنى داره على شكل القصر الملكي في المدائن ونقل الى الكوفة ابواب المدائن ومثله فعل مشيدو المدن الاخرى الجديدة في الشرق العربي من بعد تيمناً بنصرهم واشعاراً بما لهم من الفخار في ذلك الحضارة السابقة وتأسيس دولتهم المجيدة . واختطت الكوفة فنزلها الجند وابتنيت منازلها لايواء المحاربين واهلهم وكانوا قد بنوها اول الامر ثكنات عسكرية من القصب ثم ما عتموا ان شادوا بدلها دوراً من اللبن وانقلب معسكرهم الوضيع مدينة عامرة . هكذا كانت البصرة ايضاً في فاتحة امرها مقراً للجند فما طال بها الامد حتى كسبت ما للكوفة من شأن في تكييف الحياة السياسية والفكرية في العراق العربي حتى قام ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي فشاد مدينة بغداد ـ زوراء بني العباس الشهيرة في العالم شرقاً وغرباً .

واقبل يزدجرد حتى نزل بمرو فاختلف هو ومن معه واهل خراسان فأوى الى كوخ طحان حيث لحق به قومه وقتلوه سنة ٦٥١ او ٦٥٢ ثم رموا به في النهر وتداعى صرح الدولة الفارسية التي تبوأت مركز الابهة والسلطان نحو اثني عشر قرناً ولم تقم لها قائمة مدة ثمانية قرون او اكثر .

لقد قضى المسلمون اول الأمر نحو عشرة اعوام في حرب الفرس فلم يتم لهم فيها الا فتح جزئي غير مضمون اذ كانت الجيوش العربية تقاسي من مقاومة الاعاجم وتفانيهم في الدفاع عن حياضهم اضعاف ما قاسته في فتح الشام . ولقد اشترك في هذه الحملة زهاء ٣٥ ـ ٤٠ الفاً من العرب وفيهم النساء والاحداث والرقيق . والسر في مقاومة الفرس راجع الى ان الفرس ينتمون الى الجنس الآري لا الجنس السامي . ولقد كانت لهم

١) راجع البلاذري ص ١٩٣ ـ ٢١٢ ؛ Caetani, vol. iv, pp. 50-53, vol. vii, pp. 453-4

عهود متطاولة من الاستقلال والوحدة القومية دع عنك ما تسلحوا بـه من جيش منظم وما حازوه من دربة على الحرب وخبرة بافانينها . ولقد سبق لهم ان صارعوا الروم صراعاً عنيفاً استغرق اكثر من اربع مئة سنة ، ولكن الفرس غلبوا آخر الأمر واحتلت اللغة العربية في القرون الثلاثة التي حكم العرب فيها البلاد مقاماً سامياً فأصبحت لسان المتأدبين ووسيلة لانتشار الثقافة بل صارت اللغة المحكية عند العوام الى درجة محدودة . غير ان الروح القومية الدفينة لم تمت بل تسنى لها النشور يوم اعتقت الامة من اغلالها . واستفاقت الامة المغلوبة فاحيت ماضي اللغة الوطنية والادب القديم . والفرس في طليعة العناصر التي دفعت بحركة القرامطة الى الامام وسهلت لهم سبل العبث بالخلافة والتآمر على سلامة الدولة الاسلامية العربية . كذلك كان للفرس اثر بيّن في ظهور الشيعة وقيام الدولة الفاطمية التي تسنمت الحكم في مصر مـدة تزيد على القرنين . وحسبك ان الفن الفارسي والأدب الفارسي والفلسفة الفارسيـة لم تمت بل خضع لتأثيرها العرب بحيث استطاع الفرس فيما بعد ان يستولوا على الفاتحين بهذا السلاح المعنوي . ولا عجب اذن اذا رأينـا نفراً من رجال الفرس يطلعون في سماء العلوم الاسلامية العربية كواكب تنير القرون الاسلامية الثلاثـة الاولى وهم من الاعاجم الداخلين في حظيرة الدين الجديد .

وبينا الجيوش العربية تتوغل شرقاً بقيادة سعد كانت جموع اخرى تتقدم غرباً بقيادة عمرو ابن العاص وتضم الى حظيرة الدولة الاسلامية الناشئة سكان وادي النيل والبربر من ابناء افريقية الشمالية .

ان هذا التوسع العربي المنقطع النظير ، والذي كان في الظاهر دينياً وفي الواقع هو سياسي واقتصادي قد بلغ من النمو بحيث اصبح امبراطورية مترامية الاطراف كامبراطورية الاسكندر ، وكان مثل الخليفة في المدينة مركز هذا التوسع مثل رجل وكل اليه ان يضبط سيلاً متدفقاً اخذت تتزايد روافده وتـكثر مياهه بحيث تعذر عليه توزيعها او التحكم في مجاريه .

الفصل الرابع عشر

الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة

تطلعت نفوس العرب في شغف الى مصر منذ اوائل عصر الفتح ولقد لفت نظرهم اليها امور جمة ، منها موقعها الجغرافي الخطير الذي تطل منه على الشام والحجاز ، وخصب تربتها الذي جعلها اهراء القسطنطينية ، وكونها المدخل الى سائر الساحل الافريقي الشمالي . وكانت الاسكندرية يومئذ عاصمتها وقاعدة العمارة البحرية البيزنطية .

ووقع فتح مصر في ابان الحملات المنظمة ولم يكن من باب مجرد الغارة والغزو . وكان منشأه ان عمرو ابن العاص ودّ مباراة زميله خالد ابن الوليد في تدويخ الامصار فانتهز فرصة قدوم عمر الى بيت المقدس واستأذنه في المسير الى مصر فقال له عمر « سر وانا مستخير الله في مسيرك ويأتيك كتابي سريعاً » . وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية للتجارة وعرف مدنها وطرقها ورأى كثرة ما فيها [1] . ورجع عمر ابن الخطاب الى المدينة وشاور عثمان وسواه فتخوفوا على المسلمين وكرهوا ذلك فكتب الى عمرو ان ينصرف عن مصر بمن معه فادرك الكتاب عمراً وهو لم يقطع الحدود الفلسطينية المصرية فخشى ان هو اخذ الكتاب وفتحه ان يجد فيه الانصراف وكان عمر حين امره بالمسير ووعده بالكتابة اليه قال له « فان ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » . [2] وسار عمرو دون

١) ابن عبد الحكم ص ٥٣

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨ــ٩ ؛ ابن عبد الحكم ص ٥٦ــ٧

فض الكتاب حتى نزل العريش (كانون الأول ٦٣٩) .

كان عمرو قرشياً في الخامسة والاربعين من عمره قوي الشكيمة فصيحاً طلق اللسان شديد الدهاء وكان قد سبق له ان فتح ما كان من فلسطين غربي الاردن . وفي النزاع بين علي ومعاوية التحق عمرو بمعاوية واعانه في الظفر بالخلافة فسمي احد الدهاة الاربعة في الاسلام [1] . اما الطريق التي سلكها مع فرسانه الاربعة آلاف فهي تلك التي سار عليها ابراهيم وقمبيز والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة ونابوليون وجمال باشا . وهي الطريق الدولية في العالم القديم الموصلة بين اهم مراكز حضارته .

واول موضع حصين صادم العرب فيه الروم هو الفَرَماء (بلوسيوم) مدخل مصر الشرقية حيث اشتبك الفريقان في قتال شديد نحو شهر وفي أواسط كانون الثاني سنة ٦٤٠ [2] سقطت المدينة في يد عمرو فاعمل التخريب في حصونها التي لم تكن قد اصلحت منذ الاحتلال الفارسي الاخير (٦١٦ م) ثم اتى عمرو بلبيس (او بِلبيس) الى الشمال الشرقي من القاهرة وسواها من مدائن وادي النيل فخضعت له باسرها . واخيراً جاء حصن بابليون [3] وقد برز بازاء جزيرة الروضة في النيل كأنه سد في وجه الغزاة . ولقيهم جاثليق مصر المقوقس [4] مندوب الروم في ادارة حكومة البلاد منذ استرجاعها من ايدي الفرس عام ٦٣١ ومعه رئيس الجيش اوغسطاليس ثيودورس وعساكره . فرابط عمرو في عين شمس (هليوبوليس) يتربص الفرصة ويرتقب الامداد ، ولم يمرّ زمن طويل حتى وصلته نجدة الخليفة يرأسها الزُبير ابن العوام احد متقدّمي الصحابة فاصبح مجموع الجيش العربي نحو عشرة آلاف مقاتل

١) ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ، ج ٥ (القاهرة ، ١٩٠٧) ص ٣

٢) هذا التاريخ وغيره مما يتعلق بفتح مصر غير ثابت فالطبري ج ١ ص ٢٥٩٢ يذهب الى ان تاريخ فتح مصر هو ربيع الاول سنة ١٦ (نيسان سنة ٦٣٧) . قابل ابن عبد الحكم ص ٥٣ ، ٥٨

٣) A. G. Butler, *The Arab Conquest of Egypt* (Oxford, 1902, pp. 245-7)

٤) يقول اخباريو العرب ان المقوقس اهدى الى رسول الله مارية القبطية واختها ولقد ولدت له الأول ابراهيم . اما البغلة الشهباء والحمار الأشهب اللذان أهداهما أيضاً للرسول فقد كانا اول ما ادخل من صنفيهما من الحيوان الى الحجاز . ابن عبد الحكم ص ٤٨–٩

يقابلهم عشرون الفاً من الجند البيزنطي عدا حامية الحصن المؤلفة من خمسة آلاف . وفي القتال بين الفريقين في منتصف الطريق بين المعسكرين في تموز سنة ٦٤٠ تفرق جيش البيزنطيين وفر ثيودورس الى الاسكندرية واحتمى المقوقس في بابليون . وضيق العرب الحصار على بابليون ولم تكن بايديهم آلات للحصار او وسائل للتدمير يهدمون القلعة بها . فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه سعى سراً الى رد المحاصرين بالمال فلم يفلح وكان جواب عمرو الى رسله « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان ابيتم واعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين » (١) . ولما رجعت الى المقوقس رسله قال لهم فيما يروى كيف رأيتموهم قالوا : « رأينا قوماً الموت احب الى احدهم من الحياة والتواضع احب اليه من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يستخلف عنها منهم احد » (٢) فرد اليهم المقوقس ان ابعثوا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم الى ما عسى ان يكون فيه صلاح لنا ولكم . فبعث عمرو عشرة انفار احدهم عُبادة ابن الصامت وهو اسود فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فقال المقوقس : « نحّوا عني هذا الاسود وقدّموا غيره يكلمني » فقالوا جميعاً : « هذا الاسود سيدنا وخيرنا والمقدم علينا » (٣) وطلب عبادة الى المقوقس ان يختار احدى الخصال الثلاث فقبل بتأدية الجزية وانقلب راجعاً الى الاسكندرية ليرفع شروط الصلح الى الامبراطور هرقل . ولم تُرض تلك الشروط الامبراطور فغضب على عامله واتهمه بالخيانة ونفاه .

رابط العرب على حصن بابليون سبعة اشهر تمكن الزبير في نهايتها من ردم

١) ابن عبد الحكم ص ٦٥
٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها
٣) المصدر نفسه ص ٦٦

بعض الخنـدق . ثم اتى بسلّم فصعد عليه حتى اوفى على الحصن وهو مجرد سيفه فكبّر وكبر المسلمون واتبعوه ففتح الحصن عنوة في السادس من نيسان سنة ٦٤١ (١) .

وبعد ان تم لعمرو فتح الجـانب الشرقي من ارض الدلتا اخـذت قبضته الحديدية تشتد على رأس الدلتا وسقطت نقيوس (نكيو وهي شبشير اليوم) في ١٣ ايار وتلا سقوطهـا معركة دموية . اما الاسكندرية وهي يومئـذ ابدع مدن الارض واقواهن بعد القسطنطينية فلم تكن قد سقطت بعد .

وكان عمر ابن الخطاب قد اشفق ممّا اخبر به عن عمرو وقلة من معه من الجند فارسل الامداد حتى بلغت قوات العرب في مصر نحو ٢٠ الفاً وتمكّن عمرو من الزحف على الاسكندرية فما لبث ان نزل في ظاهرها وسرح طرفه فيما يحيط بها من اسوار منيعة وصروح عانقت السماء ووقفت تحرس مدينة مصر الأولى . وفي الجانب الواحد من المدينة انتصب عمود السواري (٢) القائم على آثار السرابيوم الذي كان هيكل الاله سرابيوس ودار علم يحوي خزانة الاسكندرية الشهيرة . وبرزت في الجانب الآخر كنيسة تعرف بالقيسارية (٣) عند العرب وهي كاتدرائية القديس مرقس ، واصلها معبد شيدته كليوباطرة اكراماً ليوليوس قيصر واكمل بنيانه اوغسطس ، والى الغرب ارتفعت المسلتان المبنيتان من غرانيت اسوان الاحمر والمنسوبتان الى كليوباطرة ايضاً والصحيح ان بانيهما تحتمس الثالث (نحو ١٤٥٠ ق. م) . ولقد نقلت احداهما الى بلاد الانكليز وهي اليوم على رصيف التامس في لندن والاخرى الى مدينة نيويورك حيث نصبت في احدى حدائقها العمومية . وفي طرف اللسان الداخل في البحر ارتفعت منارة الاسكندرية (الفاروس) شامخة في السماء وفي اعلاها مرآة عظيمة من نوع الاحجار الشفافة تلقي شعاعها على البحر نهاراً ، ومكان مرتب لوقود النار طول الليل تهتدي به السفن عن بعد . وهي تعد بحق من عجائب الدنيا

١) البلاذري ص ٢١٣ : ابن عبد الحكم ص ٦١ وما يلي .
٢) المقريزي ، المواعظ ، (بولاق) ج ٣ ص ١٢٨ وما يلي.
٣) ابن عبد الحكم ص ٤١ ، ٤٢ .

السبع (١) . ولعل دهشة هؤلاء العرب القادمين من الجزيرة حين وقفوا امام الاسكندرية لم تكن أقل من دهشة المهاجر القادم الى مدينة نيويورك اليوم عندما تقع عيناه على جسورها وما فيها من ناطحات السحاب .

وكان في الاسكندرية حامية بلغ عددها ٥٠ الف مقاتل . ينجدها الاسطول البيزنطي القوي وقاعدته في ميناثها بينما كان العرب اقل عدداً وعدّة وليس لهم سفن ولا آلات حصار او سبيل مباشر يكفل لهم وصول المدد السريع .

وقد وصف لنا يوحنا النحوي وهو مؤرخ معاصر كيف صدّ العرب اول مرة امام عرّادات العدو التي كانت تمطرهم وابلاً من الحجارة من فوق اسوار المدينة (٢) . وخلف عمرو بالاسكندرية عدداً من اصحابه وشق طريقه الى بابليون ومنها جرد بعض الحملات على مصر العليا . ثم مات هرقل (شباط سنة ٦٤١) فخلفه ابنه قسطنطين الثاني (٦٤٢ - ٦٨) وهو حديث السن فرضي عن المقوقس وانفذه الى الاسكندرية فامّها يسعى الى الصلح . وكان المقوقس يطمح الى ادارة شؤون البلاد تحت رعاية المسلمين فوقع في ٨ تشرين الثاني سنة ٦٤١ معاهدة يجوز تسميتها بمعاهدة الاسكندرية وقبل ان تستلم مصر صلحاً بفريضة دينارين على كل رجل وخراج مما تنتجه الارض والزرع . وتعهد أن لا تعود سفن الروم الى ساحل مصر ولا يعمل اسطولهم على استرجاع البلاد . وتم جلاء الروم عن المدينة في ١ ايلول سنة ٦٤٢ . ولم يجرؤ الامبراطور قسطنطين وهو حدث ضعيف الجانب على الممانعة فاقر المعاهدة التي اسفرت عن انتقال مقاطعة من افضل ممتلكات الامبراطورية الى ايدي العرب .

وكتب عمرو ابن العاص الى عمر ابن الخطاب يقول :

اما بعد فاني فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة الاف منية باربعة الآف حمّام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ملهى

١) المقريزي ، ج ٣ ص ١١٣ - ٤٣ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٤٣ - ٥ .

٢) H. Zotenberg , *Chronique de Jean , évêque de Nikiou. Texte éthiopien* , with tr. (Paris , 1883) p. 450

للملوك [١] .

وكيف استقبل الخليفة عمر من جاءه بهذه البشرى ؟ قال : « يا جارية هل من طعام ؟ فاتت بخبز وزيت فقال : كل . ثم قال : يا جارية هل من تمر ؟ فاتت بتمر في طبق . وخرج الى المسجد فقال للمؤذن : اذن في الناس الصلاة الجامعة . فاجتمع الناس ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ثم جلس . [٢] »

وذكر ابن عبد الحكم [٣] (المتوفى ٢٥٧ / ٨٧١) وهو صاحب اقدم كتاب محفوظ في فتح مصر ان اسقف القبط في الاسكندرية لما بلغه قدوم عمرو ابن العاص الى مصر كتب الى القبط انه لا تكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو . ويقال ان القبط الذين كانوا بالفرماء كانوا يومئذ لعمرو اعوانا ، وما ذلك بمستبعد . فقد اشتد الجفاء بين كنيسة الملكيين - كنيسة الدولة - وفرقة المونوفيزيين وهي الديانة الوطنية فبالغت الاولى في الكيد والمكر بالثانية والتضييق على ابنائها . وكان هرقل قد انصرف بما اوتيه من دهاء الى حمل القبط على ابطال طقس العبادة القبطي واوعز الى المقوقس ان يدعو الكنيسة الوطنية قسراً الى اتخاذ تعاليم المونوثيلية مذهباً فهاج رجال الكهنوت من القبط فانزل فيهم المقوقس شر الاضطهاد والارهاب وعدته تواريخ القبط المسيح الكاذب واعتبرته عدو الامة بل عدو الدين المسيحي .

وتحول عمرو من الاسكندرية فنزل عين شمس واتخذ مقره في الموضع الذي ضربت فيه أخبية الجيش أول ايام الفتح واختط عاصمته المعروفة بالفسطاط وكان ذلك نزولا عند رغبة عمر ابن الخطاب واسوة بالجابية في الشام وبالبصرة والكوفة في العراق . وبنى عمرو في الفسطاط [٤] المسجد واتخذ فيه المنبر فكان اول مسجد

١) ابن عبد الحكم ص٨٢ وقابل Zotenberg , p. 463
٢) ابن عبد الحكم ص ٨١
٣) ص ٥٨ - ٩
٤) كلمة لاتينية معناها معسكر

في مصر (٦٤١ ـ ٢) وهو لا يزال الى اليوم الا ان شكله الحاضر يمثل اضافات وزيادات عديدة . وبقي الفسطاط (مصر العتيقة) عاصمة مصر الى ان بنى الفاطميون القاهرة سنة ٩٦٩ . واحتفر عمرو القناة الفرعونية القديمة فسميت خليج امير المؤمنين (١) وهي تمر بعين شمس وتربط النيل شمالا من بابليون بالبحر الاحمر (٢) عند القُلزم (٣) وكان ذلك تسهيلا لما اراده العرب من نقل المؤونة الى الحرمين . وكان الامبراطور تراجان قد جدد فتح القناة ولكنها طمت بالتراب على مَرّ السنين وامتلأت رملاً وطيناً .

وسخّر عمرو العملة فشق القناة في بضعة اشهر وقبل وفاة الخليفة عمر (٦٤٤) كانت عشرون سفينة قد وردت على المرافىء العربية (٤) حاملة بعض حاصلات الديار المصرية . وعرفت هذه القناة من بعد بالخليج الحاكمي نسبة الى الخليفة الفاطمي (المتوفى ١٠٢١) وبقي الخليج معروفاً بشتى الاسماء حتى أواخر القرن التاسع عشر .

جنح حكام البلاد العرب الى نظام الحكم البيزنطي فابقوا القديم على قدمه ولم يعدّلوا من اقسام الادارة بما فيها ادارة المال شيئاً يذكر الا ما أضافوه من اجراآت ضمنوا بها نفوذ الحكومة المركزية في القطر . واحتفظوا باشكال الحكومة الموروثة عن العهد السابق شأنهم في سياسة البلاد الاخرى كسورية والعراق وفارس . وانتهجوا خطة من قبلهم من ولاة مصر فاستباحوا لانفسهم خيرات البلاد واستثمروها وحسبوا الارض « بقرة حلوبا » يدلنا على ذلك ما عثر عليه في مصر اخيراً من مدونات اوراق البردي . وكان عمر ابن الخطاب قبل وفاته قد استقل ما يحصله عمرو من ضرائب البلاد فولى عبدالله ابن سعد ابن ابي سرح على الصعيد . ولما استخلف عثمان عزل عمراً وولى ابن ابي سرح وهو اخوه للرضاعة على جميع البلاد المصرية .

١) ابن عبد الحكم ص ١٦٢ ـ ٧

٢) قابل المسعودي ج ٤ ص ٩٩

٣) كلزما في القديم وهي السويس اليوم

٤) اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٧

ونقضت الاسكندرية العهد سنة ٦٤٥ وخرج اهلها على الحكومة الجديدة واسترحموا الامبراطور قسطنطين فارسل ثلاثمئة سفينة عليها منويل [1] الخصي الارمني فاحتل برجاله الاسكندرية بعد أن ذبحوا حاميتها وهي الف رجل واعادوها قاعدة بحرية ومركزاً للهجوم على القوة العربية في مصر . وللحال اعيد عمرو للولاية لما له من معرفة بالحرب وهيبة في العدو فلقي العدو في جوار نقيوس وقتل من جيشهم عدداً كبيراً . وهكذا تم استيلاء المسلمين للمرة الثانية على الاسكندرية في مطلع سنة ٦٤٦ فدمرت اسوار المدينة المنيعة وظلت الاسكندريــة في ايدي المسلمين الى هــذا الوقت .

مكتبة الاسكندرية

اما القصة التي تقول ان عمراً احرق مكتبة الاسكندرية باشارة من الخليفة واحمى بها حمامات المدينة مدة ستة اشهر فينكرها البحث العلمي . فلقد احرق مكتبة البطالسة العظمى يوليوس قيصر حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ ق. م. امـا « المكتبة الصغرى » التي نشأت من بعد فلقد اتلفت بامر الامبراطور ثيودوسيوس حوالي سنة ٣٨٩ . واندثرت مكاتب الاسكندرية من بعد ذلك فلم يك في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتح . زد على هذا ان احداً من الكتاب المعاصرين لهذه الحوادث لم يتهم الخليفة او عامله باحراق مكتبة ما بالاسكندرية . ولا نعرف احداً روى هذه القصة قبل عبد اللطيف البغدادي [2] المتوفى سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ ولسنا نفهم الباعث الى اختلاق هذا النبأ الذي اعتدّ به المؤلفون المتأخرون وزادوا عليه [3] .

واراد عثمان بعد جلاء الروم ان يكون عمرو على الحرب وعبد الله ابن سعد ابن

---

١) البلاذري ص ٢٢١

٢) في الافادة والاعتبار ، نشره وترجمه (للاتينية) هويت (آكسفورد ، ١٨٠٠) ص ١١٤

٣) القفطي، تاريخ الحكماء ، نشر لبرت (ليبزغ ، ١٩٠٣) ص ٣٥٥ ـ ٦ ؛ وابو الفرج ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، نشر الصالحاني (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٧٥ ـ ٦ ؛ المقريزي ، الخطط ج ٣ ص ١٢٩ ـ ٣٠ ، وراجع Butler , pp 401 - 26 ; Gibbon, *Decline*, ed. Bury , vol. v, pp. 452 -5

ابي سرح على الخراج فقال عمرو : « انا اذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » [١] فولى عثمان عبد الله على مصر .

وكان عبد الله ادارياً افضل منه مقاتلاً . على انه ما كاد يلي مصر حتى بعث المسلمين في جرائد خيل فاصابوا من الغرب والجنوب وغنموا وافلح هو في توسيع نطاق عمله في كلتا الناحيتين . اما المهمة الحربية الكبرى التي افلح فيها فهي انه انشأ اول عمارة بحرية اسلامية وتلك مأثرة تحفظ له ولمعاوية صاحب الشام اذ ذاك . وغدت الاسكندرية بطبيعة الحال قاعدة للاسطول المصري . وكانت الحملات البحرية سواء التي تولاها عبد الله من مصر او تلك التي انفذها معاوية من ساحل الشام مصوّبة على البيزنطيين . واستولى معاوية على قبرس سنة ٦٤٩ وهي قاعدة هامة للعمارة البحرية البيزنطية كان المسلمون يخشونها لتدانيها من الشواطىء السورية . فسجل للاسلام اول ظفر بحري واضيفت الى الدولة الاسلامية اول جزيرة . وفي السنة التالية فتحت ارواد وهي قريبة جداً من الساحل السوري . وسنة ٦٥٢ بدد عبد الله عمارة بحرية قوية للروم في معركة جرت قبالة الاسكندرية . ومضت سنتان فبعث معاوية جنادة ابن ابي امية الازدي فغزا رودس [٢] . وفي سنة ٦٥٥ [٣] التقى الاسطول السوري المصري الذي جرده معاوية وعبد الله باسطول بيزنطي مؤلف من ٥٠٠ مركب فدارت الدائرة على الروم بالقرب من فينكس امام شواطىء ليسيا . وغُلبت الروم وقُهر الامبراطور قسطنطين الثاني الذي حضر المعركة بنفسه وفرّ يطلب النجاة . هذه معركة ذي الصواري [٤] التي حل فيها القضاء المبرم على سيادة الروم البحرية . على ان المسلمين لم يصلوا الى القسطنطينيه ، وهي هدفهم الابعد ، لان القلاقل الداخلية حالت دون ذلك . وفي سنة ٦٦٨ او ٦٦٩ سارت عمارة بحرية مؤلفة من مئتي سفينة من

---

١) ابن عبد الحكم ص ١٧٨ ؛ قابل البلاذري ص ٢٢٣

٢) وهناك حملة اخرى جرت في سنة ٥٢ / ٦٧٢ ذكرها البلاذري ص ٢٣٥ ـ ٦ .

٣) قابل C.H. Becker , art. « Abd Allàh B. sa'd » *Encyclopaedia of Islam.*

٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ ـ ١٩١

الاسكندرية فتخطت البحر حتى سقلية (صقلية) فغزتها . وكانت صقلية قبلاً قد انتهبت مرة على الاقل (٦٥٢) على يد احد قواد معاوية [١] . اذاً فمعاوية وعبدالله اول اميرين من امراء البحر الذين انجبهم الاسلام [٢] .

لم تتم هذه الحملات البحرية على تشجيع خلفاء المدينة او تحبيذهم بل كانت على عكس ذلك تنظّم دون رضاهم . هذا ما يؤخذ من مضمون بعض العبارات الخطيرة التي نجدها في المصادر . فلقد كتب الخليفة عمر الى عمرو وهو في مصر : « لا تجعل بيني وبينك ماء، وانزلوا موضعاً متى اردت ان اركب راحلتي واصير اليكم فعلت » . [٣] ولم يسمح عثمان لمعاوية بغزو قبرس مع انه اخبره بقربها [٤] وسهولة الامر فيها الا بعد ان اوصاه ان يركب البحر ومعه امرأته [٥] .

ونظر البيزنطيون فاذا بممتلكاتهم الافريقية المتاخمة لمصر يهددها العرب بعد ان اصبحت مصر لقمة سائغة لهم . وادرك العرب ايضاً ان احتلالهم الاسكندرية لا يضمنه الا اكتساح هذه الممتلكات وضمها الى دار الاسلام . وكان عمرو من بعد فتحه الاول للاسكندرية قد اهتم بصون مؤخرته فسار في الخيل على المشهور من نشاطه وفطنته غرباً الى انطابلس (بنتابلوس) واحتل برقة دون كبير عناء . وخضعت له اللواته من قبائل البربر وطرابلس [٦] . ولما عزل عمرو وأمّر عبدالله وجه هذا السرايا الى افريقية واحتل البلاد التي كانت عاصمتها قرطاجنة [٧] واخذ منها الخراج . وجعل عثمان للبربر ، وهم عبدة اوثان لا تشملهم جامعة اهل الكتاب ، مثل ما لاهل الذمة من امتياز في البيئة

١) البلاذري ص ٢٣٥

٢) ان تفاصيل الوقائع البحرية في هذه الحقبة ضئيلة جداً في المستندات العربية

٣) اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٠ ؛ الفخري ص ١١٤ يروي ان عمر كتب الى سعد الا يجعل بحراً بين الخليفة والمسلمين .

٤) تبدو قبرس للرائي في بعض ايام الصيف الصافية الجو ويشاهدها المرء عند الغروب من بعض القرى العالية في لبنان كضهور الشوير وحمدون .

٥) البلاذري ص ١٥٢ – ٣

٦) اليعقوبي ج ٢ ص ٧٩

٧) ابن عبد الحكم ص ١٨٣

الاسلاميـة . وبعث المسلمون جنوبا الى بلاد النوبة ليطأوها وهي تحـاكي جزيرة العرب في مراعيها بل هي أكثر ملائمة من وادي النيل لطبيعة الحياة البدوية . وقديماً في ايام الجاهلية الاولى كان بعض العرب يتسربون احياناً الى مصر والسودان . وسنة ٦٥٢ صالح عبد الله اهل النوبة [١] ولكن نار كيدهم لم تنطفىء بذلـك . وفي القرون التالية اخذت مملكة النوبة النصرانية وعاصمتها دنقـلة وسكانها خليط من الليبيين والزنوج تقف حاجزاً يمنع توغل الاسلام الى جنوب القارة الافريقية .

١) البلاذري ص ٢٤٧ ـ ٨

الفصل الخامس عشر

إدارة الممتلكات الجديدة

كيف تدار تلك الامصار الواسعة الشاسعة التي فتحها المسلمون ؟ وكيف يوفق بين احكام غير منسقة قوامها العرف والعادة وضعت لمجتمع عربي بدائي وبين حاجات مجتمع جديد هائل من اخلاط الملل والنحل يعيش تحت ظروف متباينة ؟ تلك كانت اعقد مشكلة واجهت الاسلام والقائمين على امور الحكومة الفتية . واول من تصدى لهذه المسألة الخطيرة كان الخليفة عمر بحيث يعتبر مؤسس الحكومة الدينية الثانية ـ الجمهورية الفاضلة الاسلامية ـ التي لم يقدر لها عمر طويل .

عهد عمر

وجعل عمر لنظريته التشريعية اسساً اولها الا يسمح بالبقاء في الجزيرة العربية لغير الاسلام ديناً . وعملاً بهذه القاعدة الاساسية أجلى يهود خيبر [١] سنة ١٤–١٥/ ٦٣٥ ـ ٦ فيمن اجلاهم بالرغم من عقود الامان السالفة [٢] فالتجأوا الى اريحا وسواها . وكذلك اجلى نصارى نجران الى الشام والعراق [٣] . والاساس الثاني هو ان ينظم العرب الذين أصبحوا كلهم مسلمين كتلة واحدة ويجعل منهم جمهورية دينية حربية يحافظ اعضاؤها على نقاوتهم العرقية وعدم اختلاطهم مع غيرهم بالزواج وهو نوع من الارستقراطية العسكرية ويحرم من لم يكن عربياً من حق الرعوية في هذه الجمهورية وتنفيذاً لهذا فرض على المسلمين العرب الا يمتلكوا الاراضي الزراعية خارج الجزيرة العربية . أما في الجزيرة فلقد ترتب على من يستملك ارضاً أن يؤدي العشر . ومن هنا نرى ان

١) خيبر واحة على بعد مئة ميل الى الشمال من المدينة لمن يريد الشام.

٢) انظر الواقدي، المغازي ص ٣٩١–٢ ؛ ابو يوسف ، كتاب الخراج (القاهرة، ١٣٤٦) ص ٨٥–٨٦ حيث تجد الشروط التي اشترطها النبي عليهم. ٣) البلاذري ص ٦٦

الفاتحين العرب كانوا يحلون معسكرات خاصة كمعسكر الجابية وحمص (سورية) وعمواس وطبرية [١] (الاردن) واللد ثم الرملة (فلسطين) . اما في مصر فانزلوا الفسطاط ومعسكر الاسكندرية . واختطوا في العراق الكوفة والبصرة فاصبحتا مقرّين [٢] لهم . وخوّلت الشعوب المغلوبة من سكان الامصار حق الانصراف الى اعمالهم وزراعة الارض الا انهم كانوا اتباعاً وفي نظر الفاتحين هم مادة المسلمين . [٣] وكان الاعجمي ولو قبل الاسلام في منزلة دون منزلة المسلم العربي .

على ان الاسلام اوصى باهل الذمة [٤] خيراً وان يوفى لهم بعهودهم وان يقاتل المسلمون من ورائهم والا يكلفوا فوق طاقتهم . الا انه لا يسمح لهم في ان يشتركوا في الحرب لان الدين حظر دخولهم في جيش الاسلام . وقد وجبت الجزية على جميع الذميّين ولما كانت احكام الشريعة المحمدية لا تسري عليهم فقد فوض الى رؤسائهم الروحيين امر الاشراف على قضاياهم حسبما تفرضه شرائع اديانهم . تلك حال خاصة بهم وفيها شيء من مزايا الاستقلال الذاتي في الاحوال الشخصية . ولقد سلم سلاطين الترك لاهل الذمة بأصول هذا الوضع الخاص . ولا تزال سنته جارية الى اليوم في بعض البلدان العربية كسورية مثلاً .

وتسقط الجزية عن الذمي بمجرد دخوله في الاسلام وهو ما رسمته الاصول الشرعية الاولى التي نسبتها الاخبار الى عمر الفاروق . وتشمل الجزية ما يؤخذ على الرؤوس . اما الخراج فيؤخذ من اهل الذمة سواءٌ اسلموا ام لم يسلموا . ذلك لانه موضوع على رقاب الارض وهي فيء افاءه الله على الجماعة الاسلامية . ويخرج من حكم الفيء الارض التي استولى عليها المسلمون صلحاً فصار اهلها بهذا الصلح اهل

١) طبرية اليوم . اما عمواس ، بفتح العين او بفتح العين والميم ، فهي عماوس القديمة ، لوقا ٢٤:١٣

٢) نشأ في القرن الاول للهجرة عدد من هذه المقرات للجند منها معسكر مكرام في خوزستان وشيراز في فارس وبرقة والقيروان في شمال افريقية .

٣) يحيى ابن آدم ، كتاب الخراج ، نشر جوينبل (ليدن ، ١٨٩٦) ص٢٧

٤) أريد باهل الذمة — اول الامر — اهل الكتاب من النصارى واليهود والصابئة . ثم عومل اتباع زرادشت معاملة الذميين .

عهد وجاز اقرارهم فيها على التأبيد وهي تسمى دار الصلح . ومتى سقطت الجزية عن الداخل في الاسلام حلت محلها الزكاة التي لا يجب على المسلم في مالـه حق سواها . ولحديث العهد في دين الله سهم من الفيء والغنيمة وله حق في الرواتب والمعاشات التي توزع في المسلمين .

والحقيقة ان الاخبار تعزو الى عمر كثيراً مما احدثته السنون الـتي لحقت عهده من انشاآت دعت اليها التجارب والاحوال الجديدة ، وان ما جاء به الخلفاء الاول وعمال الامصار الأول في صدد الخراج والجزية واصول جبايتها وسياسة اموال الدولة لم يكن بالشيء الخطير . فلقد ابقى الاسلام اساس الحكم وانظمة الادارة البيزنطية على ما كانت عليه في سورية ومصر ولم يفكر ارباب الامر في الامصار الفارسية ان يبدلوا اصول الحكومة المحلية . ولم يأخذ الفاتحون الضرائب الا طبقاً لطبيعة البلاد وبمقتضى الاصول المرعية في العهـد المنقرض سواء أكان بيزنطياً ام فـارسياً . ولم يعتبروا في ذلك اذا كانت البلاد قد دانت لهم صلحاً او انهم فتحوها عنوة ولا اهتدوا بتشريع قد أوجده عمر . فالنظرية التي تقسم البلاد الى المفتوح صلحاً والمفتوح عنوة لم تكن الا تفسيراً متأخراً اخذ بهـا القوم من بعد ولا اصل تاريخي لهـا . وكذلك شأن تفريقهم بين الجزية والخراج (ولعلها لفظة خوريجيا اليونانية) فالتمييز بينهما لم يكن معروفاً ايام الخليفة الراشد الثاني (٦٣٤ ـ ٤٤) . ولم ترد اللفظتان في العصر الأول الا بمعنى واحد مترادف اي الضريبة على التعميم . ولم يورد القرآن لفظة « جزية » الا في سورة التوبة الاية ٢٩ وذلك دون معنى شرعي معـين . امـا لفظة « خراج » فقد وردت في القرآن مرة واحـدة ايضاً (سورة المؤمنين الاية ٧٤) بمعنى الاجر . والظاهر ان الشروط الاصلية التي عقدت مع الامم المغلوبة ادركها النسيان في الزمن الذي أخذ فيه المؤرخون بتدوين هذه الاخبار ففسروها على ضوء الاحوال والتطورات المتأخرة .

اما وجوه الاختلاف بين الجزية والخراج فلم تعين حتى اواخر العصر الاموي .

واشترط لتأدية الخراج اوقات مضروبة الاجل يقبل فيها الدواب والمتاع وغير ذلك وهو يؤخذ بالقيمة ولا يؤخذ في الخراج ميتة ولا خنزير ولا خمر . اما الجزية فتؤخذ دفعة واحدة وهي علامة المذلة وجزاء على الامان . والغالب ان يؤخذ من كل فرد من الاغنياء اربعة دنانير [1] جزية ومن افراد الطبقة الوسطى ديناران ومن الفقراء دينار واحد . ولقد كلفت الشعوب المغلوبة فوق ذلك بضرائب أخرى لاعالة جند المسلمين . ولم تجب الجزية الا على الرجال الاصحاء العقلاء فلم توضع على امرأة او صبي ولا مجنون ولا عبد ولا سابل او سائل ولا راهب او شيخ او زَمِن الا اذا ايسروا .

والاساس الثالث الذي استنه عمر بعد مشاورة معاونيه من الصحابة [2] هو ان الغنيمة [3] تشمل المال والاسرى مما وقع للفاتحين وهي حق للمقاتلين . اما الارض وما يجبى من اهلها فليست غنيمة بل فيئاً [4] يصرف في مصالح الجماعة الاسلامية . وكذلك فان من يقوم بحراثة ما هو فيء من البلاد فعليه ان يؤدي خراجاً لا يسقط بالاسلام . وكان كل ما اصابه المسلمون من موارد البلدان التي فتحوا يجب ان يودع في بيت المال ويصرف في مصالح المسلمين كادارة الحكومة وشؤون الحرب بما فيها الجيش وما زاد على ذلك فقسمةٌ بين المؤمنين . وامر عمر باحصاء الناس لكي يحسن توزيع ما يأخذون فكان ذلك اول احصاء معروف يقصد منه ضبط ما ينفق في الامة من موارد الدولة . وبدأوا بقرابة النبي ، الاقرب فالاقرب . وفرض عمر لعائشة اثني عشر الف درهم [5] ـ وهو اعظم ما فرض ـ ومن بعد اهل البيت

١) لفظة دينار هي ديناريوس اليونانية واللاتينية وكانت وحدة النقد الذهبي في دول الاسلام وتعادل نحو نصف الليرة الانكليزية الذهبية وزناً . وكان الدينار يساوي نحو عشرة دراهم في عهد الخلفاء الراشدين ثم اصبح اثني عشر درهماً فيما بعد وزاد عن ذلك في بعض ادوار العصر العباسي .

٢) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢١٢

٣) تجد بحثاً في الغنيمة والفيء في الماوردي الاحكام السلطانية ، نشر أنغر (بون ، ١٨٥٣) ص ٢١٧ ـ ٥٤ ؛ ابو يوسف ص ٢١ـ٣٢

٤) انظر سورة الانفال ، الآية ٤٢ . وفيها ان خمس الغنيمة لله ورسوله —اي تعود للدولة.

٥) كان الدرهم (درم في الفارسية من دراخيمه اليونانية) العربي وحدة في النقد الفضي تعادل العشرة منه في الاساس ديناراً غير ان قيمته اخذت تتغير في العصور التالية لصدر الاسلام .

يأتي المهاجرون فالانصار . ولقد قدم عمر اهل السابقة منهم ففرض للواحد خمسة آلاف أو أربعة الاف درهم [١] في السنة على المتوسط . ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً ففرض لهم على جهادهم وقراءتهم القرآن . ورتب للمقاتل خمسمئة الى ستمئة درهم في السنة على الاقل . ولم يدع عمر احداً من الناس الا فرض له شيئاً حتى بقيت بقية من النساء والاولاد والموالي [٢] ففرض لهم ما بين مئتي درهم وستمئة درهم في السنة وواضح ان عمر اخذ اصول تدوين الديوان ، الذي ضبط فيه دخل الدولة وخرجها وترتيب اهل العطاء في مراتب ، من انظمة الفرس حسبما اكده ابن الطقطقى [٣] وعلى ما تفيده لفظة ديوان وهي فارسية .

وكان دستور عمر عسكرياً اشتراكياً قوامه العروبة . وكان المؤمن الاعجمي بموجبه اعلى درجة من غير المؤمن . الا ان هذا الدستور لم يكن طبيعياً فلم يقوَ على مجالدة الزمن . فالخليفة عثمان الذي ولي الحكم من بعد عمر قد رخص لأبناء الجزيرة بامتلاك الاراضي في الامصار . ومضت السنون فاذا سيل الموالي العرم يطغى فيغرق تلك الارستقراطية العربية التي رفعت رأسها في اوائل عهد الفتوح .

الجيش

وكان الجيش عبارة عن الأمة بكاملها في معرض الكفاح . والامير المتولي شؤونها هو الخليفة المقيم في المدينة يفوّض السلطان الى معاونيه وقواده . وفي اوائل العهد الاسلامي كان القائد اذا فتح مصرا تولى الصلاة والقضاء فيه . ولقد افادنا البلاذري [٤] ان عمر ولّى أبا الدرداء قضاء دمشق والاردن وولّى عُبادة قضاء حمص وقنسرين . اذاً فهو اول من استقضى القضاة في الامصار [٥] .

---

١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢١٣ــ١٤ ؛ الماوردي ص ٣٤٧ــ٨ ؛ ابو يوسف ص ٥٠ــ٥٤ ؛ البلاذري ص ٤٥٠ــ٥١

٢) جمع مولى وهو الاعجمي الداخل في الاسلام الملتحق بالولاء باحدى القبائل العربية . وكانت مكانته الاجتماعية ادنى من مكانة المسلم العربي .

٣) الفخري ص ١١٦ . وقابل الماوردي ص ٣٤٣ ــ ٤ .

٤) ص ١٤١ .

٥) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٠٢

اما تقسيم الجيش الى فرق خمس هي المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة فينم عن المؤثرات البيزنطية والساسانية . وهذه الوحدة من الجيش تسمى الخميس لاحتوائها على خمس فرق . اما الفرسان فهم حماة الميمنة والميسرة . ولقد جرى تقسيم الجيش على اساس الوحدة القبلية فلكل قبيلة لواؤها وهو قطعة من نسيج ترفع على رمح يحمله احد الابطال . وكان شعار النبي العقاب وسلاح المشاة القوس والنشابة والمقلاع واحياناً الترس والسيف . والسيف يحمل في غمده ويشد الى الكتف اليمنى . اما الحربة فلقد اخذها العرب عن الاحباش . واظهر سلاح الفارس العربي الرمح وهو قناة طويلة من الخيزران في رأسها حربة ويسمى الرمح في الأدب العربي بالخطّي نسبة الى الخطّ وهو ساحل البحرين حيث كان الخيزران ينمو قديماً قبل استجلابه اليه من الهند . وكان الرمح والقوس والنشابة قوام السلاح القومي وخير السيوف كانت تصنع آنئذ في الهند حتى صارت لفظة هندي مرادفة للسيف . اما الدفاع فعدته الدرع والترس . والعتاد الحربي عند العرب أخف منه عند البيزنطيين [١]

كان نظام القتال عند العرب ساذجاً يبدأ في صفوف متراصة متلاحمة . واول المناوشة براز بين افراد من اقوى رجال الطرفين واشدهم شكيمة يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويدعون العدو الى القتال . وكان المحارب العربي يومئذ يتقاضى ما يفوق راتب خصمه الفارسي او البيزنطي فضلاً عن حصته من الغنائم . فلم تكن الجندية أجل الاعمال واشرفها عند الله فحسب بل اوفر المهن دخلاً . على أن عظمة الجيش العربي لم تقم على قوة السلاح او جودة التنظيم بل كانت ثمرة القوة المعنوية الروحية التي كان الايمان والدين قد عزّزاها في نفسه ، ووليدة الصبر والمثابرة اللذين تمنحهما البادية لابنائها ونتيجة سرعة حركته العجيبة التي هيأها للعرب بالاكثر اعتمادهم على الابل للركوب [٢] .

---

١) في موضوع العدة والسلاح انظر ابن قتيبة ، عيون الاخبار ج ١ ص ١٢٨-٣٢ .

٢) راجع المقارنة بين الجيش العربي والجيش البيزنطي في : Charles Oman, *A History of the Art of War in the Middle Ages*, 2 nd ed. (London ,1924) vol. i, pp. 208 seq.

وفتح العرب الهلال الخصيب و بلاد الفرس ومصر فاستولوا على مواطن جغرافية هامة وامصار كانت اقدم مراكز الحضارة في العالم باسره. فورث ابناء الصحراء تلك الثقافات القديمة التي ترجع تقاليدها الى عصور اليونان والرومان والايرانيين والفراعنة والاشوريين والبابليين . ولم يكن لاولئك العرب القادمين من الجزيرة علم او ادب او نظام ينقلونه الى الامم المغلوبة بل كان لهم ان يقتبسوا كل ذلك عنها . ولم يقف اقتباسهم عند حد ضيق بل ابدوا رغبة شديدة وقابلية فائقة لأخذ المعارف تدفعهم اليها عوامل الشوق الى الاطلاع والشغف بالاستكشاف . فما لبثت ان تحولت قواهم الكمينة الى قوى فعالة فانطلقوا بمعونة اخوانهم من ابناء البلدان المفتوحة الى استثمار ذلك التراث الفكري الغني والتبحر فيه وسوقه الى مجار تماشي عقليتهم . ففي المدائن والرها ونصيبين ودمشق والقدس والاسكندرية شاهدوا امثلة رائعة من بدائع المهندسين والصناع والصاغة فأعجبوا بها وطفقوا يقلدونها . لقد غَلبوا فغُلبوا ، غلبوا امماً لها حضارتها العريقة وخضعوا بدورهم لحضارة الامم نفسها التي غلبوها وظهر للعالم كيف يستطيع المغلوب ان يصبح غالبا .

واذن فهذه المدنية التي ندعوها المدنية العربية لم تكن عربية في اصولها او اركانها ولا بجنسية اربابها . وانما كان اثر العرب فيها مقتصراً على اللغة والدين . ولم تزدهر دول الاسلام حتى قام السوريون والفرس والمصريون وغيرهم سواء من اسلم منهم ومن بقي على نصرانيته او يهوديته طوال تلك الحقب يتقدمون صفوف الامة حاملين مشعل النور والعرفان ـ شأن اليونان من قبلهم اذ غلبهم الرومان . فالمدنية العربية الاسلامية اذاً قامت على اساس المدنية الآرامية الهلينية والمدنية الايرانية وتدرجت في معارج الرقي تحت لواء الخلافة وعبرت عن نفسها بواسطة اللسان العربي . وباعتبار آخر فهذه المدنية العربية الاسلامية هي تكملة للمدنية السامية العريقة التي زهت في الهلال الخصيب . ابتدعها ورعاها الاشوريون والبابليون والفينيقيون والآراميون

والعبرانيون ثم اتم عملهم العرب فهي مثال الذروة القصوى التي بلغتها مدنية البحر المتوسط القائمة في غرب آسية .

الخلفاء الراشدين

لقد كان الفتح العربي الذي دفع اليه ابو بكر قد بلغ ذروته في ايام عمر ثم اتت خلافة علي فهدأت حركة التوسع لان القلاقل الداخلية اقعدتهم عنها . ولم ينقض الجيل الاول على وفاة الرسول حتى امتدت دولة الاسلام من جيحون الى اقصى طرابلس الغرب . فهذه الخلافة العربية الاسلامية التي لم يكن لها في بدء امرها شيء من الحول اصبحت الآن اعظم قوة في العالم .

وعاش ابو بكر (٦٣٢ ـ ٣٤) مخضع الجزيرة وناشر علم السلام فيها عيشة البساطة والتقشف وكان منزله الوضيع بالسنح مع زوجته حبيبة وهو يغدو كل يوم الى المدينة عاصمته . ولم يتقاض راتباً ما لان دولة الاسلام كانت آنئذ بلا دخل (١) وقد تفرغ ابو بكر لشؤون الامة فكان يجلس لها في الساحة من مسجد النبي وقد كانت صفاته العالية وايمانه التي لا يتزعزع بصهره النبي محمد الذي يكبره ثلاث سنوات عاملاً جعله من اقرب الشخصيات في فجر الاسلام الى القلوب واحبها واكسبه لقب الصدّيق (٢) . وكان من حيث الخلق اكثر حزماً وعزيمة مما ذكرت الاخبار عنه وقد ذكروا عن هيئته انه كان نحيف البنية خفيف اللحم ابيض البشرة وكان يخضب لحيته بالحناء والكتم واذا مشى احنى (٣) .

واستخلف عمر (٦٣٤ ـ ٤٤) بعد أبي بكر فكان رجلاً جلداً نشيطاً وكان مثال البساطة والاقتصاد ومن صفته انه كان طوالا اصلع (٤) شديد الادمة وما انقطع

١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٣١ ـ ٣٢ ، ابن الأثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ، ١٢٨٦) ج ٣ ص ٢١٩

٢) انظر الصديق في ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٢٠ ـ ٢١ .

٣) اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٧

٤) المصدر نفسه ص ١٨٥

اذ ولي الخلافة عن التكسب بالتجارة بل اعتاش بها زمناً وهو ينفق على نفسه من صلب ماله ولم يعش عيشة رخاء او ترف بل آثر ان يعيش مثل أي رجل من قريش او شيخ من مشايخ البدو . والواقع ان عمر رفعته التقاليد الاسلاميه الى أعلى مرتبة بعد النبي ورأى فيه الكتاب المسلمون عنوان الورع والعدل والبساطة في الشيوخ فصوروه نموذجاً للفضيلة التي يجدر بالخليفة ان يزدان بها حتى اصبحت سيرته مثالا تحتذيه كل خليفة ذي ضمير حي . وقد زعموا أنه لم يكن لعمر الا قميص خلق وازار قَطري مرقوع برقعة من أدم (١) . وكان ينام على سعوف النخل ولا هم له الا الدفاع عن شعائر الدين واقامة العدل واعلاء شأن الاسلام وتأمين مصالح العرب . وقد حفل الأدب العربي بما يعزز سيرة عمر من الاخبار . فقد رُوي ان عمر جلد ابنه حداً على الشرب والخلاعة فمات تحت حده (٢) . ويروى ايضاً ان رجلاً لقي عمر فقال له ، يا امير المؤمنين انطلق معي فانصرني على فلان فانه قد ظلمني ، قيل فرفع عمر الدرّة (السوط) فخفق بها رأسه وقال « تدعون امير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في امر من امور المسلمين اتيتموه : أعدني ! أعدني ! » فانصرف الرجل وهو يتذمر . ثم ندم عمر على ما فعل فدعا الرجل اليه وسأله ان يضربه كما ضربه هو . فأبى الرجل وانصرف الخليفة حتى دخل منزله فصلى ركعتين وقال يناجي نفسه : « يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلاً فاعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته . ما تقول لربك غداً اذا اتيته ؟ » (٣)

ان عمر هذا الذي جعل هجرة النبي بدء التاريخ الاسلامي وقام على فتح الفتوح في الارضين ودوّن الديوان وكتب للناس على قبائلهم وفرض لهم الاعطية ونظم حكومة الدولة قد لاقى حتفه في ابان سطوته وقوته . ذلك انه بينا كان

---

١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٣٧ – ٩ .

٢) الدياربكري ، تاريخ الخميس (القاهرة ، ١٣٠٢) ج ٢ ص ٢٨١ ؛ النويري ، نهاية الأرب ج ٤ (القاهرة ، ١٩٢٥) ص ٨٩ – ٩٠

٣) ابن الاثير ، اسد ، ج ٤ ص ٦١

يصلي في القوم وثب عليه ابو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة ـ وهو نجار نصراني فارسي ـ [١] بخنجر وطعنه فارداه في ٣ تشرين الاول سنة ٦٤٤ .

وبويع عثمان ، الذي جمع القرآن في الصحف من بعد ، فتمت في ولايته فتوح ايران وآذربيجان وبعض ارمينية . وكان شيخاً وقوراً طيب الارومة الا انه عجز عن التحكم في اطماع ذوي قرباه فولى عبدالله اخاه للرضاعة على مصر . وعبدالله هذا كان يكتب لرسول الله ولقد عرف عنه انه شك في صدق محمد والوحي [٢] فأخذه الرسول بذلك وكان من زمرة العشرة الذين اقصاهم محمد يوم دخوله مكة . اما الوليد ابن عقبة الذي أساء الى محمد واستحق لعنته فلقد ولاه عثمان وهو اخوه لامه على الكوفة . كما انه عقد لمروان ابن الحكم ابن عمه (الذي اصبح فيما بعد خليفة) على الديوان . واستسلم عثمان لآل بيته [٣] فأمّر صغارهم على جلة الاكابر من رجال الصحابة والاسلام واتته الهدايا من عماله واعوانهم . قالوا وصلته يوماً فتاة حسناء هدية من عامله في البصرة . وتعالت الشكوى ونقم الناس عليه محاباته لذوي القربى . وكان من الناقمين ثلاثة من رجالات قريش كل منهم يمّني نفسه بمنصب الخلافة وهم علي وطلحة والزبير . وظهرت الفتنة وبدأت الثورة في الكوفة وقد اصلى نارها انصار علي ثم اندلعت في مصر واشتد سعيرها فاقبل من المصريين زهاء خمسمئة ثائر الى المدينة يريدون عثمان وذلك في نيسان سنة ٦٥٥ . فتسور بعضهم عليه فوجدوه ـ وهو ابن ثمانين ـ عند امرأته نائلة يقرأ في المصحف [٤] الذي كان قد ضبط قراءته ، واقتحم البغاة الدار يتقدمهم محمد ابن ابي بكر وهو ابن صديقه

١) الطبرى ج ١ ص ٢٧٢٢ - ٣ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٣

٢) سورة الانعام : ٩٣ ؛ البيضاوي ج ١ ص ٣٠٠

٣) ابن حجر ج ٤ ص ٢٢٣ ـ ٤ ؛ ابن سعد ج ٣ قسم١ ص ٤٤ ؛ المسعودي ج ٤ ص ٢٥٧ وما يلي .

٤) يزعم ابن بطوطة (المتوفى ١٣٧٧) ج ٢ ص ١٠ ـ ١١ ، انه لما زار البصرة ودخل مسجدها رأى فيه المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه حين قتل وأثر الدم في الورقة التى فيها قوله تعالى « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » (سورة البقرة : ١٣١) . ولقد روى ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٥٢ ان الدم الذى نزف من جرح عثمان يوم مقتله كان يسيل على المصحف حتى وقف عند الآية المذكورة . انظر مقال كاترمير في : *Journal Asiatique* ,Ser. 3 vol. vi, (1838) pp. 41 - 5.

وسلفه الخليفة الاول . فقام اليه بمشقص (نصل عريض) حتى وجاه في رأسه [١] . وقتلوه فكان اول خليفة فتكت به ايد مسلمة وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ . وهكذا فان عصر الحكم الجمهوري الذي تركزت الزعامة فيه في مدينة النبي على اساس مشيخي طافح بذكريات الرسول وروعة هيبته وعميق اثرها في النفوس قد انتهى الآن بحرب اهلية في سبيل الخلافة اولا بين علي وطلحة والزبير ثم بين علي وطامح جديد هو معاوية زعيم البيت الاموي ـ هذا البيت الذي كان منه عثمان ، الخليفة المقتول .

١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٥١ .

الفصل السادس عشر

النزاع بين عليّ ومعاوية على الخلافة

الحكومة الانتخابية

كان ابو بكر من اول اعوان محمد ومن اصدق الصحابة موالاة له وقد أم المؤمنين في الصلاة اثناء مرض الرسول الأخير. ولما توفي النبي بويع له في ٨ حزيران سنة ٦٣٨ بشكل من الانتخاب اشترك فيه من حضر المدينة من الزعماء فتسلم زمام الأمر وحمل مسؤوليات الرسول وخلفه في وظائفه المختلفة الا ما يخص النبوة فان هذه قد انتهت بموت النبي وهو خاتم الانبياء.

أما لقب خليفة رسول الله الذي عرف به ابو بكر فلعله لم ينتحله لنفسه. وقد وردت لفظة خليفة في القرآن في آيتين (البقرة : ٢٨ وصاد : ٢٥) ولا يظهر لها فيها اي معنى مصطلح او اية دلالة على ان اللفظة ستطلق على من يلي محمداً.

وعين ابو بكر عمر للخلافة من بعده وعمر احق المرشحين لها فدعي عمر خليفة خليفة رسول الله ورأى القوم هذه التسمية طويلة فاجتزأوها [١]. ويروى ان الخليفة الراشد الثاني (٦٣٤ ـ ٤) كان اول من دعي بامير المؤمنين باعتباره الأمير الأعلى لجيوش المسلمين. ويقال ان عمر انشأ قبل وفاته مجلس انتخاب من ستة اعضاء : عليّ ابن ابي طالب وعثمان ابن عفان والزبير ابن العوام وطلحة ابن عبدالله وسعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف [٢]. وامرهم الاّ يجعلوا الخلافة

---

١) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢٠٢

٢) المصدر نفسه ج ٣ قسم ١ ص ٢٤٥ وما يلي.

من بعده لابنه . وفي تأليف هـذا المجلس الذي يسمى الشورى وهو يضم اقـدم الصحابة سناً واولاهم قدراً ما يدل على ان فكرة الزعامة القبلية القديمة عند العرب تغلبت على فكرة الملكية الوراثية .

وجاءت بيعة عثمان (٦٤٤) الخليفة الراشد الثالث فوزاً على عليّ فاذا هي نتيجة لأثر التقدم في السن . وكان عثمان زعيم الارستقراطية الاموية اما سلفاه فمن زعماء المهاجرين ولم يحاول احد من هؤلاء الثلاثة اقرار الملك في اعقابه .

وبعد مقتل عثمان [١] بويع لعلي ابن ابي طالب بالمدينة في مسجد النبي لاربعة وعشرين من حزيران سنة ٦٥٦ واعترف بخلافته كل العالم الاسلامي . وهو ابن عم الرسول وزوج فاطمة احبّ بناته اليه ووالد الحسن والحسين اللذين لم يكن لمحمد في ذريته من ذكور الا هما . وعليّ ثاني من آمن بمحمد او ثالثهم وقد كان طيب النفس ودوداً تقياً شجاعاً . وكان حزب علي يقول بان الامامة تثبت بالنص والتعيين [٢] واحتجوا بان الله ورسوله ارادا علياً للخلافة دون سواه فهو الخليفة الشرعي من البدء واعترضوا على الثلاثة قبله ـ ابي بكر وعمر وعثمان ـ واتهموهم بانهم سلبوا علياً حقه المشروع .

خلافة علي

واول مشكلة اهتم بها علي هي التخلص من منافسيه طلحة والزبير [٣] زعيمي الحزب المكي وكان لكل منهما جمهرة من الاتباع في الحجاز والعراق رفضوا ان يعترفوا بولاية علي . وانضمت عائشة ام المؤمنين الى مقاومي علي وكانت قد واطأت الثائرين على عثمان وها هي اليوم تمالىء الحاملين على علي في البصرة . وكان النبي قد تزوج منها وهي صغيرة السن جداً [٤] لا تزال تلهو بلعبها التي جاءت بها

١) البلاذري ، انساب الأشراف (القدس ، ١٩٣٦) ج ٥ ص ٥٩ وما يلي
٢) الشهرستاني ص ١٥
٣) كانت ام الزبير اختاً لوالد الرسول
٤) في التاسعة او العاشرة من عمرها على قول ابن هشام ، السيرة ، ص ١٠٠١

من بيت ابيها ابي بكر . وكانت مراجل البغض لعلي تغلي في صدر عائشة للحادثة التي جرت لها يوم تخلفت عن ركاب النبي فقد ارتاب عليٌ في سلوكها ونزل الوحي ببرائتها (سورة النور ، ١١ - ٢١) ولـكنها لم تنس ذلك لعليّ .

وانطلق عليّ يقمع الفتنة فضرب على ايدي موقديها بجوار البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ . وتُعرف هذه المعركة بيوم الجمل لان عائشة التي تألب الثائرون حولها كانت راكبة جملاً وقد صرع في هذا اليوم منافسا عليّ على الخلافـة طلحة والزبير . وكان من نبـل علي ان اظهر الجزع والأسف عليهما ودفنهما في احتفـال مهيب (١) وجيء بعائشة أسيرة فأحسن علي اليها وعاملها بمنتهى الاحترام الذي يليق بمكانتها باعتبار انها أم المؤمنين واذن لها في الرجوع الى المدينة . وبهذا انتهت اول معركة من المعارك التي حارب فيها المسلم أخاه المسلم على انها لم تـكن الا فاتحـة الحروب الأهلية في سبيل مسألة الخلافة في العالم الاسلامي ، هذه الحروب التي كانت تغمر الاسلام من حين الى آخر وتـكاد تهز كيانه .

واستتب الأمر لعلي في الظاهر فجعل الـكوفة عاصمة له واستهل ولايته بعزل أمراء الامصار الذين استعملهم عثمان فاستعاض عنهم بغيرهم ممن بايعوه . وتربص معاوية ابن ابي سفيان وهو امير الشام منذ زمن عمر فلم يبايع عليا . ثم ألصق قتل عثمان بعلي وطالبه بدم الخليفة الشهيد . واخرج معاوية قميص عثمان الملوث بالدم واصابع زوجته نائلة التي قطعت حين اتقت ضربة السيف عنه (٢) واستطاع معاوية بحنكته وسياسته وقوة بيانه أن يؤثر في قلوب أهل الشام ويحملهم على النقمة على عليّ . واحجم هو بدوره عن تقديم الطاعة لعلي بل انه اوقع عليا في حيرة كبرى حين ارسل اليه مثل هذا الكلام : سلم قتلة عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمة او لا فإنك شريكهم في الجرم ولا حق لك في الخلافة . ولم تنطو هذه الخصومة على عداء شخصي فحسب بل تجاوزته الى التطاحن بين بيتين من قريش والى تنافس

١) ولقد نشأت قرية الى جانب قبر الزبير تعرف باسمه الى الآن .
٢) الفخري ص ١٢٥ ، ١٣٧

بين الكوفة ودمشق او قل العراق والشام في ايها يتصدر في الشؤون الاسلامية . اما المدينة فقد عافها علي بعد ان بويع له سنة ٦٥٦ ولم يرجع اليها وكانت قد فقدت سيادتها لما قضى به التوسع والفتوحات من انتقال مركز السياسة الى الشمال .

والتقى الجيشان بصفين في الشمال من الرقة على ضفة الفرات الغربية : عليّ على اهل العراق وهم نحو خمسين الف مقاتل ومعاوية على اهل الشام (١) . وجرت مناوشات ولم يكن لأي الفريقين رغبة شديدة في معركة حاسمة . فمضى الاسبوعان وهم يكفّون عن الحرب ثم يعودون اليها ، الى ان كان السادس والعشرون من تموز سنة ٦٥٧ فزحف اهل العراق يتقدمهم مالك الاشتر فازالوا اهل الشام عن مراكزهم . وظهرت امارات الظفر فاشار عمرو ابن العاص - وهو من هو حيلة ودهاءً - على معاوية برفع المصاحف على الرماح علامة على النزول عند حكم الله لا عند حكم السيوف ، فتوقف القتال . وتأثر علي - لسلامة طويته - بفكرة معاوية في التحكيم وقبل بما اراده اكثر اتباعه من ايقاف القتال حقناً لدماء المسلمين . وانما رضي علي بالتحكيم شرط ان ينزل الفريقان عند حكم الله وكتابه (٢) على ما في ذلك من الابهام .

حقاً ان علياً لم يكن راضياً عن انتخاب ابي موسى الأشعري نائباً عنه في مؤتمر التحكيم لأن الاشعري على ما امتاز به من التقوى كان فاتراً في ولائه للحزب العلوي . اما معاوية فقد انتدب عمرو ابن العاص - الذي سمي بداهية العرب (٣) - ممثلاً . وجاء الحكمان كل يحمل صحيفة تخوله حق المفاوضة ويرافقه اربعمئة شاهد وعقد الحكمان مؤتمراً علنياً في اذرح - وكانت اذرح محطاً للقوافل بين المدينة ودمشق وهي في منتصف المسافة بين معان والبتراء - وكان ذلك في كانون الثاني من سنة ٦٥٩ .

---

١) ابن عساكر ج ١ ص ٧٣
٢) انظر نص وثيقة التحكيم في الدينوري ص ٢٠٦ - ٨
٣) المسعودي ج ٤ ص ٣٩١

اما حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي فيصعب استجلاؤها وتضطرب المصادر العربية المختلفة في امرها [١] . والمتعارف ان الحكمين قد اتفقا على خلع الزعيمين وجعل الامر شورى بين المسلمين ليختاروا لانفسهم من احبوا فتقدم ابو موسى وهو اكبر الاثنين سناً فخلع علياً ومعاوية معاً . اما عمرو فخدع زميله وثبت معاوية بعد ان خلع علياً . الا ان ابحاث الأب لامنس [٢] النقدية ومـا سبقها من ابحاث فلهوسن [٣] تدل على ان هذه الرواية انما تظهر ميول المدرسة العراقية التي تنتمي اليها كثرة المصادر الموجودة وهي قد وضعت في العصر العباسي عصر العـداء لبني امية . والراجح ان ما نتج عن مباحثات مؤتمر اذرح هو ان الحكمين خلعا علياً ومعاوية وبذلـك وقعت الخسارة على علي لان معاوية لم يكن خليفة بل امـيراً على ولاية لا غير . وفي مجرد التسوية بين علي ومعاوية كمرشحين للخلافة في مؤتمر اذرح رفعٌ للثاني وحط من شأن الاول . فكأن علياً سلم فيها انه مدّعٍ للخلافة كزميله ليس الا . وهكذا فقد كانت النتيجة من هذا المؤتمر ان خسر علي منصب الخلافة الذي كان فيه بينما لم يخسر معاوية سوى حقه في الخلافة ، هذا الحق الذي لم يكن قد ادعاه علانية بعد . على ان معاوية لم يعلن خلافته الا بعد انقضاء سنتين على تحكيم اذرح وذلك في عام الجماعة بايلياء (بيت المقدس) سنة ٦٦١ .

والخطأ الفادح الذي ارتكبه علي بقبوله مبدأ التحكيم جرّ عليه الشر الوخيم حتى من اعوانه الذين خرجت عليه فئة منهم عرفوا بالخوارج [٤] واصبحوا اشد اعدائـه عليه . ودعوى الخوارج ان علياً اخطأ في التحكيم اذ حكم الرجال – والحكم لله –

١) قابل الطبري ج ١ ص ٣٣٤٠ – ٦٠ ؛ المسعودي ج ٤ ص ٣٩٢ – ٤٠٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٠ – ٢٢ ؛ الفخري ص ١٢٧ – ٣٠ .

٢) *Études sur le règne du calife omaiyade Mo'âwia Ier* (Beirût, 1907) ch. vii.

٣) *Das Arabische Reich und sein Sturz* (Berlin, 1902) ch. ii = *The Arab Kingdom and its Fall*, tr. Margaret G. Weir (Calcutta, 1927) , ch. ii.

٤) ويسمون ايضاً بالحرورية نسبة الى حروراء (حروراء في ياقوت ، بلدان ج ٢ ص ٢٤٦)

ومن هنا كان نداؤهم حين خرجوا عليه « لا حكم الا لله » [1] وساروا الى العراق وهم اربعة آلاف [2] عليهم عبدالله ابن وهب الراسبي فضربهم علي في معسكرهم على ضفة النهروان وانزل العقاب بهم حتى كاد يبيدهم . الا انهم ما لبثوا ان هبوا ثانية بعد هذا الانكسار وناوأوا اهل السلطة وعرفوا باسماء متعددة وظلوا شوكة في جانب الخلافة الى ايام العباسيين .

وفي اوائل كانون الثاني سنة ٦٦١ بينما كان علي في طريقه من داره بالكوفة الى المسجد فيها اعترضه خارجي اسمه عبد الرحمان ابن ملجم وضربه بسيف مسموم على أم رأسه فقتله . وكان ابن مُلجم قد علق امرأة فائقة الجمال تدعى قطام كان ابوها واخوها قد قتلا يوم النهروان فطلبت من ابن ملجم شرطاً لتزوجها منه قتل علي ابن ابي طالب . وقد ذهبت بعض الاخبار الى ان ابن ملجم كان واحداً من ثلاثة خوارج اجتمعوا بالكعبة وتواعدوا على ان يكفوا الجماعة الاسلامية شر الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو بن العاص [3] في يوم واحد . وهو خبر اشبه برواية منه بواقعة تاريخية . وصار مدفن [4] علي في النجف مشهداً من اعظم مراكز الحج في الاسلام . وسرعان ما اصبح الخليفة الرابع ولياً رفيع القدر عند الشيعة بل هو عندهم ولي الله كما كان محمد نبي الله ورسوله . وهكذا اكسب الموت علياً ما لم تكسبه اياه الحياة . وهو وان اعوزته مزايا الزعامة والسياسة من يقظة وتبصر وحزم وحيلة فانه مثال اعلى لخلق العربي الكريم بما عرف عنه من البسالة في الحرب والحكمة والفصاحة وحفظ العهود والعفو عند المقدرة . ومن هنا وضعت التقاليد الاسلامية علياً في اعلى مقامات الشرف والفتوة والفروسية وصيرته « سليمان » الآداب العربية بما حاكت

١) الفخري ص ١٣٠

٢) اثنا عشر الفاً في الشهرستاني ص ٨٦

٣) قابل الدينوري ص ٢٢٧

٤) تؤكد اخبار الشيعة ان هذا المدفن اختير امتثالاً لارادة علي قبل وفاته فلقد امر ان تحمل جثته على جمل ولا تدفن الا في المكان الذي يجثو فيه الجمل . وقد اخفي هذا القبر في ايام بني امية وبعد ايامهم الى أن عثر عليه صدفة الخليفة هارون الرشيد سنة ٧٩١ . انظر اقدم وصف مفصل للقبر في ابن حوقل « المسالك والممالك » نشر دي غويه ، (ليدن ، ١٨٧٢) ص ١٦٣

حول اسمه من الاشعار والامثال والحكم والمواعظ وجوامع الكلم . وكان علي اسمر اللون ادعج العينين اصلع ابيض الرأس تملأ لحيته صدره عظيم البدن ليس بالطويل ولا بالقصير [١] . وقد دُعي سيفه الذي امتشقه النبي في وقعة بدر الشهيرة بذي الفقار (اي قاصم فقرات الظهور) وهو خالد في بيت من الشعر نراه على كثير من السيوف العربية التي ابقتها لنا العصور الوسطى :

لا سيف الا ذو الفقار (م) ولا فتى الا علي

وان حركة الفتوة وما يرافقها من رموز ومراسيم تحاكي ما جاءت به الفروسية الاوربية في العصور الوسطى وما اندرج في نظم الكشافة اليوم قد جعلت علياً نموذجها الاسمى . ولقد اتفق المسلمون على اعتبار علي نبراس الحكمة والشجاعة فوضعته فرقٌ من الفتيان واهل التصوف موضع الجمال النفسي وتخيلته مثالا عالياً لها وذهب اتباعه من الشيعة الى انه طاهر منزه عن الخطأ بل حسبه غلاتهم مجلى الله في البشر . ان علياً الذي لم يفلح في ميدان السياسة الدنيوية قد رفع الموت قدره واحله مركزاً لا ينافسه فيه الا الرسول . وان مواكب الحجاج الذين يتوافدون الى مشهد علي في النجف الاشرف والى مشهد الحسين شهيد الشيعة الاعظم فى كربلاء وما يمارسونه من حالات الأسى والتفجع كل سنة حين تنشر في العاشر من محرم راية الحزن في انحاء عالم الشيعة وما في ذكرى مقتل الحسين المؤثر من الم وغصة ـ كل هذه الامور تثبت ان الموت قد ييسّر للمرء ان يكون ولياً او مسيحاً اكثر من الحياة .

عصر الجمهور:

وبمقتل علي (٦٦١) انقضى عصر الخلافة الاول الذي يجوز نعته بالجمهوري . وقد بدأ بولاية ابي بكر (٦٣٢) وعرف الخلفاء الاربعة فيه عند مؤرخي العرب بالخلفاء الراشدين . ثم اعتلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الخلافة الثانية وهو الداهية

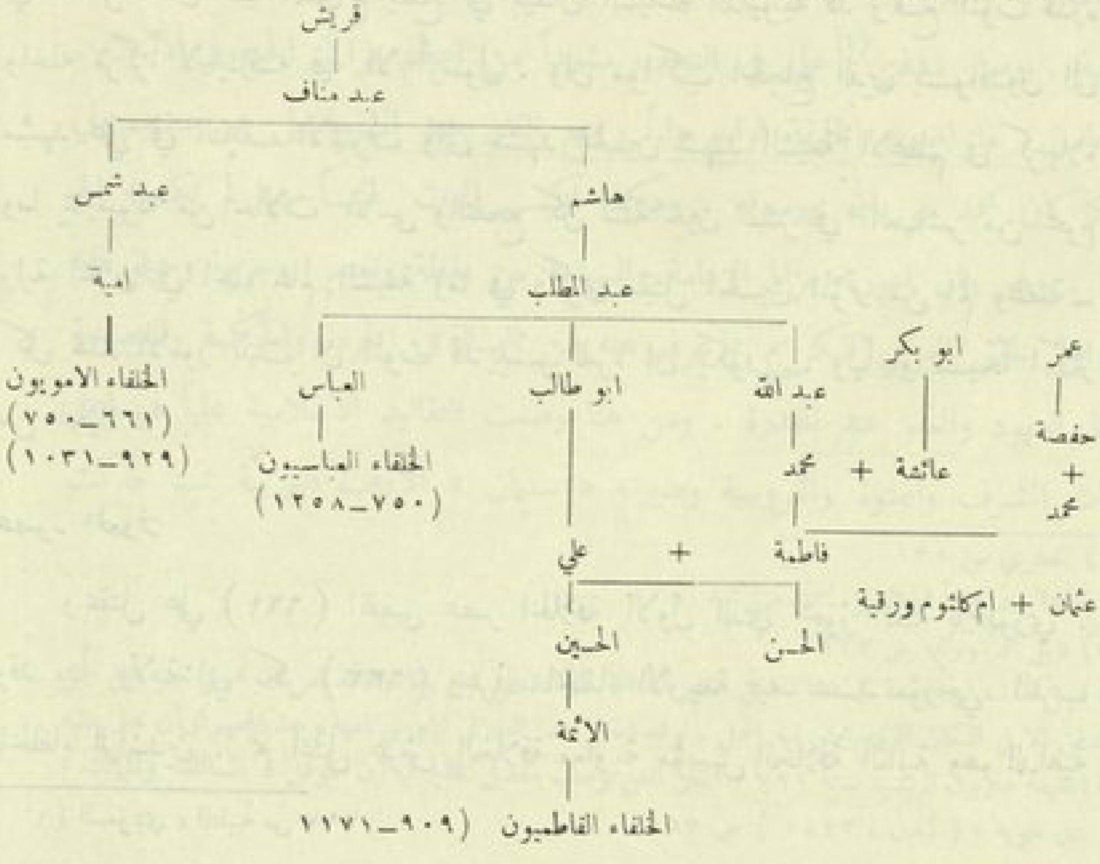
١) المسعودي ، التنبيه ص ٢٩٧

المجرب فاقترح حين استتب له الأمر ان يعين ابنه يزيد ولياً للعهد فأسس بذلك اسرة مالكة ووراثية ولم يحد من بعده الخلفاء عن هذا النظام كثيراً . ووسع معاوية فكرة عمر في الخلافة فجعلها ملكاً لاول مرة في تاريخ الاسلام . الا أنه أبقى البيعة [١] في الانتخاب الاسمي . والبيعة من معنى البيع . يجعل البائع يده في يد الامير تأكيداً للعهد وهو يشبه فعل البائع والمشتري والمصافحة بالايدي علامة الطاعة . وقامت خلافة بني امية (٦٦١ ـ ٧٥٠) فكانت دمشق عاصمتهم وتلتها خلافة العباسيين (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) في بغداد . ولم تقم للشيعة خلافة كبرى غير خلافة الفاطميين (٩٠٩ ـ ١١٧١) ومركزها الرئيسي القاهرة . اما خلافة الامويين في قرطبة باسبانيا فلقد ازدهرت من ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وآخر خلافة عرفها الاسلام ليست عربية بل هي خلافة آل عثمان التركية في القسطنطينية (نحو ١٥١٧-١٩٢٤). [٢]

---

١) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٧٤ ـ ٥

٢) شجرة نسب تبين علاقات البيوت العربية التي وليت الخلافة :



وفي تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ اعلن المجلس الوطني الكبير بانقره الجمهورية التركية وخلع الخليفة السلطان محمد السادس [١] ونصب عبد المجيد خليفة بعد ان نزع السلطنة عنه . وفي آذار من سنة ١٩٢٤ ألغى الترك الخلافة اخيراً .

الخلافة منصب سياسي

يحسب البعض خطأ ان الخلافة هي مقام ديني بمثابة نيابة عن صاحب الشريعة. ويقابلها هؤلاء برئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ذاهلين عن ان التمييز في دول النصرانية بين دائرتي السلطة الزمنية والسلطة الروحية هو امر مستحدث . فالخليفة باعتباره امير المؤمنين كانت وظيفته الحربية اكثر بروزاً . واما باعتباره اماماً فانه كان يستطيع ان يقوم بوظيفته الدينية فيصلي في المؤمنين ويلقي خطبة الجمعة ولكن هذا الحق نفسه هو مشاع ويجوز لأقل المسلمين قدراً ممارسته . فالزعامة من بعد النبي انما كانت زعامة سياسية لأن زعامة النبي الدينية كما سبق هي زعامة جاءت عن طريق الرسالة لا غير وقد انتهت الرسالة بموته فانتزعت الزعامة ايضاً وما كان لأحد ان يخلفه في زعامته الدينية كما انه لم يكن لأحد ان يخلفه في رسالته . اما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغيرة عليه فالخليفة هو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك اوروبا يفرض عليه قمع اهل الزيغ والالحاد والمارقين ومحاربة البدع وتوسيع حدود دار الاسلام . وكان يستند في تنفيذ هذه الامور الى سلطته الزمنية [٢] .

وان الرجوع الى ما وصفه علماء الشرع الذين عاش اكثرهم في مكة والمدينة وسواهما من المدن البعيدة عن مجرى الحوادث في عواصم الاسلام كدمشق وبغداد والقاهرة بشأن شروط منصب الخلافة وامتيازاته لشيء مضل . فالماوردي [٣] (المتوفى ١٠٥٨) في الاحكام السلطانية ــ وهي رسالة في السياسيات تأثر صاحبها بمثله العليا

---

١) كان اسمه الأصلي وحيد الدين ؛ خلف محمد الخامس في ١٩١٨

٢) راجع Thomas W. Arnold, *The Caliphate* (Oxford, 1924) pp. 9 - 41

٣) ص ٥ ــ ١٠

ـ وابن خلدون [١] (المتوفى ١٤٠٦) في مقدمته الشهيرة وسواهما من الكتاب المتأخرين جعلوا شروط الخلافة : أن يكون الخليفة من قريش ذكراً بالغاً سليم الجسم والعقل شجاعاً نشيطاً وان يحوز غير ذلك من الصفات اللازمة لحماية بيضة الاسلام وا كتساب طاعة الناس بدعوتهم الى الدخول في بيعته والانقياد لطاعته . أما الشيعة فانهم يرفعون قدر الامامة و يقللون من شأن الخلافة . وهم الذين شايعوا علياً وقالوا بامامته وخلافته واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عن اولاده . وليست الامامة في رأيهم قضية تناط باختيار العامة بل هي قضية دينية والرسول اقام علياً خليفة له بموجب النص والتعيين وانتقلت ولايته من بعده الى اولاده الذين قدر الله لهم الامامة الكبرى [٢] . ولقد جعل أهل السنة واجبات الخليفة كما يلي : حفظ الدين وحماية دار الاسلام (وبالاخص الحرمين الشريفين اي مكة والمدينة) وجهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة وتقليد الاكفاء اعمال الدولة وجباية الفيء والصدقات وتقدير العطايا وما يستحق في بيت المال وتنفيذ الاحكام وقطع الخصام حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم [٣] . اما حقوق الخليفة فمنها ان يخطب باسمه ويدعى له في صلاة الجمعة وان تضرب النقود باسمه وله ان يلبس بردة النبي في احتفالات الدولة الرسمية وان يقوم بحراسة الذخائر النبوية [٤] من عصا النبي وخاتمه ونعله وما اشبه .

أما الفكرة التي تجعل الخليفة شبيها بالبابا عند المسيحيين له ما لهذا من السلطة الروحية على ابناء حظيرته في انحاء العالم فلم تلاق رواجاً حتى اواخر القرن الثامن عشر . ولقد اذاع هذه الفكرة الخاطئة لاول مرة مؤلف ارمني كان يقيم

١) المقدمة ص ١٦١

٢) الشهرستاني ص ١٠٨ ــ ٩ ، ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٤ ــ ٥

٣) الماوردي ص ٢٣ـ٤ ؛النسفي ، عمدة عقيدة اهل السنة، نشر كيرتون (لندن، ١٨٤٣)ص٢٨ـ٢٩

٤) قام سلاطين آل عثمان وهم اخر خلفاء الاسلام بصون الذخائر النبوية التي أتى بها السلطان سليم سنة ١٥١٧ الى القسطنطينية عند مرجعه من فتح مصر . ولا تزال هذه الآثار محفوظة في قبة خاصة من السرايا وهي تعد شارة ثمينة من شارات الخلافة .

في القسطنطينية يدعى ده سون واودعها كتابه (صورة عامة للسلطنة العثمانية) [1] .
ورأى عبد الحميد بدهائه ان تلك فكرة تقوي مكانته تجاه الدول الاوربية التي كانت قد اقتطعت اقساماً كبيرة من جسم مملكته واستحوذت على السواد الاعظم من مسلمي آسية وافريقية فشجعها . ثم ظهرت حركة مبهمة يرجع اصلها الى اواخر القرن الفائت اراد اربابها السعي الى جمع شمل المسلمين وتنظيم صفوفهم تحت راية الجامعة الاسلامية وهم انما يقصدون بذلك مقاومة دول الغرب . ولقد كانت تركيا مركزاً لهذه الحركة التي غالى اصحابها في اعلاء ما للخلافة من مزايا عامة شاملة .

(١ *Talbeau général de l'empire othoman*, (Paris, 1788) vol. i, pp. 213 seq.

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت — لبنان

في ٩ محرم سنة ١٣٦٩ الموافق ٣١ تشرين الأول ١٩٤٩